غارانس لوكان
Garance Le Caisne

مازن الحمادة
Mazen al-Hamada

لم يَعُد معنا

سِيرَة مُغَيَّب

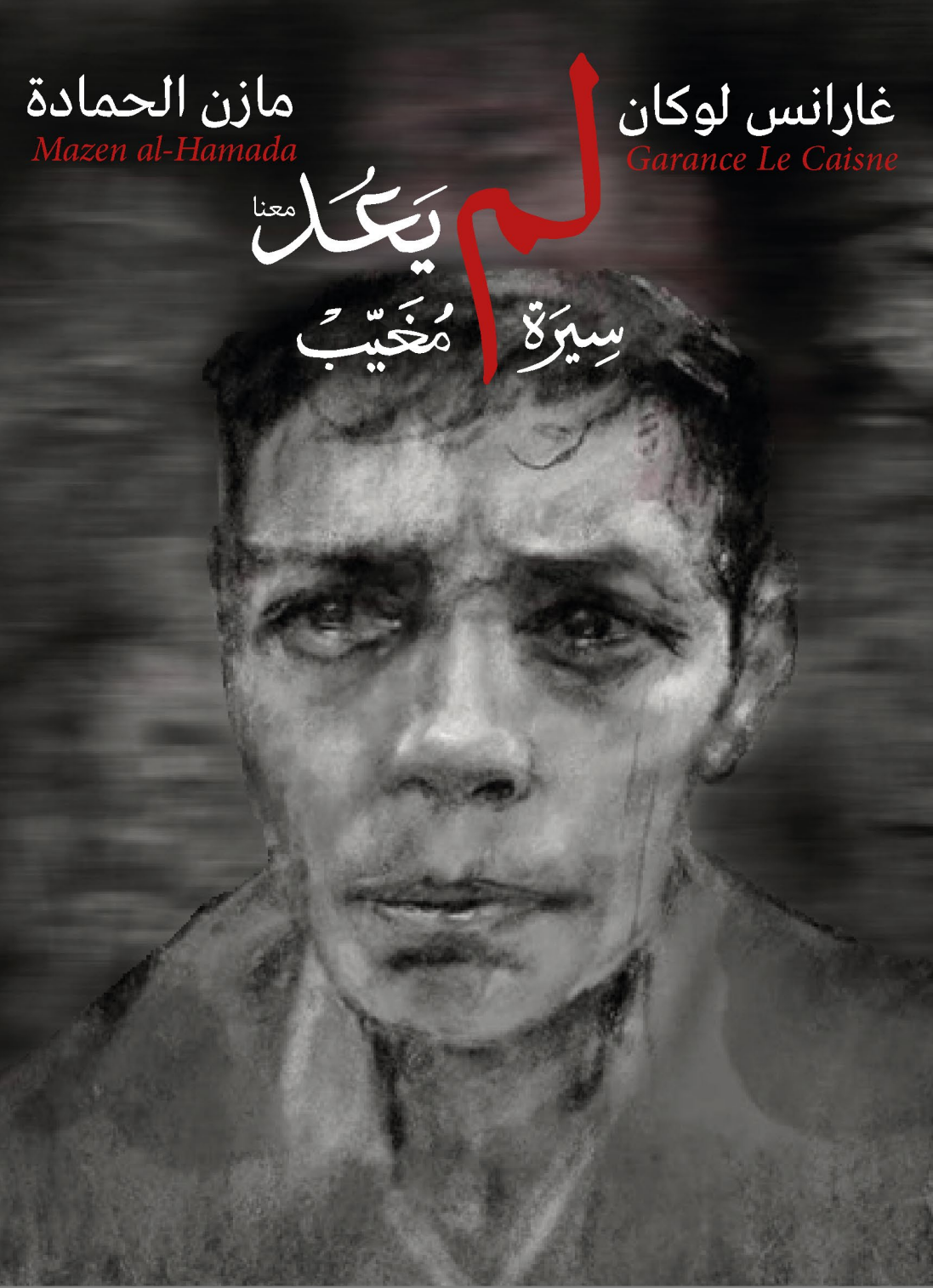

دار الجديد
Dar al Jadeed

غارانس لوكان
Garance Le Caisne

مازن الحمادة
Mazen al-Hamada

لم يعد معنا

سِيرَة مُغَيّب

دار الجديد
Dar al Jadeed

Dar al Jadeed | دَارالجَديْد

فيلا محسـن سليـــم | حارة حـريك | جبل لبنان
daraljadeedbeirut@gmail.com
w.w.w.dar-al-Jadeed.com
جميع الحقوق محفوظة لدار ستـوك
©Éditions Stock ٢٠٢٢
صدر هذا الكتــاب بطبعته الفرنسيّــة بعنــوان:
Oublie ton nom
الطبعة اللبنانيـة الأولى، ٢٠٢٤
تعريب: قلم دار الجديد |
لوحة الغلاف بريشة: مارك نلسون | Marc Nelson©
التّدقيق: الشيخ وليد بومهــدي
الخطوط: الأستـاذ علي عاصـي
الإخراج: نـــــور حـمــداش
أيـادٍ بيضـاء: يـاسر الزيّـات | خليـل عيسى |
ثريّـا فيّـاض | محمــد أمـير نـاشر النّعـم |
مؤسّســـة لقــمان سليـــم
أضفنا هذه الإشارة ⁂ كلّما كتبت غارانس لوكان
بالأصالة عن نفسها.
ترقيم دولي: 978-9953-11-258-9
Cet ouvrage a bénéficié du soutien du Programme d'aide à la publication de l'Institut français.

لكَ،

لعائلتك الصّغيرة، لِلرَّبع،

الكلُّ ينتظرك.

وُلدتُ مثقوبًا

تهبُّ رياحٌ عاتية
تتركُ ثُقبًا صغيرًا في صدري،
تهبُّ رياحٌ عاتية [...]
الرّياحُ تصْفِرُ ثمّ يحلّ الصّمت
هي لعنة الصّمت تلفُّ الأرضَ ومَن عليها:
الحضارة والكائنات
والكواكب.
الثُّقب عميقٌ،
لا شكل له
الكلماتُ لا تعثرُ عليه،
تلوب حوله.
[...]
لا علاج. لا علاج.
هنري ميشو | الإكوادور.

تَحمِلُ حزنها مُذ حملتْ في اللّيل
جثمان شقيقتها. هي ليلةٌ ليلاء
هلْ مَن عادَ مِنها حيٌّ فعلًا؟
شارلوت دلبو | الذّاكرة والأيّام.

مدخل

ودِدتُ يا مازن كتابةَ هذا الكتاب معكَ.

أولُ لقاء لنا كان بداية عام ٢٠١٥ في باريس، عندما وافقتَ على الإدلاء بشهادتك على كتابي الأوّل عن آلة الموت السوريّة. أيّامذاك تعرّفتُ إلى مازن الحُمادة: لاجئ سوريّ في الثّامنة والثّلاثين، يعيشُ في هولندا منذ عامٍ. أدْلَى علنًا بشهادته على ما ترتكبه أجهزة مخابرات النّظام من تعذيبٍ لمعارضيها.

هو فنِّيٌّ سابق في شركة نفط في شمال شرق البلاد. قُبِضَ عليه بتهمة نقل حليبٍ لأطفالٍ يعيشون في حيٍّ محاصَر. احتُجز مدّة خمسةَ عشرَ شهرًا، بين آذار ٢٠١٢ وحزيران ٢٠١٣، في زنزانة أجهزة استخبارات القوّات الجوّيّة في دمشق، ثمّ في سجنٍ مدنيٍّ ثلاثة أشهر أخرى، قبل أن يُخلى سبيلُه ويتمكّنَ من الفرار عام ٢٠١٤.

حين أدلى بأوّل شهادة له، كان قلق الغرب بشأن وحشيّة تنظيم الدّولة الإسلاميّة، تلك الّتي بلغَت هجماتُها أوروبا، أكثر بكثيرٍ من اكتراثه لإرهابٍ مارسه نظام بشّار الأسد على شعبه. فالجرائم التي ارتكبها هذا الرّئيس بحقّ شعبه لم تكن لِتحظى باهتمام يُذكر.

مع ذلك، وبلا كللٍ، كان مازن يُسهبُ في سرد الروايات كلّما سنحت له الفرصة، مؤثِّرًا في كلّ مَن استمع إليه، وهو يُعيد تصوير الإساءات التي تَعرّض لها. تخلّلت مداخلاتِه لحظاتُ صمتٍ، تحدَّثَت فيها نظراته وجسده. كان يروي بأسلوبٍ مكشوفٍ وبلا مواربة، إذ أقْسَم هذا الثَّوريُّ السّابق أن يشهد لعشرات آلاف المسجونين على ظروف اعتقالهم غير الإنسانيّة. تشبّث «النّاجي»

بِـ«ذكريـات الوجـع» قائـلًا: «لقـد دمّـروا ذاكرتنـا، بَيْـدَ أنّنـي أَسـتمدّ قـوّتي مـن ذاكـرة وجعـي». هـذا مـا صرّح بـه لاحقًا، وهـذا مـا احتفظنا بـه ـ نحـن الإعلاميِّـين والمدافعـين عـن حقـوق الإنسـان والسياسّـيين ـ .

إنّ حديـث نصـف سـاعةٍ أو سـاعةٍ إلى رجـلٍ ابتكـر هـذه الجملـة، لم يكـن كافيًـا في عُـرفي. فـما تختزنـه هـذه الجملـة هـو قصّـة حيـاة، وذكريـات، وذاكـرة، وحنـين، وقصّـة بلـد.

مـازن هـو ابـن ديـر الـزّور. وهـي مدينـة نائيـة في شـمال شرق سـوريا، لم تُبـالِ سـلطةُ دمشـق بهـا. إن اسـتثنَيْنا المثقَّفـينَ والطّـلاب والنّاشـطين، ونُخَـبَ العاصمـة، فـإنّ ثـورة ٢٠١١ هـي أيضًـا ثـورة السّـوريّين «العاديّـين»، الّذيـن لم يكـن يُحسَـب لهـم حسـاب. «أراد لنـا النّظـام أن نبقـى جاهلـين»، و«برجوازيّـو دمشـق»، اعتبرونـا «فلّاحـين». عـدّةَ مـرّاتٍ خـلال مقابلاتنـا، كان مـازن ينفعـل ويكـرّر بمـرارة هـذه الفكرة. فالسّـوريّون، بعـد سـيطرتهم عـلى الشّـارع، وبعـد أن انتزعـوا أمـلًا في التّغيـير، فقَـدوا ـ تقريبًـا ـ كلَّ شيء. فالعائـلات مشـتَّتة اليـوم، ومهجّـرة، دُمِّـرت منازلهـا، وكثـير مـن الأحِبّـاء في عـداد المفقوديـن.

مـازن ـ عـلى حـدّ تعبـيره ـ «نمـوذج» يمثّـل هـذه الفئـة. كان لا بـدَّ مـن المحافظـة عـلى كلماتـه، وضحكاتـه، ونوبـات غضبـه، مـن أجلـه، ومـن أجـل شـعبه، ومـن أجـل العـالم. لـذا، قرّرنـا أن نكتـب معًـا كتابًـا. وفي عامَـيْ ٢٠١٧ و٢٠١٨ انطلقنـا في هـذه المغامـرة مـع صديقـة قديمـة، الشّـاعرة عائشـة أرنـاؤوط، التـي قامـت بالتّرجمـة. لهجـة الدّيـر مميّـزة. قضينـا أيّامًـا طويلـة نسـتمع فيهـا إلى مـازن، في شـقّة عائشـة الباريسـيّة، وفي منزلـه في قريـة هيلغـوم الهولنديّـة، وفي مزرعـةٍ قديمـةٍ في ريـف النّورمانـدي.

كانـت قصّـة مـازن في كثـير مـن الأحيـان مفكّكـة، ومتأرجحـة بـين

ذهـابٍ وإيـابٍ، وفوضويّـة. فهـذا رجـلٌ محطّـمٌ، عُـذّب وجُـرّد مـن إنسـانيّته. ليـس دقيقًـا في التَّواريـخ. كنّـا نسـأله العـودة إلى سـنوات خَلَـتْ كي يفتّـش في ذكرياتـه: مشـاعره، والرّوائـح، والألم؛ أمَّـا الحنـين إلى الفـرات فهـو مـا كان يطفـو دومًـا.

شـارلوت دلبـو، وفـارلام شـالاموف، وبريمو ليفـي، وجوليـوس مارجولين، وخورخـي سـيمبرون، وآخـرون، رافقـوا ـ سرًّا ـ مـا بـاح بـه. فَهُـم يشـهدون للإنسـانيّة وبـلا ريـبٍ عـلى معسـكرات الاعتقـال النّازيّـة، ومعسـكرات العمـل السّـوفياتيّة. شـيئًا فشـيئًا شـعرتُ بـأنّ شـهادته عـن الهاويـة سـتجد مكانًـا لهـا في أدب معسـكرات الاعتقـال. ضحكنـا عندمـا قـال لنـا ـ بـين سـخريةٍ وجِـدٍّ: «أنـا ابـن البلـد... أنـا يقِـظٌ دومًـا... أنـا منطقـيّ...». شـعرنا منـذ شـهادته الأولى بأهمّيّـة قصّتـه، فهـي مزيـجٌ جـذّابٌ مـن خطـورةٍ وسـخريةٍ ولامعقـولٍ. قصّـةٌ جارفـةٌ مـن الصَّعـب نسـيانها.

ونحـن نسـجّل معـه، واصـل مـازن جولاتـه في مـدنٍ أوروبيّـةٍ وأميركيّـةٍ متحدّثًـا عـمّا عاشـه وعانـاه. فبعـد كلّ رحلـةٍ كان يعـود مكتئبًـا، متيقِّنًـا أنّ مَـن يسُـوس العـالم لـن يحـرّك ساكنًا. انتابَتْـه نوبـات مـن الغضـب والضّغينـة، لأنّـه فقَـدَ عائلتـه في ديـر الـزّور، وفقَـدَ وطنـه. هـو صغـيرُ عشـيرتِه المكوَّنـة مـن ثمانيـةَ عـشرَ أخًـا وأختًـا، التـي شـتّتَتْها الحـروب والمنـافي والمخـاوف و... المـوت.

صـار محكومًـا عليـه بالعزلـة، ودميـةً تحرّكهـا أَيادٍ حسَـنةُ النِّيَّة، تسـعى للتّنديـد بالهمجيّـة. صـار ضائعًـا. رفَـض مـا اقـتُرِح عليـه مـن علاجـاتٍ نفسـيّةٍ حـين تكاثـرت نوبـات عنفـه اللّفظـيّ، ولم أَعُـدْ أَعـرف مـا العمـل معـه... وهـو في هاويتـه، أوقَفْنـا مـشروع الكتـاب.

شـعرنا بـأنّ مـا خطّطنـا لـه قـد سـقط، وانشـغلنا بأُمـورٍ أُخـرى أَبعدَتنا

عـن مـازن. عندمـا علِمْنـا في أحـد أيّـام شـهر فبرايـر ٢٠٢٠ أنّـه قـد عـاد إلى دمشـق، شـعرنا بالذّنـب. فَـوْرَ وصولـه، اعتقلتـه المخابـرات الجوّيّة، واختفـى مـرّةً أُخـرى في إحـدى الزنازيـن السّرّيّـة التّابعـة لهـا. صحيـحٌ أنّ دوِيّ الحـربِ قـد همـد في أغلـب المناطـق، لكـنّ نظـام دمشـق واصـل الاعتقـالات والتّعذيـب والتّغييـب؛ أي إنّ الحـرب المعلنـة ضـدّ النّـاس مسـتمرّة.

مـازن الحُـمادة في دمشـق. مأسـاةٌ عصيّـة عـلى الفهـم... مـاذا لـو...؟ مـاذا لـو كتبنـا هـذا الكتـاب، ولـو كان...؟

كلماتــه المســجّلة، وابتســاماته، ودموعــه، وتــذكار قامتِــه النّحيلــة ذاتِ الكتفَـيْن البارزتَـيْن، ويدَيْـه الطّويلتَـيْن الكثـيرَتَي الحركـة، وخدَّيْـه الأجوفَـيْن، ونظرتِـه، نعـم، نظرتـه الخاليـة مـن الأمـل، كُلُّهـا بقيـت معـي ثـلاثَ سـنواتٍ في صنـدوقٍ مـن الـورق المقـوّى، معلّقـةً مُعَذِّبـة. كالرفيـق المُخْلـص، ظلّـت معـي كلُّ هـذه الصُّـوَر. لا سـبيل إلى تركهـا تتـلاشى في غياهـب النّسـيان. ولكـن، هـل أَسـتطيع أَن أَنـوب عنـه؟

بعثـتُ برسـالةٍ إلى شـقيقه الأكـبر أبـو الجود، الحـاضر دومًـا في أحاديثه. يَسـاريٌّ، رفيـق سـفر الشّـيوعيّ ريـاض الـتّرك منـذ زمـنٍ طويـلٍ، أَشـهَرُ مُعـارضي البـلاد الّـذي اضطُـرّ إلى المغـادرة إلى منفـاه الباريـسيّ، وهـو في الثّامنـةِ والثّمانـين في عـام ٢٠١٨، بعـد ثمانيـةَ عـشرَ عامًـا أمضاهـا في السّـجن، حيـث اعتُقـل في ثمانينيّـات القـرن المـاضي، ثـمّ هـام سـنواتٍ شريـدًا فـارًّا مـن وجـه سـجّانيه.

أبـو الجـود يعيـش طريـدًا أيضًـا في سـوريا. وصلنـي جـوابٌ منـه فـاق توقّعاتي:

«إنّ اهتمامـكِ بقصَّـة مـازن بوصفـه أحـد المشـاركين في الثّورة السّـوريّة المجيـدة، كان لـه تأثـير فِيَّ وفي عائلتـي لا يمكنـكِ تخيّلُـه! أخـيرًا تنبّـه

شـخصٌ عـلى وجـه هـذا الكوكـب اللّعـين، وقـرّر الاعـتراف بجُثثِنـا، وتقديـر دمائنـا، والشّـعور بإنسـانيّتنا[...] مـازن أَصغـر إِخـوتي. بدافـع الحـبّ، كان والـدي وجميـع أفـراد الأسرة يدلّلونـه. وقـد اسـتمرَرْنا في هـذا المنـوال نـزولًا عنـد رغبـة كبـير العائلـة؛ مـا جعـل منـه إنسـانًا هشًّـا وشـديد الحساسـيّة. مـا تَحمّلَـه مـن تعذيـبٍ وفظائـعَ وأَهـوالٍ وهـو نزيـلُ السّـجن يفُـوق كلّ احتـمال، قياسًـا عـلى صغـر عمـره، وقلّـة تجاربـه...».

مازن لم يَعُدْ معنا... لا مفرّ إذًا من الكتابة.

هـذا الكتـاب ليـس تحقيقًـا. فلسـتُ في وارد التّفتيـش في تفاصيـل حياتـه وتصرّفاتـه وسـاعاته الأخـيرة في أوروبـا، ولـن أُحـاول تفسـير اختفائـه. فهنـاك وثائـقُ ودراسـاتٌ اسـتقصائيّةٌ وروايـاتٌ، تحـكي عـلى أكمـل وجـهٍ مـا فعلـه النّظـام بِناسِـه.

كلَّا، هـذه الصّفحـات هـي صفحـات مـازن. أَفَلَـمْ يعهـدْ لنـا بصوتـه وكلماتـه وضحكاتـه وهمسـاته، كي نصغـيَ ونسـتمع إليـه وهـو يتذكّـر؟

محطّاتٌ من حياة مازن الحُمادة

- وُلد مازن الحُمادة في دير الزّور يوم ٣ تمّوز ١٩٧٧.
- ٢ نيسان ٢٠١١: اعتُقل أوَّل مرة في مدينته، بعد مشاركته في المظاهرات مع انطلاق الثّورة السّوريّة.
- ٢٩ كانون الأوّل ٢٠١١: اعتُقل مرّة ثانية للسّبب نفسه.
- ١ آذار ٢٠١٢: اعتقلته المخابرات الجوّيّة مرّة ثالثة في دمشق، عندما كان يُوزِّع الحليب والأدوية على أطفالٍ من سكّانِ حيٍّ مُحاصَر.
- ٥ حزيران ٢٠١٣: نُقل من شعبة المخابرات إلى سجن عدرا المدنيّ.
- بداية شهر آب ٢٠١٣: أطْلَق القاضي سراحه، إلّا أنّ الأمن السّياسيّ اعتقله فور خروجه من المحكمة.
- أُطلق سراح مازن يوم ٣ أَيلول ٢٠١٣، بعد ثمانيةَ عشرَ شهرًا من الاعتقال.
- غادر مازن سوريا في الرّبع الأَوّل من عام ٢٠١٤.
- وصل إلى هولندا بعد بضعة أشهُر.
- ٢٢ شباط ٢٠٢٠: عاد مازن إلى دمشق في ظروفٍ غامضةٍ.
- قبضَت أجهزة المخابرات الجوّيّة عليه في المطار.

منذ ذلك الحين أصبح واحدًا من ٩٥٦٠٠ مغيَّبٍ، اختفوا بعد أن اعتقلهم النّظام تعسّفيًّا بين آذار ٢٠١١ وآب ٢٠٢٢.

الفـصـل الأوّل

تريديـن أن تعـرفي؟ حسـنًا. أنـا ابـن هـذا البلـد. سـأسرد لـكِ «عيّنـةً» مـمّا حدث.

لقـد طالبْنـا بالحرّيّـة، بالحرّيّـة فقـط. فهَبّـوا إلى قتلنـا، اعتقَلونـا، وعذّبونـا، وقطعـوا رؤوسـنا. قصفونـا بـكلِّ أنـواع الأسـلحة: البراميـل المتفجّـرة، والصّواريـخ، والفوسـفور، وكلّ مـا يمكنـكِ تخيّلُـه. لقـد أحرقونـا، واعتقلونـا، وقتلونـا، وعذّبونـا. التّعذيـب فـنٌّ، والسّـجّان المحـترفُ يـدرك ذلـك، ويسـعى جهـده كي يُفْقِـدَ السّـجينَ عقلَـه. طالبْنا بالحرّيّة، فنكّلوا بنا. ماذا لو طالبْنا مثلًا بثروات البلد؟

أَمـزحُ بالطّبـع. لكنّـكِ تعلمـين أنّهـم دمّـروا ذاكرتنـا. دمّـروا طفولتنـا وذكرياتنـا وأحلامنـا. لقـد هدمـوا جـسر نهـر الفـرات. لقـد حاولـوا محـو إنسـانيّتنا، وأخلاقنـا، ومبادئنـا؛ أيْ أُسِّ حياتنـا. فرّقونـا أيـادِي سَـبَأ. دفعونـا دفعًـا إلى قلـب التّطـرّف.

سأُخبركِ.

لقـد عايشـتُ بدايـات الثّـورة والسّـجن والحـرب. الـكلّ طالَـب بي: نظـام الأسـد، وداعـش، والفصائـل المتطرّفـة. في إحـدى الأُمسـيات، اجتمعـتُ مـع إخـوتي الأَكـبر سـنًّا. كان وضعـي قـد بـات حسّاسًـا قـاب قوسَـيْن مـن الأسـوأ، فقـرّرتُ الرّحيـل.

وصلـتُ إلى أوروبـا عـن طريـق البحـر. لم أَصِـلْ ببدلـةٍ نظيفـةٍ، وبدعـم إحـدى السّـفارات. اعتُقلـت مرّتَـين في اليونـان. وأبحـرتُ عـلى مـتن قـارب إلى إيطاليـا مختبئًـا في شـاحنة. عنـد حلـول الظّـلام، وعندمـا سـاد الهـدوءُ الميناءَ، فتحـوا الأبـواب للسّـماح لنـا بالرّحيـل. أُصبـتُ في

قدمي وأنا أحاول تَسلُّق حائط. هِمْتُ في الجبال والبراري. ودِدْتُ لو أُواصل رحلتي إلى النّرويج، لكنّني توقّفتُ هنا في هولندا. أُصِبْتُ بالجَرَب، وأُنْهِكْتُ. لاحقًا صارت مشاهد قنوات المياه والمروج والأبقار تُذكّرني ببلدي، وبمزرعتنا. صارت الطّبيعة تهدّئني، وهذا ما استشعَرْتُه، عِلْمًا أنّني لم أكن قد اختَبرتُ بعدُ هذا العلاجَ: العلاج بالطّبيعة.

في مركزٍ لِلّاجئين، لم أكن أعرف أين أنا، وكنتُ غائبًا عن نفسي. كانت المرّةَ الأولى التي أُواجه فيها وَحْدتي. جلستُ على السّرير في الغرفة الصّغيرة العارية، وارتديتُ قبّعتي التي فوقها بطّانيّة الصّوف. هدأ رأسي حين أَرحتُ نفسي من الضّوء. كان المركز معزولًا، يقع في غابةٍ على الحدود مع أَلمانيا. ولبلوغ القرية القريبة، تُقِلُّ الرّاغبَ حافلةٌ. إلَّا أنّني بقيت في الغرفة، بقيتُ وحدي كي أفكّر.

«ماذا حدث؟» سألتُ نفسي، ثم تابعْتُ هامسًا: «هل يعملُ عقلي؟ وهل أفهم ما يحدث لي؟ وهل أرادوا قتلنا لأنّنا طالبْنا بالحرّيّة فقط؟».

تخيّلي! هذا هو أنتَ... لقد عشتَ كلّ ذلك. أتيتَ، ووصلتَ إلى هنا، إلى هذا المركز. أنتَ ببساطةٍ تريد... لا أتذكّر، لقد وصَلْت. أنتَ تُريد فقط... لم يَعُدْ لديك مكانٌ خاصّ بك، وليس لديك أيّ شيء. أنت وحيدٌ، منفيٌّ. والآخرون معك ماذا يفعلون؟ مِن أين أَتَوا؟ ومن أيّ بلد فرّوا؟

كنتُ أقفُ بحزمٍ أمامهم. أمّا في سرير الغرفة الصّغيرة، فتكوَّرتُ تحت البطّانيّة، ووجهي على ركبتيّ. آه. ودِدْتُ لو يأتي مَن يُعينني على مدّ رجلَيّ، ويَربط يديّ بحبلٍ ويسحب، ويسحب، لكي يستقيم ظهري. فقدْتُ عضلاتي، أذابها الوهن.

في رأسي أزيزٌ مؤلمٌ: زززززززز... تاك تاك تاك تاك. أصواتٌ تصطدم بدماغي. الطّائرات، المعتقلون، القتلى، المحروقون. ناس، ناس، ناس. تاك تاك تاك. فتحتُ هاتفي، على الشّاشة نقرتُ. وهذا الأزيز... ما رأيتُه من فظائعَ يفُوق الخيال.

عليّ أن أشهدَ. قلتُ لنفسي: «لا يمكنُكَ لا الهربُ ولا كبْتُ ألَمِك. أَنْ تكون صادقًا مع نفسك ومع المجتمع الهولنديّ الذي رحّب بك، هذا هو المطلوب».

محظوظٌ أنا؛ إذ خرجتُ على قيد الحياة محتفظًا ببعض رُشدي. هذا قدَري وحظّي. يُقال عند المسلمين: إنّ النّجاة حياةٌ جديدةٌ.

سأعمل من أجل القضيّة بأسلوبٍ صادقٍ وشفّافٍ. سوف أَشهد لكلّ المساجين، لكلّ القابعين في السّجون. إنّه واجبي الأخلاقيّ بوصفي سوريًّا، تجاه شعبي وقضيّتي. هناك في الزّنازين مَن ينتظرون موتًا لم يَضرِب لهم موعدًا مُحدّدًا... مغيّبون في قبوٍ، أو مكتبٍ... أو قاعة تدريسٍ حُوِّلت إلى زنزانةٍ قذرةٍ... مغيّبون عن أنفسهم... عينُ العالم لا تراهم كما أَعين عوائلهم، التي ترجو الشّرطةَ العسكريّة والمحاكم والفاسدين تزويدها بمعلومةٍ مطَمْئِنةٍ عنهم. كم عدد المفقودين الّذين لا خبَرَ عنهم البتّة؟

التّكيُّفُ مع البلد الجديد على رأس أولويّاتي.

هنا، يُنقل اللّاجئون من مركز إلى آخر بضعة أيّام أو شهور، ريثما يجدون لهم شقّةً. الطّعام لا يكفي. ذات مرّةٍ اصطدنا بطّةً وطهوناها، لحمُها مدهنٌ: يا له من صيدٍ أرعن. وفي مرّة أُخرى، اصطدنا سمكةً، وبينما كنّا نشويها هُرِعَ نحونا حرّاس المركز وقالوا: «ماذا تفعلون؟ صيدُ السّمكِ ممنوع». كنّا قد نظّفنا السّمكة، وحشَوناها بالفلفل الأحمر وخليط الخضار. لفَفْناها

بـورق الألمنيـوم وثقبناهـا بعُودَيـن، ووضعناهـا عـلى نـارٍ أشـعلناها مـن حطـبٍ في زاويـةٍ مزروعـةٍ بالعشـب. القصّـة مـا زالـت تضحكنـي إلى اليـوم.

سألَني أوّل صحافيّ التقَيتُه في هولندا عمّا يُعجبني في هذا البلد.

ـ «الدّرّاجات الهوائيّة» أجبتُه متذكِّرًا درّاجتي النّاريّة في دير الزّور.

نظـرتُ إلى قدمَـيّ وهـو يطـرح عـلَيَّ أسـئلته، وإلى النّـدوب السُّـود الموشـومة عـلى جسـدي بسـبب التّعذيـب، حرقًـا بالكهربـاء والسّـجائر والمكـواة السّـاخنة. أَصغيـتُ إلى أَسـئلته متفحّصًـا أسـفل قدمـيّ.

اقـتَرَح عـليّ أَن أُجـرّب ركـوب الدّرّاجـة. كيـف لي أن أفعـل وأنـا في هـذا الوضع؟!

كيـف لي أن أشرح لـه ولجميـع مَـن يسـأل أَنّنـي عائـد مـن جهنّـم؟ حـين سـأروي قصّتـي سـتفهمين.

بعـد لقـائي بالصّحـافيّ الأوّل، التقيـتُ بآخَـر ثـمّ بآخَـر. أَدليتُ بشـهادتي مـرارًا وتكـرارًا في هولنـدا وفرنسـا وإيطاليـا وماليزيـا، وأيضًـا وصـل صـوتي إلى الولايـات المتّحـدة، صـوتي وصـورتي، عـبْر مجموعـةٍ مـن الأفـلام. أيضًـا شـاركتُ في مظاهـراتٍ كثـيرةٍ في شـوارع أوروبـا.

كنـتُ متأهِّبًـا دومًـا، ولا أعـرف مـا الّـذي ينتظـرني، وأيّ عـبءٍ ثقيـلٍ ملقًـى عـلى عاتقـي، أنـا الإنسـان الخائـر القُـوَى.

في كلّ مـرّةٍ أقِـفُ فيهـا مثبِّتًـا قدمـيَّ عـلى الأرض، وناظـرًا باتّجـاه الطّريـق الصّحيـح الّـذي لا طريـق غـيره في عُـرفي، كنـتُ أُضرَبُ في «بيـت أبي»، وأُعـارَض، وأُدفَـع دفعًـا إلى الجنـون. خذلنـي مَـن خِلتهـم أصدقـائي. رأيتُهـم «يتاجـرون» في قضيّتنـا.

أُقسمُ لكِ إنّني مُنهَكٌ. لا أُتاجِر في الدّم، ولا أَبيع دمَ عائلتي وشعبي. تجّارُ الدّم فَسْدَى أُمّيّون. الأُمّيُّ هو أُمّيُّ الأخلاق، وهذه زبدة ما علّمَتني إيّاه التّجارب.

في يومٍ من الأيّام سيستيقظ العالم. المَصالحُ آفةٌ، لا بدَّ من دفنها وتنظيف مخلّفاتها. ففي يوم القيامة «يوْمَ تَبْيَضُّ وُجوهٌ وتَسْوَدُّ وجوه»، سيُحَصحَص الحقّ. يومها سأقول لكلّ مَن سخر منّي: «أرأيتم؟»، في النّهاية لا غالبَ إلّا الحقّ.

الفصل الثّاني

شاركتُ في برنامج يَبثّه التلفزيون الهولندي. كنا ثلاثةً: رجُلًا إفريقيًّا، وآخَرَ هولنديًّا، وأنا. تحدّثتُ عن هروبي من سوريا ووصولي إلى هنا، وعن أسباب الاحتجاجات، والحرية، والكرامة. في اليوم التالي، تلقّيتُ مجموعة من الرسائل. في إحداها عرَضتْ عليّ سيدة هولندية متقدّمة في السنّ أن أقابلها. كانت جدّتُها قد عاشتِ الحرب العالمية الأولى، وهي متخصِّصة في علاج صدمات الحروب بالأعشاب. زُرتها مع صديق. فأعطتني علبتَين من الأدوية تفوح منهما رائحة خلاصة الحشيش.

عندما خرجنا، ضحكنا (أنا والصديق).

ــ أهذا هو ما سوف يشفينا؟

قد نحتاجُ إلى متخصّص يفتحُ رؤوسنا، ويفكّكُ أدمغتنا، كي يرى ما في داخلها، ويتحقّق من حُسن سير الأوردة، علّه يصحّح ما

فَسَـد. مـا أَحْوجنـا إلى شـخصٍ قـادر عـلى الترتيـب والتنظيـف: نَـزْعِ البراميـل والصواريـخ والمـواد الكيميائيـة؛ والتعذيـبِ والسـجن؛ وتنحيـةِ مـا حـدث خـلال السـنوات السـبع الماضيـة، وسـنَتَي الاعتقـال، وأشـهُرِ الثـورة... واسـتئصالِ ٧٠٪ مـن ذاكـرة تالفـة.

عندمـا وصلـتُ إلى أوروبـا، كنـتُ قـد شـاهدتُ مـا لا يوصـف. أعـرف بالتفصيـل أَلَـمَ كلِّ مَـن عـانى. عـلى فكـرة، زنازيـن السـجون حيـث عشـت، لا تلفزيـون فيهـا.

شـهادتي أمـام العـالم هـي جـزء يسـير مـما عشـته. أن تَسـمع أو تتحـدّث عـن موضـوعٍ مـا نُزهـة، إن قارنتـه بمـا عشـناه.

أَنكـسِرُ كلّـما راجعـتُ مـاضِيَّ. أريـدُ الحيـاة، وأريـد أن أعيشـها هـذه الصعبـةَ المقلقـة. أجلـسُ مـع وَحْـدتي، فينفتـح صنـدوق الذكريـات، وأعـود إلى هنـاك. أحيانًـا أرى منظـرًا طبيعيًّـا، وصـورةً فوتوغرافيّـة تعيـدني بلمـح البـصر إلى سـوريا. الأمـر مـؤلم، والعـودة إلى هـذه الذكريـات أمـر متعـب يحبطنـي. أشـعر وكأن رأسي سـوف ينفجـر. زيييييييييييييييييييييييييهـم... يثقبونـه بصواريخهـم. رأسي سـينفجر. الوجـع عميـم. السـجن، المجـازر، حـروقُ التعذيـب. وجعـي ووجـع الآخريـن المقصوفـين، وسـاكني الخيـام.

وجعـي رهـن يـدي. الجـرح هنـا في جـوفي، وكأنّنـي بِتْـتُّ نصفَـين. أوّاه. أشـعر بهـواء يتـسرّب إلى داخـلي، يدمّـرني. أشـعر بنصـل يَدخُـل فِيَّ، ويَخـرج ببـطء.

لقد كان موتًا بطيئًا، بطيئًا جدًّا، رويدًا رويدًا. أتفهمين؟

اليـوم، بسـبب العمـلِ تتراجـع معانـاتي، وكلُّ مـا يصاحبهـا مـن تعقيـد. يريدوننـي مجنونًـا، ويدفعوننـي إلى الجنـون دفعًـا. كـم عـدد أفـراد

عائلتي المعتقلين والموتى؟ لن أكافئهم، ولن أصير متطرّفًا. أنا أؤمن بمبادئ الديمقراطية، وبالعدالة. حتى ولو طال الزمن، سنحصل على حقوقنا. كلُّ شيء سيعود إلى نصابه، جيلًا بعد جيل، سنعيد بناء ما تَهدّم.

لحسن الحظ الكلامُ ما زال ممكنًا. ما إنْ وصلتُ إلى أوروبا حتى أَدْلَيتُ بشهادتي. هل تتذكرين يوم التقينا أوَّلَ مرة في منزل عُمَر؟

❖ نَعَم عُمَر، وخليل أيضًا، وشخص أو شخصان آخَران، انمحتْ صورهم من ذاكرتي. هم سوريّون، لجَؤُوا منذ زمن بعيد أو في الآونة الأخيرة إلى فرنسا. «أجِبْ عن السؤال» قال أصدقاؤك. كان ذلك في ربيع عام ٢٠١٥، في باريس، يوم التقينا أوَّل مرة. يدي، آه من يدي. تُحاول تدوين قصّتك من البداية إلى النهاية، بتسلسل منطقيّ وتواريخ، وكأنّني كنتُ أحاول جمْعَ شظاياك.

«أجِبْ عن السؤال يا مازن» ظل أصدقاؤك يردِّدون. لقد كنتَ تُدلي بشهادتك وأنتَ تُمثّل. تقفُ ثمّ تُقرفصُ ثمّ ترفعُ ذراعيك ـ ذراعَيْك الطويلتَيْن ـ فوق رأسك، وتخطو خطوتين، وخطوة ثالثة. وأنا أحدّق إليك بانخطاف وخوف وذعر. تَشبّثتُ بما رويتَه لي من وقائع، كي لا يذيبها الزمن. تشبّثتُ بدقائق التفاصيل، لا لأنّني أخشى ألّا أقتنع، بل كي لا أغرق وينكسر قلمي.

جُمَلُكَ منجَّمَة، متسارعة. رأيتُني أعْدُو خلفها، وخلف لهجة دير الزور العصيّة، تلك التي لن أعتادها أبدًا. كنتَ كثير الحركة. مجنونٌ مَن يتوقّع منك أن تجلس بهدوء.

كلامُك حِصْنُك. أيّامذاك لم تذرف أيّةَ دمعة، على نقيض ما سيَحدثُ

لاحقًا. ليتَك بكيتَ، لرُبَّما ساعدْتَنا. أفليست دموعُ الناجي كرمًا لاواعِيًا، أو محطّةً تُعيننا على هجرِ ما يحيط بنا من همجيّة؟ كأنّ ماءَ العيونِ أرضٌ نائيةٌ مُحايدةٌ تجمعُنا. بين الصمتِ والعويل، فليكُنْ عويلٌ وتنهُّدات وإنسانيّة (إنسانيّة خفِرَة) شاحبة، تؤكّد لنا أنّنا على قيدها. فالمُغيّبُ الصامت يتركنا وجهًا لوجه نُنازلُ شياطيننا، وهذه قصّة أخرى.

كنّا ستّة في غرفة الجلوس، تلك العابقة بدخان السجائر، وفَوْح رائحة الشاي الأسود المحلّى بكثير من السكّر. كنّا ستة، بَيْد أنّكَ سيّد المكان. أنتَ؟ لا... عنَيتُ معاناتك. ❖

أردتُ للسرديّة أن تُفهم كيف ترابطت من كلّ زواياها، وتتالت فيها الأحداث... اعتقالي، أهو بسبب الاحتجاجات أم المظاهرات؟ أهو مرتبط بما ارتُكب من جرائم قبل الثورة وخلالها؟ قصتنا كالنسيج، الذي تتشابكُ خيوطه وتتضافر. لكي نفهم، لا بدّ من تفكيكها خيطًا خيطًا، وإعادة حبكها من الثورة إلى السجن، إلى المنفى. لعلّني شاهدٌ بالفطرة، وكاشفُ حقائق لا يُوارب، حتى ولو ظنّ ناسُ بلدي أنّني مخطئ. أسلوبي هو عكس اللَّفّ والدوران، حين أبكي تهطل دموعي مِدرارة.

قبل لقائنا الأول، اتصل بي شقيقي الأكبر عبر الهاتف. أزعجني اتّصاله. أبو الجود رجُل قويّ لا يخاف الموت، ولكنّ صوته لم يَرُق لي. أبلغني أنّ «القصف يفُوق الخيال». أعْيُنُ السوريين تُراقبُ السماء المزدحمة بطائرات يَفُوق عددُها سيارات الدير أو الرِّقّة.

كنية أخي: أبو الجود، لأنّ ابنته البكر اسمها جود. أبو الجود (أو فوزي)، غلب عليه اللقب، وهو يَكبرني بثمانية عشر عامًا.

أبـو الجـود رجـلٌ رصـينٌ، وهـادئ، يدخّـن سـجائرَ «حمـرا طويلـة» مـع قهوتـه، وهـو يقـرأ أو يكتـب عـلى حاسـوبه. عمِـلَ في مختـبر طبّـي. يفكّـر ويقـرأ، يفكـر ويقـرأ. رجـلٌ متّـزن. إن لم تُوجِّـه إليـه الـكلام يصمـت، وإنْ تَحـدّث فصَوتُـه منخفـض هامـسٌ، ويدعـوك إلى الاقـتراب منـه.

اليـوم، شـقيقي طريـدٌ، يتنقّـل مـن مخبـأٍ إلى آخـر. فالنظـام وداعـش يطاردانـه.

كيف لي أن أشعر بالطمأنينة بعد أن قتلوا عائلتي وأصدقائي؟

صِرنا شتاتًا.

الفصـل الثالـث

والـدي تاجـرُ أغنـام، اعتنـى هـو وعائلتـه بـأرضٍ متراميـة، تَبعـد بضعـة كيلومـترات عـن ديـر الـزور: مزرعـةٌ، وحقـول، وإسـطبلات، ودجـاج، وأشـجار مثمـرة. عشـنا أحـرارًا، نتـصرّف في وقتنـا عـلى هوانـا.

اعتدنـا التنـزّه مسـاء كلّ خميـس عـلى ضفـاف الفـرات. فالجمعـة هـو يـوم عطلتنـا الأسـبوعيّة.

مـن مقاهـي الكورنيـش، تَصـدحُ أغـاني أم كلثـوم حتـى يتقـدّم الليـل، والقـوارب تمخـر عبـاب النهـر. عُـرفَ الدَّيـر بمطاعـم الكبـاب والمشـاوي.

أمّـي مـن جهتهـا تُحـضّر مـا لـذّ وطـاب في المنـزل. تَفـرم اللحـم يدويًّـا، ثـمّ تضيـف إليـه البصـل وقليـلًا مـن الملـح، والبقدونـس، والفلفـل الحار.

حين يَجهَزُ الخليط تُوزّعه على أسياخ، خمسين سيخٍ على الأقلّ، ويبدأ الشواء. أُحبُّ اللحم. في رغيف كبير من الخبز، أضَعُ ما لا يقلُّ عن ٢٥٠ غرامًا من لحم الضأن، وأُضيف إليه البصل، وآكله مع الفلافل والبندورة والجبن.

في الربيع، اعتدنا نصْبَ خيامٍ في الصحراء: واحدة للطبخ، وواحدة للنوم، وواحدة للغسيل، وواحدة نُؤثِّثُها بوسائد سميكة، نلقيها على الأرض ونجلس عليها، كما هو الحال في غرف الجلوس البدويّة. في خيمة أخرى نضعُ كراسي وطاولات للحفلات وللشرب. أحضرنا مُولِّدًا كهربائيًّا كي نُمضي في المكان أيّامًا عديدة. خيامٌ من فئة الخَمْسة نجوم، نُمضي فيها لياليَ من الأنس.

يَبردُ الجوُّ أحيانًا، فنرتدي عباءات من الوبر، ونجتمع حول مدفأة نضع عليها إبريق شاي، نسكبه في أكواب فرنسية مرقّمة في أسفلها. كيف عرَفْنا أنها فرنسية الصنع؟ لأنها لا تنكسر عندما تَسقطُ على الأرض. أنشأنا ملعبًا لكرة الريشة وللكرة الطائرة. اصطدنا بالبنادق الأرانبَ والحجل والسُّمَانَى. ذهبنا للصيد على الدرّاجات النارية أو في السيارات، وكان الشباب يعزفون الموسيقى.

نوسّع للنساء حين يأتين يومَي الخميس والجمعة، وننظّف الخيام، ونرشّ العطور لإخفاء رائحة ما استهلكناه من عرق.

مع الربيع تُزهر الأرض من البوكمال إلى الرِّقَّة، فالفرات قريب. أرضُ دير الزور والحسكة صفراء اللون، خصبة ومعطاء بسبب أمطار الشتاء. أمّا في حماة وحمص فلونُ الزهر أحمر. هذا بلدي، كيف لي ألَّا أعرف لون أرضه؟ أنا ابن البلد، وأعرف الصحراء زاويةً زاويةً عن ظهر قلب.

في مساء الخميس، جرَت العادة أن يجتمع إخوتي الأكبر سنًّا في

بيت واحد منهم. سهرات طرب وسمر تدوم حتّى ساعة متأخّرة. أنا أصغرهم. فارِقُ العمر شاسع بيني وبينهم. أنعس، فأنام. في البداية، لم أفهم بوضوح أحاديثهم عن سطوة أجهزة الأمن، التي تَدخل البيوت وتعتقل بلا مذكّرات توقيف. سمِعتُهم يتكلّمون عن النظام وفساده. بدأتُ أفهم فحوى مواضيعهم حين بلغتُ الثامنة عشرة.

يا أبناء الضواري، عليكم اللعنة.

الفصل الرابع

رَوَّج النظامُ صورةً زائفة عن سكان دير الزور. صوَّرَنا بَدْوًا نعيش في الخيام. وسائل إعلامه، تلك التي يسيطرُ عليها بلا أدنى ريب، درجَت على تصويرنا باعتبارنا «منطقة صحراويّة نائية»، من مرتبةٍ أدنى؛ مواطنين من الدرجة الثانية.

ناسُ منطقتِنا بسيطون كرماء، طيّبون، متضامنون. يعملون بجدّ، ويثمّنون قيم العائلة. منطقتنا غنيّة بحقولها النفطيّة، وأراضيها الزراعيّةِ الخصبة المعروفة بالقطن والقمح. أرغمَتِ الدولةُ الفلاحين على أن يبيعوا لها كلَّ المحاصيل. أصدرت مرسومًا صنّفت فيه أنواع القمح وأسعاره. فلكلّ صنفٍ سعر. كسْبُ المزارعين الضئيل ـ والوضع على ما هو عليه ـ أرغمهم على هجرة القرى إلى دمشق أو لبنان، للعمل في المصانع، أو نواطير بنايات.

الأرضُ وما تُنتجه، آخِرُ هموم النظام. فعَيْنه على مداخيل النفط، تلك التي تُهَرَّب إلى جُيوب ناسه المتغاضين عن إدخال هذه الأموال

في ميزانيّة الدولة. بقرةٌ حلوبٌ، لا أكثر ولا أقلّ، هكذا عاملَ النظامُ منطقتنا. أمّا الوظائفُ المتاحة لأهل الدير في شركات النفط، فهي أدنى رتبةً مما سُمح بها لِعلَويّ طرطوس أو اللاذقية على ساحل البحر الأبيض المتوسط من داعمي النظام. نحنُ الحمّالون والحرّاس والفنيّون، وهم أحيانًا المهندسون.

في صباح كلّ يوم، تُقِلُّنا حافلةٌ إلى مكان عملنا في شركة شلومبرجيه النفطيّة، حيث عملتُ قبل الثورة مع خمسة أو ستة أشخاص من الدير. أمّا الآخرون فكانوا من اللاذقية أو طرطوس. بالنسبة إلى الوظائف العامّة في المدينة، فإنّ الأولويّة للعلويِّين، ومن بعدهم للمسيحيين، وهم بِدَورهم أقلّية. أمّا أهل الدير ـ أي السُّنّة ـ فيوظَّفون على مضض. كنّا عندهم حشرات بلا أدنى قيمة.

أراد لنا النظامُ أن نبقى جاهلين. وفي الانتخابات، دعمَ الجهلة؛ إذ يخشى أهلَ العلم والمعرفة. طُموحُ بطانته التنقّل مع حراسٍ في سيارات «مفيّمة» الزجاج، وعقْدُ صفقات مع أجهزة المخابرات. في البرلمان، رأيناهم لا يطالبون لمنطقتنا بِبُنًى تحتيّة، بل بعلف للأغنام. لا جامعة ولا عمل في منطقتنا، وهم كانوا يطالبون بالتبن.

∴ تُعتبرُ مدينة دير الزور، المعروفة محليًّا بـ«الدير»، من أكبر حواضر شرق سوريا، بحسب يوميّات الثورة السورية. وهي عاصمة المحافظة التي تحمل اسمها، والتي تضم أيضًا الميادين والبوكمال [أو الأبوكمال]. تقع على بعد ٤٥٠ كم شمال شرق دمشق.

تُعدُّ هذه اليوميّات، التي نشرها المعهد الفرنسي للشرق الأوسط (إيفبو)، وموقعُ الذاكرة الإبداعية الإلكتروني، مَصدرًا فريدًا لشهادات على بداية الانتفاضة السورية وسنواتها الخمس، من

الأول مـن آذار ٢٠١١ إلى كانـون الأوّل ٢٠١٥. وهـي تحـكي كيـف أن نسـاءً ورجـالاً في خمسـين مدينـة أو حـيٍّ أو قريـة، شـاركوا فيـما يُفضِّـل المؤلفـون أن يطلقـوا عليـه تسـمية «انتفاضـة»، حيـث إن «المسـار» الثـوريّ «لم يكتمـل بعْـدُ». [«ثـورة»، «انتفاضـة»، «عصيـان»، لا كلمـة دقيقـة أو متّفـق عليهـا لتوصيـف مـا حـدث].

يَـروي الكتـاب كيـف أنّ مدينـة ديـر الـزور «عُرفـتْ مركَـزًا حضاريًّـا يتبـع مملكـة مـاري، التـي يعـود تاريخهـا إلى ثلاثـة آلاف سـنة قبـل الميـلاد، وكيـف أنّهـا عُرفـت بجسـورها السـبعة عـلى نهـر الفـرات. ويُعـدُّ الجسـر المعلّـق، الـذي بنـاه الفرنسـيون عـام ١٩٢٥، مـن أشـهر آثارهـا. سُـمِّيت الديـر بسـبب مجموعـة مـن الأديـار التاريخيّـة المبنيّـة في المنطقـة، وهـي عـلى التـوالي: ديـر الرمـان، وديـر البصـيرة، ثـم ديـر الرحمـة في العهـد العثـماني نسـبةً إلى قلعـة بُنيـت في خراجهـا. أمّـا كلمـة «زور»، فـلا تفسـير واضحًـا لهـا. تقـول بعـض المصـادر إنّهـا: «الغابـة»، أو «الأشـجار»، لكثرتهـا في المنطقـة المحيطـة. ❖

كان والـدي تاجـرَ مَـواشٍ معروفًـا في المنطقـة. رجُـلٌ مسـتقيم، كلمتـه كلمـة، لا يحيـد عنهـا. مِـن بـين كلّ الحيوانـات المحيطـة بنـا أحببـتُ الخـراف، فهـي مباركـة عنـد الـربّ. في صغـري سـاعدتُ والـدي أكـثر مـن مـرّة، وهـو يُعـين نعجـة تعـثّرت ولادتهـا. فـإذا مـا مـات مولودهـا، نخيـطُ مـن جلـده معطفًـا. كان صـوف الصغـير ناعـمًا ملمسـه، يُدخـل السـعادة إلى قلبـي.

أكـثر مـن مـرّة، أيقظنـي والـدي في منتصـف الليـل: «هيّـا يـا ابنـي إلى العمـل».

عندمـا كـبِرتُ، رافقتُـه في رحلاتـه في جميـع أنحـاء سـوريا، وهـو يبحـث عـن

أجـود القطعـان. دوّنـتُ ملاحظـاتي عن هـذه الأسـفار. كان والدي مِثـل أمّي لا يقـرأ، بَيْـد أنّـه لا يغلط لا في الحسـاب ولا في الأخلاق. نعـم... وُلد عـام ١٩٢٥ في ظـل الانتـداب الفرنـسي، ثـم إنّـه عمـل دركيًّـا قبـل اسـتقلال سـوريا.

عالجتُـه مـدّة خمـس سـنوات، حيـث أصيـب بغرغرينـا أدّت إلى بـتر سـاقه. كلَّ صبـاح، كنـتُ أحمـل لـه دسـت مـاء، وأُشرفُ عـلى نظافتـه. في تلـك المرحلـة، كان أغلـبُ الإخـوة قـد غـادروا المنـزل. بقيـتُ أنـا وشـقيقٌ لي مـع أبي ومـع والـدتي. عندمـا بلـغ والـدي السِّـتِّين مـن العمـر، طلـب منـه إخـوتي الأكـبر سـنًّا أن يتقاعـد. فلـمّا وافقهـم الـرأي، أصابـه مـرض السـكري.

اعتنيـتُ بـه كـما يَعتنـي أهـلٌ بطفلهـم. صـار يتمنّـى المـوت ليُجنّبنـي هـذا العنـاء: «تعبُـك راحتـي يـا أبي» كنـتُ أقـول لـه.
ولكـن، لا أعـرف لِـمَ أَسردُ عليـكِ هـذه القصّـة. أردت أن أخـبرك عـن أمـور أخـرى.

لوالـدي زوجتـان، أنجـبَ منهـما ثمـاني عـشرة بنتًـا وولـدًا، وقـد كنـتُ آخـر العنقـود. العِلـمُ بالنسـبة إليـه قيمـة تتيـح للإنسـان أن يَـبرز، وهـو فخـورٌ بذرّيَّتـه. فبينهـم مُحـامٍ، وفنـيّ مختـبرات، وطبيب أسـنان، وممـرّض، ومهنـدس زراعـي، ومعلّـم رسـم وجغرافيـا، ومُسـاعِدة اجتماعيـة، وموظّـف.

في السادسـة صباحًـا، كانـت الوالـدة توقظنـي كي أسـتعدّ للذهـاب إلى المدرسـة، وأتنـاول وجبـة الإفطـار. هنـا في شـقتي، أُحمّـص الخبـز مبـاشرة عـلى الغـاز. في الديـر، كان لنـا فـرن ننقلـه مـن السـطح إلى باحـة البيـت. قبـل اسـتيقاظي كانـت الوالـدة قـد أعَـدّت عجنتهـا

وخبـزت. فـآكلُ مِشـطاحي مُضيفًـا إليـه اللَّبْنـة أو الزبـدة، في الوقـت الـذي تُعِـدّ لي فيـه زوّادتي المؤلّفـة مـن شـطائر بالجـبن أو الزعـتر والزيـت، أو بالدجـاج.

ما ألذَّها! تَدسّها في حقيبتي وتسأل:

ــ هـل أخـذت كلّ مـا تحتـاجُ إليـه؟ وهـل راجعـتَ فروضـك بشـكلٍ جيّـد؟

ــ فـروضي أنجزتُهـا البارحـة مـع شـقيقي أو شـقيقتي التـي هـي أكـبر منّـي. ٦ زائـد ٥، مـازن؟ ضـع خمسـة في رأسـك وعـدّ سـتّة بأصابعـك.

∴ أنـتَ في العـاشرة مـن العمـر، بفـرح تتذكّـرُ سـنوات الطفولـة التـي عشـتها في ديـر الـزور. ضحكاتـك تُرجـرج جـدران شـقتك في هيلغـوم، التـي تَبعـد نصـف سـاعة مـن أمسـتردام. عينـاك تبتسـمان، تمـشي، وتتراقـص، وتـكاد تقفـز بقامتـك النحيفـة الهشّـة، وتترنّـح أحيانًـا، وتـكادُ تتعـثر. لكنّـك تبقـى جالسًـا.

يـداك الرشـيقتان تُقطِّعـان البنـدورة، والكوسـا بدقّـة وأنـت تُدنـدن مـا تحفظـه مـن أغـانٍ لفـيروز. تـكاد النـار تُحـرقُ شريحـة الخبـز، فتمسـكها كالحـاوي، وتتلاعـب بهـا مـن يـد إلى أخـرى قبـل أن تسـتقرّ عـلى الطاولـة. تتمتّـع بالطبـخ للأصدقـاء. تذهـب إلى شرفتـك المطلّـة عـلى مبنـى آخـر، لمراقبـة أسـياخ اللحـم والطماطـم والبصـل. تجلـس القرفصـاء أمـام مَنْقَلِـك المتواضـع. تديـر ظهـرك للنافـذة. أيـن أنـت؟

يجتاحنـا الحنـين. نتذكّـر كـرمَ الولائم هنـاك، ونظـراتٍ تدعـو إلى اللطف، وضيافـةً فطريّـة تحضنُنـا بحنـان أموميّ. هكـذا أنـت. أهـذا مـا جذبني إليـك؟ أهـو الحنـين إلى الأمسـيات الدمشـقية، أم أنهـا هـذه الفجـوةُ

الهائلة التي نُبحر فيها معًا للوصول إلى هذه الأرض البعيدة، ولِنَعبر ظلماتها معًا؟ أنت الآتي من مكان بعيد.

حلاوة طفولتك ـ سنواتك العشر ـ تَغمر الغرفة اليوم. فاسمح لنا بأن نسرق بعضها منك يا صبيّ دير الزور. ❖

كان عبد الرحمن الرفاعي أستاذًا صارمًا مُصرًّا على تعليمنا. فإنْ كتبنا بلا تأنٍّ يعاقبنا بأن يطلب منّا مَدَّ أيدينا، فيضربنا على أطراف أصابعنا، ثمّ ننفخ عليها من شدّة الألم. وإن أبعدنا أيدينا لحمايتها يرفع وتيرة عنفه، ويستحيلُ لون الأصابع أحمر.

الأنْكَى، في فصل الشتاء وبسبب البرد، أنَّ موقد التدفئة اليتيم لم يكن يكفي الفصل كله. ولمّا كنتُ طويل القامة، كان يُجلسني الأستاذ في آخر الغرفة، بعيدًا عن الدفء.

ذات مرّة، حصلتُ على علامة ممتازة، فكافأتني والدتي بمبلغ خمس ليرات. حملتُها وهُرعتُ إلى محل البقالة الصغير، حيث تجد بحسب المواسم راحة الحلقوم والكعك والآيس كريم.

بعد الدرس، كنّا نلعبُ بالكرة في شارع لا تمرّ فيه سوى سياراتٍ قليلة، وكنّا بحجرَين نُحدِّد موقع الشباك.

بعد حصولي على البكالوريا، درستُ مدة عامين في المعهد الصناعي. لم يكن التدريس جيدًا؛ أمّا المعلّمون فحدِّثْ ولا حرج، ديدَنُهم إهانتنا وكسْرُنا. حَلَمتُ بوظيفة في مجال النفط: التعدين والمنتجات المُشعَّة والتلحيم. هكذا صِرتُ تقنيًّا، وعُيّنتُ في شركة شلومبرجيه، وهي من المؤسّسات الفرنسيّة العملاقة في هذا المجال.

الفصل الخامس

جَنّنتُ هذا النظام. التخضيعُ أسلوبهم، وهذا ما لا أقبله. حاولوا معنا مرّة ومرّتين وثلاثة، ولم يفهموا إصرارنا. لا يريدون. انتهى الأمر: خلاص. لم يبقَ لنا سوى السَّحق. لماذا؟ لقد نشأنا والقسوة هي النظام. بعد عيشي في أوروبا، أضحيتُ أكثر تفهّمًا ومرونة.

أحترم الناسَ، ولكنّني لا أقبل منهم أن يُخطئوا معي. عندما كنتُ صغيرًا رأيتُ كيفَ اعْتُقل إخوتي من المنزل. لقد عارضوا النظام، فأرسل أمْنَه واعتقلهم عدّة سنوات. إخوتي أكثر مني حكمة، مستعدّون للتحاور مع سجّانيهم؛ أمّا أنا فلا. لكنّني فعلتُ مرة واحدة فقط، لمحاولة إخراج أخي عبد العزيز من السجن، وهو طبيب أسنان. فاعتقاله كان ضربة قاسية لجميع أفراد الأسرة. يَعرفُ سكّان الدير أنه رجل طيب وحكيم، وأنه حاول حلَّ النزاعات بين القرى والعشائر. فإنْ وقعَت مشكلة، تجده يحاول تهدئة الأوضاع.

أمّا النظام، فقد سعى لتأجيج المشاكل، كي يبسط نفوذه علينا، وعلى منطقتنا الغنيّة بنفطها ومحاصيلها على أكمل وجه.

في كلُّ شهر، كانت المخابرات تستدعيني أنا وإخوتي للضغط علينا. يتركوننا ننتظر في الخارج حتى يرانا المارة أمام مبنى الأمن السياسي أو العسكري، ويظنّوا أننا من الوشاة. عندما يُستدعَى أيّ شخص، تراه يأتي صاغرًا كالكلب.

ــ لماذا لا تتحدّثون بأدب إلى الناس؟ كنتُ أسأل المحقّقين: ألستَ إنسانًا مثلي؟ ألستَ سوريًّا مثلي؟ بلدنا واحدٌ، أليس كذلك؟

رئيسكم وافق على دستور كُتبَ فيه احترام الناس.

ـــ رئيسكم؟ هو رئيسك أيضًا.

ـــ لا، ليس رئيسي.

أمام باب مبنى التحقيق مَقعد خرساني. لففْتُ سيجارة حشيش قبل أن أجلس عليه. كنتُ أعلم أن الانتظار في الشمس سيكون طويلًا. رجال المخابرات ليسوا أسوياء، وبفضل الحشيش أحاول أن أصير مثلهم.

بسخرية وانفعالٍ فتحتُ حديثًا مع ريفيِّين، عرفتُهم من كوفيّاتهم، ينتظرون دورهم مثلي.

ـــ ماذا يريد منك هؤلاء الأوغاد؟

خافوا منّي، وابتعدوا وهم يفكرون: مش ناقصنا مشاكل.

سيكارة الكيف أراحتني؛ أمّا هم فميّتون من الخوف من سخريتي وتعليقاتي.

للمحافظة على المواشي قبل الإتْجار بها، كان لنا خانٌ بحظائر وإسطبلات. لقد أخبرتكِ عن تجارة الوالد، أليس كذلك؟ يزوره المشترون للتفاوض على البضائع. بُنِي الخان على قطعة أرض فسيحة مزروعة بالأشجار المثمرة. كان يَبعد زهاء ٤ كيلومترات عن الدير ونهر الفرات، ونِصفَ ساعة سيرًا على الأقدام. انظري، سأرسم لك الطريق: أمامك شارع الدير الرئيسي الذي يفضي إلى شارع الملعب، وإلى يمين دوَّار غسان عبود سِيرِي في خطٍّ مستقيم، على ضفّة نهر الفرات منحدرٌ خفيفٌ، وبعد ٢٠٠ متر تكُونين قد وصلت.

جنبًا إلى جنب، مجموعة من الخانات حارسُها بعثيٌّ حتى العظم.

البعث هو الحزب الوحيد المرخّص له، وهو حزب الأسد. ذات يومٍ، ركبتُ دراجتي النارية لملاقاة شقيق لي، مُوكلٌ إليه الاهتمامُ بالمواشي. أخبرني أنَّ الهدوء مخيِّمٌ على الدير:

ــ اذهَبْ وتحَرَّ لِنفهم ماذا يحدث.

عدتُ أدراجي، والشوارع خاليةٌ فعلًا. أخَواتي في البيت متسمّرات أمام التلفاز:

ــ ادْخُل، ادْخُل، لقد مات ابن العاهرة.

لقد مات حافظ الأسد. كنّا في حزيران ٢٠٠٠. لَكَمْ تَحمّلنا! بسرعة كبيرة انتشرت دوريّات الأمن في الشوارع، خافوا مما قد يحدث من ردود الفعل.

خرجتُ لشراء حلويّات وقطائف على دراجة نارية. عند وصولي إلى الخان، قدّمتُ منها للحارس.

ما المناسبة؟

ــ موت الطاغية.

قدَّمتُ لأخي، وأنا أُعْلِمه بوفاة الرئيس.

ــ عن جدّ؟

لم يُرِدْ أن يصدّقني، وسألني أن أُقسم برأس أمّي وأبي. سألتُه أن يحضر لي عصًا. منذ خمس سنوات ودِدْتُ أن أضرب الحارس البعثي المفروض علينا من قِبلهم. دعَمَت عائلتَنا الكثيرُ من الناس. في كل عيد أضحى كنّا نذبحُ خمس بقرات، ونقطّع اللحم، ونعطي كلَّ

أسرة حِصّتها بالتساوي، كي لا تقول نساء الدير المعروفات بسلاطة ألسنتهن: حصّة فلان أكبر.

يومها لم أَضرب الناطور.

الفصل السادس

شعرتُ بأنّني أطير. كنتُ سعيدًا، حُرًّا، منتشيًا.

ظننتُ أنّ النظام سيقعُ بالضربة القاضية.

تابعتُ عبْر الإنترنت ما سُمّي بعد حين «الربيع العربي» في تونس ومصر.

رأيت ـ قبل سنوات طويلة من قيام الثورة ـ كيف اعتُقل إخوتي الأكبر سنًّا. كنتُ أستمع مساءً إلى أحاديثهم، ثمّ كبِرتُ وأدركتُ معنى كلامهم عن الجرائم، وصراعِهم السريّ والممنوع، للوقوف في وجهها. كنّا نُصابُ بقشعريرة لذيذة ونحن ننادي بالحريّة، بِحريّةٍ تعيشُ فينا، حرّيةٍ لا أثر لها في واقع مفروض علينا لا يتزحزح.

الحريّة تُرَفرِف، وتطير، وتحملني على جناحيها.

لم نصدّق. أُقسم لكِ أنّنا سنطير. الحريّةُ صاعقٌ هزّ أجسادنا. كم كنتُ سعيدًا يوم مشيتُ خمسمائة متر في مظاهرتي الأولى، خمسمائة متر فقط!

فور وصول الشَّبِّيحة وميليشيات النظام والأمن، هجموا علينا وفرّقونا.

بـدأ النـاس يفكـرون، ويطالبـون بحقوقهـم، لعلّهـم لـن يصمتـوا بعـد اليـوم. لقـد سـقط الجـدار الـذي ظـل جاثمًـا عـلى صدورنـا طـوال أربعـين عامًـا، أربعـين عامًـا مـن حكـم الحديـد والنـار والبـارود. أراد النظـام أن يُبقـي النـاس نائمـين، حتـى يتمكـن مـن اقـتراف شـنائعه مـن نهـب وتجويـع.

أبـواب دارنـا مُشرعـةٌ دومًـا. هكـذا نحـن، كـما تعرفـين. وضَعْنـا الفُـرش والوسـائد أرضًـا، فتحوّلـت الغرفـة إلى ديوانيّـة. اجتمعنـا لمناقشـة مظاهرتنـا الأولى، إبراهيـم ومحمـود وزيـاد وقُـصَيّ، جميعهـم يعيشُـون اليـوم خـارج البـلاد. هـو يـوم اسـتثنائيّ. ففـي الأيـام العاديـة، كنـا نعود مـن العمـل، ونسـتحمّ، ثـم نواعـدُ الأصدقـاء، ونتجـوّل في السـوق، ونلعـب بالـورق، ونمـشي عـلى كورنيـش نهـر الفـرات، ثـمّ نعـود إلى البيـوت لاحتسـاء القهـوة ومشـاهدة الأفـلام. وفي اليـوم التـالي، يتوجّـه كلّ واحـد منّـا إلى عملـه.

في منطقتنـا، الجامعيـون كثـيرون، مثقّفـون وأَكْفَـاء، بَيْـد أنّهـم عاطلـون مـن العمـل. لـذا، وجدناهـم جاهزيـن للتعبـير عـن سـخطهم.

في شـباط ٢٠١١، لعـب فريـق ديـر الـزور لكـرة القـدم في ملعبـه الغاصّ بأكـثر مـن ١٥٠٠٠ مشـجّع، ضـدّ فريـق اللاذقيّـة. يومهـا قـرّر الحَكَـم التلاعـب بالنتيجـة. فريقنـا «الفُتـوّة» خـسر أمـام فريـق «تشريـن» المدعـوم مـن أحـد أفـراد عائلـة الأسـد. اشـتُرِيَت ذِمـم الحُـكّام. فاستشـاط الحضـور غضبًـا ضـدّ الدولـة، واندلعـت أعـمال شـغب أدَّت إلى إحـراق سـيّارات في حـيِّ العـمال، ووقعـت اشـتباكات. فرمـى الأمـن قنابـل الغـاز المسَـيّلة للدمـوع. وجميـع سـكّان الديـر يتذكـرون هـذا اليـوم. وعـلى إثـره عُلّقـت جميـع المباريـات.

بعدهـا مـرّت الأيّـام. وبِبُـطءٍ جمَعْنـا النـاس، ونظّمنـا مظاهرتنـا الأولى.

فتَعرّفنا إلى فئة شابة موهوبة، تُفكّر بهمّة ودقّة، وتحلم بالتغيير. تيقّنَّا أننا قادرون على أخذ الزمام، وقادرون على التحرّر. هذه هي الثورة، أن نعمل رويدًا رويدًا لرفع الوعي، ودفع الناس إلى استخدام عقولهم، وتطوير أفكارهم.

لتيسير أمورنا، قررنا الخروج من مسجد عثمان. فالكنائس مراقَبة من كثب، والاجتماعات ـ ما عدا تلك المعقودة في الجوامع ـ ممنوعة منعًا باتًّا. من هناك قضت خطّتُنا أن نتوجّه نحو ساحة غسان عبود ونحن نهتف: «واحِدْ واحد واحد، الشعب السوري واحِد».

صوَّرتُ بهاتفي الخلوي خروجنا الأوّل، ثمّ اقتنيت كاميرا صغيرة من ماركت توشيبا، لِنُظهر لهم ما نحن قادرون عليه. صارت كُنيتي بين أصدقائي «الوسواس الخنَّاس»، وكانوا يسترسلون قائلين: «الذي يوسوس في صدور الناس»، وهم يمازحونني. «واحِدْ واحد واحد، الشعب السوري واحد!». ولم يتأخّر جواب الشبّيحة: «بالروح، بالدم، نفديك يا بشّار». فهجموا علينا وفرَّقونا.

في الحقيقة، لم نعتقد أنهم سيأتون لقمعنا على الفور. نحن عنيدون في هذه المنطقة الحسّاسة ذات الوعي السياسيّ. ظنَنَّا أن ساعة «الربيع» قد دقّت، وأردنا مساجلة الدولة علّها تصغي لمطالبنا. لكنّنا مُنِينا بالفشل. عدتُ إلى المنزل منزعجًا وغاضبًا ومكسور الخاطر، فغفوت خائبًا.

بسرعة تعلَّمْنا من أخطائنا. لا بدّ لنا من خداع النظام، وإخفاء نوايانا، حتّى تحين الساعة. نحن أبناء هذا البلد، ونعرف كيف يتصرف النظام. وعليه، أخَذْنا نُعدّ العُدّة للتظاهرة المقبلة. بعد أسبوعٍ، نظّمنا اعتصامًا، وزوّدنا المخبرين بمعلومات كاذبة عن

مكان التجمع، فاستعَدُّوا، بَيْد أنّهم لم يجدوا سوى عدد قليل من الناس. بعد حين، أدركوا أننا قد تجمّعنا كلّنا في مكان آخر.

التغيير كان مطلبنا الوحيد. فالحريات محتجَزة، والتعبير عن الرأي ممنوع، ولو تَجمّع ثلاثة أو أربعة أشخاص معًا، لَقُبض عليهم، وهذا ما حدث لإخوتي. ما طالبْنا به من حقوق بديهيّ، مثل: حريّة التعبير، ومجموعة من الإصلاحات، ووضع حدّ للفساد، ورفع حالة الطوارئ.

عندما وصل بشار إلى سدّة الحكم، أمِلْنا في تغييرٍ ما. قلنا لأنفسنا: «هذا شخص متعلّم، درس في بريطانيا العظمى، البلدِ الديمقراطي».

بعدما صار ابنُ الطاغية على رأس السلطة، شهِدْنا نوعًا من الانفتاح، حيث سمح بانتشار الإنترنت والهواتف المحمولة. أيضًا ظنَنَّا أنّه سيسمح بهامش ما للإعلام، بَيْد أنّ هذه الظواهر جاءت لخدمة فئة واحدة من الناس.

بدأ الناسُ يتابعون ما يحدث في الدول الجارة، حيث لم يَسْعَ المتظاهرون الصادقون والمثقّفون لِلمجد والمناصب.

ما رآه السوريّون نبّههُم إلى ضرورة المُضيِّ قُدمًا.

هنا افتتح النظام حملات الاعتقال والقتل. ومع سقوط أوّل القتلى فَهِمتُ ما سوف يحدث. فمَن يَقتلُ شعبه خائنٌ بلا ريب.

اعتقال أطفال درعا هو ما أشعل الشرارة. سرعان ما سُجن الثوار الحقيقيون أصحابُ الرؤية الواضحة.

ذات ليلة، سِرنا ونحن نهتف مع جيران لنا في الحيّ. كنتُ أسيرُ وأُصوّر، فهُرع الأمنُ لتفريقنا، بعضهم بالزي العسكري، وبعضهم

الآخر بالملابس المدنية. حاصرونا، وقبضوا على أخي عبد العزيز، وابنَيْ أخي: إياد وفهد.

ـ إلى أين تأخذونهم؟ سأل أخي الكبير أبو الجود.

ـــ ابتعِد، وإلا فسنأخذكم معهم. ليلتذاك اعتقلوا أيضًا إبراهيم، وأبا النور، وأبا عنود، وبسَّامًا.

ادّعى النظام أن مسيرتنا تستحقّ العقاب. وأجهزةُ الأمن والمخابرات مقتنعة بأنها دومًا على حق، وبأن الشعب هو المخطئ. فقالوا: إنّ موقفنا خاطئ «غلَط»، وموقفهم هو «الصحيح»، وكلُّ ما ندّعيه هراء.

يا لها من مهزلة. دستورنا ضامنٌ للحرّية، من حيث المبدأ. لقد طبّقْنا ما قرأناه في دستورٍ، هو مجرد شعارٍ يخدعون به الشعب.

أخذ إعلامُهم يتحدث عن مؤامرة حيكت في الخارج. نكتة. الشعب يطالب بحقوقه في بلد لا حقوق فيه للشعب!

اشتدت الاحتجاجات في جميع أنحاء البلاد. كلّ جمعة ينزل آلاف السوريين إلى الشوارع. وفي الدير، تَجمّع عشرات آلاف المتظاهرين خلال فصل الصيف. فأقام الأمنُ حواجز نمَّت عن خوفه؛ إذ أضحى المتظاهرُ عدوًّا لهم. حينها لم يكن الجيش قد تَدخّل بعْدُ. في آب، وصلت دباباتهم إلى الدير، عشراتٌ من الدبابات.

هكذا تسارعتِ الأمور: تأسَّس الجيش السوري الحر في تموز ٢٠١١، فابتكرنا فكرة التظاهر تحت حمايته، إذ تمركز الجيش السوري الحر على الهضاب، وفي عدة أماكن. عندما كنا نتظاهر ويصل جيش النظام، كان الجيش الحر يطلق النار على الإطارات لصرف انتباههم، وليسمح للمتظاهرين بالفرار.

كانت الثورة تتقدم؛ أمّا المعارَضة السياسية فتتباطأ، ولا تُواكبها. المعارضون السياسيون لم يُعطوا الشبابَ فرصة. أغلبُ الشباب الذين قادوا هذه الثورة كانوا من الجامعيين المثقفين، القادرين على التفكير الناضج، وعلى قيادة البلاد نحو الديمقراطية. كانوا سيُطوّرون المؤسسات، ويحاربون الفساد، ويعملون من أجل سوريا، ويخفّفون من سطوة الأجهزة.

لكن، لا.

أَعْرف ما حدث. لقد عملنا انطلاقًا من غيرتنا على منطقتنا وبلدنا وشعبنا. بيد أنّهم لم يتركوا لنا شيئًا وقتلونا.

مَن اعتقلوه، اعتقلوه.

ومَن قتلوه، قتلوه.

ومَن مات تحت الركام، فقد مات.

الفصل السابع

تَخونني الذاكرة. هل كنّا في نيسان أو أيّار ٢٠١١؟

بعد أن حطّمنا تمثال باسل الأسد (شقيق مَن تعرفون) وهو يمتطي جواده... أسقطوه بخراطيم سيّارات الإطفاء، ورجموه بالحجارة، ثم أحرقوه وهم يهتفون: «الشعب، يريد، إسقاط النظام... الشعب، يريد، إسقاط النظام... الشعب، يريد، إسقاط النظام». حدث ذلك أمام البلدية...

انتظـري، دعينـي أتذكّـر. نعـم، كان ذلـك في نيسـان يـوم ٢٢، يـوم الجمعـة. أحرقنـا تمثـال باسـل يـوم الجمعـة. بعـد يومـين اعتُقلـت يـوم ٢٤. صحيـح، ٢٤ نيسـان٢٠١١.

الواقعـة موثّقـة بأفـلام فيديـو. لـذا، تَمكّـن أمـنُ الدولـة مـن الوصـول إلينـا. ذكـر أحدهـم اسـمي، معترفًـا بأنّنـا كنّـا نُرسـل مـع أصدقـاء ناشـطين، مـن مـكان سرّي، المقاطـعَ المصـوّرة، لقنـوات التلفـزة العربية. أخفينـا مُعَدَّاتنـا في الطابـق السـفلي في مكتـب أحـد معارفنـا، المرتبـط سرًّا بشـبكة الإنترنـت. وصـل خمسـة عـشر مـن رجـال الأمـن إلى المـكان. فهـد (ابـن أخـي) كان هنـاك، فاعتقلـوه. وكان اعتقالَـه الأول.

كنـتُ في بيتـي مدّعيًـا أنّنـي مشـغول، وأنـا ممـدَّد عـلى سريـري، حـين اتصـل بي رئيـسي في العمـل طالبًـا منّـي الحضـور. اتّصـالٌ غريـب، مـن مديـر شركـة دوليـة لا تكـذب مـن حيـث المبـدأ. توجّهـتُ إلى مـكان عمـلي، ووقفـتُ أمـام خزانـة أضـع فيهـا ملابـس العمـل، وإذ بهـم يقيّـدون يـدي مـن الخلـف. سـخرت منهـم:

ــ مرحبًـا، إذا كنتـم تسـألون عنّـي، فلِـمَ لم تأتـوا مبـاشرة إلى منـزلي، أو تطلبـوا منـي الحضـور؟

ــ ولا كلمة.

بدأ الاستجواب وأنا معهم في سيارتهم القديمة.

ــ أين كنت يوم الجمعة؟

ــ عند أخي.

ــ أيّ واحد منهم؟

ــ أبو الجود.

ــ ماذا كنت تفعل؟

ــ دعاني إلى تناول الغداء معه.

ضربوني.

عندما وصلتُ إلى فرع الأمن، نزعوا حزامي وأفرَغوا جيوبي، وأنزلوني إلى القبو. فتحوا زنزانة وأدخلوني. زكريا! كان زكريا هناك. صديق يعيش في الحي، ولم نسمع عنه منذ أيام. اختفى. ولا نعرف ماذا حلّ به حتى اليوم.

ـــ مازن! هتف زكريا.

ـــ «أنتما معارف؟» سأل الحارس.

أغلق الباب، ووضعني في زنزانة مجاورة، حيث وجدتُ أبو عبد الله. أردتُ أن أضحك. بُلَداء.

لم أقل شيئًا كي لا يتكرّر ما حدث قبل قليل. كان أبو عبد الله، أو «غابي» كما يُلقَّب، بائعَ كُتب في الدير. اسمه الحقيقي جاك جورج عبد الله حشيشو، مسيحيّ. اعتُقل أوَّل مرة، ولن تكون الأخيرة، فسوف يُسجن مرّتين بعد ذلك.

ـــ «جهِّز أموالك، أخبرني، أتريدُ تبْغًا؟ طعامًا؟ سأعود بعد ساعة» قال الحارس.

حين اعتُقلنا طُلب منّا إفراغ جيوبنا، والاحتفاظ بأموالنا لشراء طعامنا. حين غادر الحارس تهامستُ مع غابي. لقد اعتُقل قبلي بساعة. شاهَدوه في فيديو المظاهرة، كان واقفًا يشاهد ما يحدث ولم يشارك في تدمير التمثال.

عاد الحارس ومعه خبزٌ وجبن وسجائر من ماركة «الحمراء». بمجرّد أن فتح الباب، انعكس الضوء على شرائط الفلورسنت التي تُميّز ملابس عملي.

بعد يومين، اقتادوني إلى الاستجواب.

ـــ أين كنت يوم الجمعة؟

ـــ قلتُ لك إنّني تناولتُ الغداء عند أخي.

كان يمسكُ ما يشبه الهراوة الكهربائية ويضربني بها.

ـــ أنتَ تكذب.

ـــ لا.

نـزع أحدهـم عصبـة كانـت تغطّـي عينَـيَّ، وقـرّب منّـي جهـازه الخلـوي كي أشـاهد الفيلـم. نعـم، هـذا أنـا في الصـور. اليـوم أضحـك، لكنّنـي سـاعتذاك كنـتُ في موقـفٍ محـرج.

ـــ خرجتُ، كما خرج كثيرون غيري، نطالبُ بكرامتنا.

ـــ مـاذا ينقصـك؟ تعمـل في النفـط، وتتقـاضى راتبًـا، عنـدك مـا يكفيـك مـن المـال.

ـــ المـال لا يكفـي. خرجنـا نطالـبُ بالحريـة وبحقوقنـا، وبحريـة الصحافـة والتظاهـر. خرجنـا نطالـب بإنهـاء حالـة الطـوارئ، وهـا أنـا أُعْتَقـل. أيـن الحريـة؟

ضربوني ضربًا محتمَلًا في البداية.

بعـد عـشرة أيـام، أحالـوني إلى المحاكمـة. ضبّـاط مـن الشرطة يحرسـون بـاب القـاضي، فكّـوا أصفـاد كلّ المسـتدعَيْنَ للمثـول أمامـه، ثـم قرعـوا الباب.

ـــ ادخُل يا مازن.

القـاضي والكاتـب، وملـفّ خـاصٌّ بي عـلى الطاولـة، وشـقيقي الأكـبر، هـذا مـا لاحظتُـه.

«اجلس يا مازن» قال القاضي. ما قمتَ به لا يخصّك وحدك. إخوانكم محترمون في المدينة، أرجو منك التعهّد بعدم الخروج للتظاهر مرة أخرى. وقِّعْ هنا (أشار إلى ورقة أمامه).

ـــ حسنًا.

«انتظِرني في الخارج» قال أخي.

بقي ليشكر القاضي، ثم عدنا إلى المنزل معًا، حيث استُقبلت بالزغاريد. لقد مكثتُ في قبوهم عشرة أيّام على الأقلّ.

بعد حين التقيتُ بِغابي عند أبو الجود، في اجتماع مع لجان التنسيق. أخبَرني أنّه تَعرّض لضرب مبرّح يمنعه من الجلوس.

كنتُ يانعًا يوم دخلتُ أوَّل مرة مكتبتَه الواقعة وسط الدير، في واحد من أكثر الشوارع ازدحامًا، جوار محل حكوميّ لبيع الكهربائيّات. كنتُ أقصدُ مكتبته مع الوالدة أيّام تَسوُّقها، أو مع أحد أشقّائي. هو يعرف غابي؛ إذ كانا معارِضَين يساريَّين «عتيقَين» للنظام الأسديّ، الذي أحَبَّ الجهلَ للناس، أمّا أبو عبد الله، فأراد نقيض ذلك.

شراءُ الكتب أو استعارتها: الصيغتان ممكنتان في مكتبته، حيث القواميس، وروايات أحلام مستغانمي، والكتب الشيوعية عن لينين وماركس. أمّا الكتب الممنوعة فغير معروضة على الرفوف أو في الواجهة تمامًا، كمنشورات المعارَضة التي تُوَزّع سرًّا.

أتذكّر أنّني اشتريت من مكتبته كتاب «الصراع على السلطة في سوريا»، عن عهد الأسد وحزب البعث، للمؤلِّف نيقولاوس فان دام. هو طبعًا من كتب «تحت الطاولة». كان عمري ١٧ عامًا لمّا قرأتُه، وقد كانت قراءتي الفعليّة الأولى.

مكتبات الدير الأخرى أدارها مقرَّبون من النظام، يبيعون كتبًا مَرضيًّا عنها عن مآثر حزب البعث. غابي شخصيّة عامّة. وقد كرّمناه كلنا يوم وفاته، بغضّ النظر عن دينه الذي لم يكن يهمّنا.

أيّد بعضُ السوريين المسيحيين النظامَ، وعارضه بعض آخر من مثقفين مثل أبو عبد الله... لم يَرُقْ موقفُه للأمن بالطبع، فحاولوا إسكاته ومحاصرته بالعقبات. كانوا يَقطعون الكهرباء عن مكتبته باستمرار زاعمين أنّه لم يدفع الفواتير، فيُشعل الشموع لتضيء بين الرفوف. عندما أغلقوا مكتبته، جلس على الرصيف المقابل، مدّ سلكًا على الحائط، وعلّق الكتب والصحف بملاقط غسيل.

في منزلنا مكتبتان، يعود فضل وجودهما وتنظيمهما لِأبو الجود. فيهما روايات وكتب سياسيّة. كان عمري ١١ عامًا عندما قُبض على شقيقي الأكبر أوَّلَ مرة. مكثَ في السجن مدّة خمس سنوات. إحدى أخواتي التي تكبُرني سنًّا، هي طالبة جامعية، كانت تخشى من زيارة المخابرات لنا لتفتيش البيت. كانت تتأمّل رفوف المكتبة بقلق، مستشعرةً ما قد يحدث. فهمَتْ قبلي ما يدور في خلدهم.

في حديقة البيت أشجار مثمرة، وحمضيات تبسط ظلّها. وفي زاوية أخرى عريشة تُعربش على حائط يحتضن سرّنا، حفرنا فيه كوّة نخبّئ فيها الكتب المحرَّمة. أخرجَتْ شقيقتي كتبًا من المكتبة وأعدّت قائمة بها، وصارت تقول: «ائتُوا بهذا وبهذا...»، وكنتُ مع شقيقي صدام ـ وهو أكبر منّي بقليل ـ نضعها في صندوق، ثم نحيط الصندوق بِوَرق من بلاستيك، ونلفّه ببطّانية. نقرأ

الكتـب المحظـورة ثـم نخفيهـا داخـل حائـط، نغطّيـه بخشـبة وبـتراب الحديقـة.

«المخابـرات يعرفـون هـذه الحيَـل، مـن الأفضـل إيجـاد مخبَـأٍ آخـر» هـذا مـا نصحـت بـه والـدتي فيـما بعـد. فحمَلْنـا الممنوعـات إلى الخان، حيـث حظائـر الحيوانـات.

خـلال اعتقالـه الثالـث مـدّة عـام، تـوفي غـابي عـن ٦٨ عامًـا. كنـتُ قـد وصلـتُ إلى أوروبـا.

الفصـــل الثامـــن

تعَمْلـق بُغـضي، واستشَـطْتُ غضبًـا، حـين اعتقلـوا إخـوتي وأبنـاء إخـوتي، ورأيـت الدمـوع في عيـون أخـواتي. صـار دمـي يغـلي. ثلاثـة عـشر فـردًا ـ وأنـا مـن ضمنهـم ـ رهـن الاعتقـال.

حافظ الأسد اعتَقل إخوتي الكبار لأسباب سياسية:

• زهـدي: اعتُقـل عـدّة مـرات، مـن بضعـة أيـام إلى بضعـة أسـابيع، في السـبعينيات.

• عبد القادر: اعتُقل عدة مرات، بضعة أيام، في السبعينيات.

• أبـو الجـود: سُـجن في سـجن صِيدنايـا العسـكري مـن عـام ١٩٨٧ إلى عـام ١٩٩٢ (خمـس سـنوات)، ثـمّ سُـجن بضعـة أيـام في آذار ٢٠١١ مـع انـدلاع الثـورة.

• إخواني الذين يقاربونني في العمر اعتُقلوا بعد بداية الثورة، على يد أجهزة بشار الأسد.

• عبد العزيز: اعتُقل عدة مرات بضعة أيّام، آخرها في ١٣ شباط ٢٠١٣، وهو مغيّب منذ ذلك الحين.

• عبد الرزاق: اعتُقل عدة أيام.

• عمَّار: اعتُقل مرة واحدة، وعُذّب تعذيبًا شديدًا.

• صدَّام: اعتُقل مرتين، إحداهما بضعة أيام، والثانية مدة شهر، وعُذّب كعمَّار.

• أبو فهد: زوج أختي، اعتُقل في ١٣ شباط ٢٠١٣، واختفى منذ ذلك الحين.

أبناء إخوتي الذين اعتُقلوا في أثناء الثورة:

• فهد: اعتُقل أربع مرات، ومن بينها شهر مع صدَّام، وعُذّب تعذيبًا شديدًا. ثم اعتُقل معي آخر مرة في آذار ٢٠١٢، وهو مفقود منذ ذلك الحين.

• محمد: اعتُقل معي في آذار ٢٠١٢، واختفى منذ ذلك الحين.

• إياد: اعتُقل عدة أيام.

• داود: ابن عمي، اعتُقل مرة واحدة، ومات تحت التعذيب، ولم تُسلّم جثّته إلى العائلة

الفصل التاسع

مرّةً جديدةً صِرنا (فهد ابن أخي، وأنا) مطلوبَين. غادرنا المنزل وصِرنا مشرّدَين، نتنقّلُ من مكانٍ إلى آخر. توقّفتُ عن العمل، وكان في رصيدي شهران مدفوعا الأجر، فقرّرتُ طلبَ إجازة. اعتُقِل فهدٌ في الدير ثلاث مرات منذ بداية الثورة. كان في الثانية والعشرين من العمر، وهو طالب هندسة مدنية.

كانت والدتي تعتني به كثيرًا عندما كان صغيرًا. أمُّ فهد (والدته) هي أختي، كانت معلّمة، ووالده مهندسٌ مدني. كان منزلهم على بعد خمس دقائق من منزلنا. لذا، أحَبَّ «الهرب» إلى عندنا، إلى البيت الكبير، حيث يسكن اثنان من أبناء عمومته حمّود وإبراهيم، وهما ابْنا شقيقتي الأرملة. كان يرتاح في بيت جدّه وجدّته، وينام في غرفتهما.

أفهَمُه تمامًا، أفهم حبّ الصغار لبيوت الأجداد. فيه لعِبَ مع أبناء عمومته، وذهبَ مع أعمامه إلى الخان حيث الأغنام والحَمام. يترُك المدرسة، ويتوجّه مباشرة إلى عندنا. تقول له والدته: «عُد إلى البيت»، فيجيبها: «هنا بيتي». تضحك أمّه فاقدة الأمل من إقناعه، وتقول لنا: «الحلّ الأمثل أن تتبنّوه، ليصبح ابنكم».

بيني وبينه فارق اثني عشر عامًا. تبنّيتُه أيضًا، ورأيتُه يكبر، فاهتممت بتعليمه الثوري. لم يحمل فهد السلاح بتاتًا، ولا إخوتي. العنفُ لم يكن في منهاجهم، بل دافعوا عن سلميّة الثورة ومع ذلك، قَبضوا عليهم.

ذات مرة، اعتُقل فهد مدة شهرين. قُبِضَ عليه في الدير، ثم أُرسل

إلى دمشق، حيث عُذّب وكُسرت ساقاه. عندما أُفرج عنه كان في حالة يُرثى لها. ضيّع حسّه بالمكان مدة أسبوعَين. شُرّد عقله، وصار يهذي، ويهين سجّانيه.

«لا تخرج بعد الآن، لا تفعل أيَّ شيء، ابقَ في المنزل، لا يمكننا التعامل مع هؤلاء الناس»، هكذا رجَتْه والدته.
لكنّ فهدًا عنيد. بعد شهر خرج للتظاهر، واعتُقل مرَّةً أخرى، ثم أُطلق سراحه.

كنا إذًا مطلوبَين مرّة ثانية. تشاوَرْنا، وقرّرنا مغادرة الدير إلى دمشق. المدينة أوسع، سنغيبُ في الزحام، ونضيع بين الناس.

قرّرنا الاستقرار في العاصمة نهاية عام ٢٠١١. فهدٌ يعرف عائلة تستطيع استقباله. أمّا أنا، فلا أستطيع التطفّل. فمِن غير الحكمة أن نبقى معًا، فإن قُبض على أحدنا، فَلْيبق الآخرُ حُرًّا.
«كي لا تلاحظك الأجهزة عِش في حيّهم!» هذا ما فكّرتُ فيه. استأجرتُ غرفةً فيها مطبخ صغير في كفر سوسة (حيّ جميع أفْرُع المخابرات). نعم، نِمتُ في شارعهم.

ثم إنّني أعرف شخصًا قريبًا منهم، حاول حمايتنا، وشاركنا في معلومات عن أصدقاء مطلوبِين. سهرنا مرّة معه ومع بعض الزملاء. أوصلوني إلى بيتي، ومكثنا أمام الباب فترة كي يظنّ مخبر الحي أنّني واحد منهم! إنها حِيَلُ المخابرات، مَن لا يعرفها؟

قوّاتُ النظام تهاجمُ وتحاصرُ أحياء الغوطة ـ مثل داريَّا ـ في ريف دمشق. كنتُ أعرف داريَّا، كثيرًا ما زرتُها قبل الثورة، حين كان عملي يأخذني إلى دمشق. هي منطقة سكّانها ريفيّون من الطبقة

العاملة. التقيتُ في عمان بزميل لي في العمل عند شلومبرجيه، أعارني شقّته هناك. كنتُ أصِلُ إليها محمّلًا بالجبن واللحم والزبدة من مزرعتنا، أقدّمها للجيران. هكذا توطّدت علاقتي بهم. ورويدًا رويدًا فهمتُ مَن هم الشَّبّيحة داعمو النظام. معرفة بواطن الناس في هذا البلد أمر مفيد.

في نهاية عام ٢٠١١، احتاج سكّان داريَّا إلى حليب لأطفالهم، وبطانيات وملابس دافئة وأدوية. كثيرًا ما تَظاهروا، وكثيرًا ما أُطلق النار عليهم. بعض الجرحى خافوا أن يقصدوا المستشفيات، كي لا يُعتبروا من المتظاهرين الإرهابيين، فلم يُعالَجوا. بعضهم اعتُقل أو تعرَّض للتعذيب. نشطاء داريَّا المطلوبون صاروا فارّين من وجه «عدالتهم». من جهتي كنتُ مطلوبًا، أحمل مجموعة من بطاقات الهويّة المزوّرة. لا مُزاح مع المخابرات، ولا مع نظام ابن كلب.

∴ تقع بلدة داريَّا على بعد ٨ كيلومترات غرب العاصمة بحسب ما جاء في «سجلات الثورة السورية»، وهي إداريًّا تابعة لمحافظة ريف دمشق، تحدّها شمالًا المزّة ومطارها العسكري وبلدة المعضميّة، وغربًا جديدة عرطوز، وجنوبًا صحنايا، وشرقًا قضاء كفر سوسة وحيّ القدم. وتُعتبر داريا من أهم بلدات الغوطة الغربية، ويعمل قسم كبير من سكانها بالزراعة، وهي معروفة بكرومها وعنبها «عنب داريَّا» الذي ارتبط اسمه بالثورة. جذور التسمية سُريانية، وتعني «البيوت الكثيرة».

قبل قيام الثورة بسنوات، عَرَفَت داريَّا تحرّكات مدنية ومظاهرات، ضد الغزو الإسرائيلي لمخيم جنين [الفلسطيني] عام ٢٠٠٢، وضدّ

الغـزو الأمـيركي للعـراق عـام ٢٠٠٠. أيضًـا بـادرت مجموعـة مـن الشـباب إلى تأسـيس تجمّعـات هدفـت إلى تطويـر المجتمـع المـدني، فأخـذوا ينظّفـون الأمكنـة العامـة، ويشـجعون عـلى مقاطعـة السـجائر الأميركيـة، ويدينـون الفسـاد. سـارع النظـام إلى اعتقال أربعـة وعشرين شـابًّا. حُوكـم منهـم أحـد عـشر أمـام محاكـم عسـكرية سرية، بالسـجن مـدة ثـلاث أو أربـع سـنوات.

أيضًـا اسـتَدعت أجهـزة الأمـن خمـس عـشرة فتـاة، لكـنّ المجموعـة التـي تحمـل اسـم «داريًّـا للسـلام» تابعـت عملهـا ثمـاني سـنوات قبـل انـدلاع ثـورة ٢٠١١.

في ٢٥ آذار ٢٠١١، أُطلـق عـلى تظاهـرة ذلـك اليـوم اسـم «جمعـة الفخـر». خـرج أهـالي داريـا إلى الشـوارع أوَّل مـرة، دعـمًا لأطفـال درعـا. بعدهـا تتالـت المظاهـرات الحاشـدة أسـبوعًا تلـو الآخـر في النهـار، وفي المسـاء عـلى ضـوء الشـموع. منـذ الأسـابيع الأولى طالـب المتظاهـرون بالحريـة، وسرعـان مـا هتفـوا بإسـقاط النظـام.

في يـوم ٢٢ نيسـان ٢٠١١، أُطلـق عـلى التظاهـرة اسـم «الجمعـة العظيمـة». حـاول المشـاركون هـدم تمثـال حافـظ الأسـد. فاسـتخدمت قـوات الأمـن الغـاز المسـيل للدمـوع، وأطلقـت النـار بالذخائـر الحيـة، فقُتـل عـمار محمـود، ووليـد خـولاني، ومعتـز باللـه الشـعار، وهـم أوّل مـن سـقطوا في داريّـا. في اليـوم التـالي، سـار الآلاف للمشـاركة في جنازتهـم.

في الأول مـن أيـار ٢٠١١، حـاصر الجيـش داريًّـا، وأقـام حواجـزَ عـلى مداخلهـا الرئيسـية، ثـم شـنّ حملـة اعتقـالات ضـد النشـطاء. واصـل

السـكان التظاهـر بأعـداد كبـيرة كلّ يـوم جمعـة، صباحًـا ومسـاء. شـارك الطـلاب في الحركـة، وعـلى الرغـم مـن فظاعـة القمـع، شـاركتِ النسـاء أيضًـا. اعتُقـل العديـد مـن الناشـطين، أشـهرُهم غيـاث مطـر، الـذي اشـتهر بالـورود وزجاجـات الميـاه التـي كان يقدمهـا لرجـال الأمـن خـلال التظاهـرات. اعتُقـل في ٦ أيلـول ٢٠١١، وتُـوفي تحـت التعذيـب في ١٠ أيلـول ٢٠١١.

خـلال النصـف الثـاني مـن عـام ٢٠١١، انتـشرت دوريّـات الأمـن في الشـوارع للسـيطرة عـلى التجمعـات. ألقَـوا قنابـل غـاز مسـيّل للدموع، وأطلقـوا الرصـاص الحـي، لكنّهـم لم يتمكّنـوا مـن وقـف المظاهـرات التـي علـتْ وتيرتهـا في كانـون الأوّل خـلال «إضراب الكرامـة».

بعـد حملـة عسـكرية وحصـار وحـشيّ، وبعد مذبحـة أودت بحيـاة أكثر من سـبعمائة مـدني، أُطلق عـلى داريًّا لقب «سـتالينغراد السـورية» ❖

في دمشـق، تعرّفـتُ إلى: لينـا، وعمـر، ووافي، وأيهـم، وإبراهيـم. كنّـا نـوزّع المسـاعدات الإنسـانية عـلى الأحيـاء المسـتهدفة، مثـل: الحليـب، والملابـس، ومسـكّنات الألم، والمصـل، ومضـادات الالتهـاب، والكـمادات، وحقـن الكـزاز. أمـا المصابـون فكانـوا يُعالَجـون في أماكـن سرّيـة. كنـتُ أعـرف أطبـاء في دمشـق يزوِّدوننـا بالأدويـة. تنقلهـم لينـا إلى دومـا والغوطـة. أمّـا محمـد وفهـد، فقـد اهتـمّا بداريًّـا.

أحتفـظُ بذكريـات جميلـة عـن تلـك الفـترة. لقـد كنـتُ مطلوبًـا، نعـم. بَيْـد أنّ الحيـاة السريـة الخطـيرة مكثفـة. أعـود إلى شـقّتي كي أرتمـي مرهقًـا عـلى السريـر. أسـتيقظ صباحًـا لتنـاول الفتّـة الشـامية في منطقـة الميـدان، ثـم أجُـول في الأحيـاء: المـزّة، وبـاب تومـا، وجرمانـا، وركـن الديـن. أعيـشُ الخطـر، نعـم. حياتي خطـرٌ وقـوّة. إنِ اعتُقلت فسـأُقتلُ. لا

حواجز في المدينة حتى الآن. التقينا في مقهى في أحد أزقَّة ساروجة. «أصدقائي» في المخابرات أخبروني بأنني مطلوب.

❖ «في عام ٢٠١٦، وافق مازن على الإدلاء بشهادته في وثائقيٍّ بتوقيع سارة أفشار، عنوانه «مغيّبو سوريا: قضية ضد الأسد». يروي هذا الفيلم الذي عرضَته القناة الرابعة البريطانية اختفاء آلاف السوريين وتعذيبهم، ويتضمّن وصفًا لهم بلسان أحبّائهم. وجدَتِ المخرجةُ وثيقة أمنيّة مكتوبة بخط اليد، مؤلّفة من عدّة سطور، ذُكِر فيها اسم مازن: «رقم ٣١٤، مرجع: ٢٠٦٠٢، ١٩ كانون الثاني ٢٠١٢.

«مذكرة بحثٍ وتَحَرٍّ ـ الأمن السياسي».

مازن الحمادة بسيس ورفاقه.

إذا وجدتموهم، فالرجاء إلقاء القبض عليهم وجلبهم».

مذكّرة الجلب هذه هي ورقة من بين ٨٠٠٠٠ ألف صفحة أرشفَتْها منظمة خاصة، هي «لجنة العدالة والمساءلة الدولية (سي.جا)». مَحاضر استجواب، مذكّرات جلب، مَحاضر اجتماعات أعلى أجهزة النظام، رسائل رسمية، وتعليمات مكتوبة، بعضها مُعَنون «سرِّي للغاية». هذه الوثائق وصلَتْ إلى يد الناشطين والحقوقيين السوريين حين استولى الثوّار المسلّحون على مباني النظام، وقد أُرسلت الوثائق إلى أوروبا لتحليلها في مختبرات «لجنة العدالة والمساءلة». هذه الوثائق كنز أرشيفيّ من الأدلة، التي حُفظت من الضياع والشتات، وسوف يَستند إليها المدّعون في القضايا المرفوعة ضدّ من أجرم بحقّ سوريا». ❖

الفصــل العاشــر

هاتفنـي فهـد وأبلغنـي أنّ: «طبيبـة تريـدُ لقـاءك». هـي مـن درعـا، لكنّهـا تعمـل سرًّا في داريَّـا، وهـي محتاجـة إلى حليـب أطفـال وأكيـاس دمٍ وأدويـة.

ــ أخبِرْهـا أنّنـا نسـتطيع لقاءها غـدًا في سـاروجة، ثم سـنذهب إلى الميدان مـع محمـد لنـأكل كـوارع غنم.

سـاروجة حـيٌّ قديـم وسـط دمشـق، فيـه أزقَّـة ومَتاجـر صغـيرة وبيـوت عربيـة تقليديـة، تَحـوّل بعضهـا إلى مَقـاهٍ.

في المسـاء، ذهبـتُ لتنـاول العشـاء عنـد صديقـي مُلهِـم مـن شـلمبرجيه، بدعـوة مـن والدتـه. فقـد نشـأت بيننـا علاقـة عائلية، وحـين أزور دمشـق أُحـضر لـه الجـبن مـن مزرعتنـا. في المسـاء أخـبرني أن الشركـة سترسـلني للعمـل في الأردن. جامـع جامـع (ابـن العاهـرة الـذي كان يديـر المخابـرات العسـكرية في الديـر)، اسـتدعاه وطلـب منـه أن يسـلِّمني.
ــ بَدِّلْ رقم هاتفك وغادِر. وضْعُك أضحى خطِرًا.
ــ للوطن وللثورة، أريد البقاء.

قبـل أيّـام، اتَّصَـل بي أحـد مديـرِي الشركـة لِيسـتفسر عـن مـكاني الجغـرافيّ:
ــ أين أنت؟
ــ في دمشق.
كنت أعرف أن هذا الرجل مقرَّب من المخابرات.
ــ لنَلْتقِ.

ـــ تمام، أعود إلى الدير صباح الغد.

استشعرتُ الفخ، فلِمَ لا أسخر منه؟

ـــ أيّة ساعة؟

ـــ سأصِلُ قُرب الظهر.

في اليوم التالي اتصلتُ به حوالي الساعة الحادية عشرة صباحًا.

ـــ أين أنت؟ سألني.

ـــ في المحصّن.

هي منطقة ينحدر منها والدي وجزء كبير من العائلة، شرقي الدير. نمرُّ عبْر المدينة للوصول إلى هناك...

ـــ ولكن كيف وصلتَ إلى هناك؟

ـــ بكلّ بساطة، أرَيتُ الحاجز بطاقة هويتي وعبَرْت.

حينها فهِمَ أنّني أسخر منه. وقطعتُ المخابرة.

في يوم موعدنا مع الطبيبة، اتصلتُ بفهد وأخبرتُه أنني سأكون في المقهى ظهرًا. يقع المقهى في بيت قديم من بيوت ساروجة، وهو مؤلّف من طابقَين: المدخل، والفِناء، والطاولات الخشبية، والوسائد على المقاعد، والسجّاد القديم على الحوائط، ودرج يفضي إلى الطابق الثاني، اختاره الفنّانون الشباب من الجِنسَين مكانَ لقاءٍ لشرب العصائر وتدخين الأراكيل.

لِكَوني حذِرًا، أجلسُ دومًا ووجهي إلى الشارع أو المدخل. أمّا فهد الذي ذاق أبشع أنواع التعذيب على أيدي مخابرات لا يُكنّ لها إلاّ الأسوأ، فلم يكن يحتاط بما فيه الكفاية، لربما بسبب يُفُوعِه. لم

أكـن أريـد لـه أن يلتقـي بمـن قـد يعرّضـه للخطـر. فـإن جـرى توقيفنـا في الديـر، فسـيُهرع الأهـل والمعـارف إلى الدفـاع عنّـا؛ أمّـا في دمشـق، فمَـن سـوف يسـأل عنّـا ويسـاعدنا؟

أردتُ أن أعـرف مَـن هـذه الطبيبـة. يسـتحيل أن نقابلهـا في الشـقة التـي خزّنَّـا فيهـا الأدويـة. بالنسـبة إلى النظـام، تُعتـبر المضـادات الحيويّـة وأكيـاس الـدم أكـثر خطـورة مـن الأسـلحة. كان فهـد يؤْمـن بالعنايـة الإلهيـة، وبـأن اللـه هـو الـذي سـيقرّر مصيرنـا.

«لنكـن حذريـن، ولنُخطّـط. وبعـد ذلـك، فلتكـن العنايـة الإلهيـة». هـذا مـا كرّرْتُـه عـلى مسـامعه.

حـين دخلـتُ المقهـى، نظـرتُ إلى مَـن حـولي. المـكانُ مزدحـم في هـذه السـاعة مـن النهـار. جلسـتُ في نقطـة تسـمح لي بمراقبـة الداخـل والخـارج.

وصلَتِ الطبيبة. كانت صبيّة، قدّرتُ أنّها في الخامسة والثلاثين.

ــ سلام.

ــ مرحبا، أنا مِن درعا، ولكني أعمل بين داريَّا والمعضمية.

ــ أهلًا. إلى ماذا تحتاجين بالتحديد؟

ــ أحتـاج إلى أكيـاس دم وحليـب للأطفـال وأدويـة بسـيطة. مـا الكميّة المتوافِرة؟

ــ يـا لـه مـن سـؤال. هـل تريديـن بيعهـا؟ أم مـاذا؟ قـولي لي عـن حاجتـك كي أرى.

ليناً تـزور الشـقة، وفي حوزتهـا قائمـة دقيقـة وواضحـة بمـا تحتـاج إليه: عـشرة أكيـاس مـن الـدم، وعشريـن علبة مـن المضـادات الحيويّـة مثلًا.

نثق بها، فهي صديقة. فهدٌ وأنا نَسخر منها بلطف: «هيا فهد، خذ القائمة وحضّر لها المطلوب؛ أما هي فسوف تجلي الأطباق».

بعد الاجتماع مع الطبيبة في المقهى، عدتُ إلى الشقة وجهزت حقيبة سفري، ووضعتُ فيها ما طلبَت. الملابس في القعر، ثم علب الحليب المجفف، والأدوية. تركت أكياس الدم في الثلاجة. قبل الخروج بقليل وضعتُها في الحقيبة ثمّ أضفتُ طبقة من الملابس للتمويه. فمَن يدري ما قد يحدث؟ مع فهد أقلَّتْنا سيّارة أجرة إلى ركن الدين، فوصلْنا وسِرنا باتجاه ساروجة. دخلْنا المقهى نفسه، وأنا أحمل حقيبة السفر.

جلستُ عند المدخل.

اتصل فهد بالصديق (صلة الوصل مع الطبيبة)، وطلب منه الحضور. ومن جهتي اتصلت بمحمد.

ــ نحن في ساروجة، تعالَ وانضمَّ إلينا بعد ساعة، سنتناول الغداء في الميدان.

وصل الصديق والطبيبة، فأخذا الحقيبة وغادرا. بعدها وصل محمد وجلس مع فهد وهما يُديران ظهرَيهما نحو الباب. وأنا طلبتُ شايًا مرّة ثانية. رأيتُهم عند وُصولهم، رجالٌ مسلّحون في زيّ مدني. مثَّلتُ حركة تُوحي وكأنّني سأشهر مسدّسًا، بَيْد أنّهم سارَعوا إلى تصويب أسلحتهم نحونا. غطّوا رأسَي محمد وفهد بسترتيهما، ولكَمُوني وقلبوا قميصي لتغطية وجهي.

ــ من أيّ فرع أنتم؟

أردت أن أعرف من هم.

ـــ سدّ بُوزك.

دفعونا دفعًا كي ننزل الدرج، وهم يصفعوننا على الرأس، ويركلوننا على الأقدام.

نعم، آه، لم تمرّ مغادرتنا المقهى مُرورَ الكرام.

ـــ ما وِجْهتنا؟

ـــ سدّ بوزك.

اقتادونا بين الأزقَّة قبل أن نصل إلى الشارع الرئيسي. كنتُ أراقب المسار من خلال قميصي الذي يغطي وجهي.

أُجْلِسَ فهد ومحمد على مقعد السيارة الخلفي، وقد ثُبِّتَ رأساهما بأذرع الضبّاط؛ أمّا أنا فوضعوني في الصندوق وانطلقوا بنا.

∴ انطلقوا بك، وانقطعت أخبارك. أكواب الشاي الثلاثة التي وُضعَت على طاولة ذلك المقهى الجميل في ساروجة تَشهدُ على ما حدث. أُقفِل صندوق سيّارة «الهيونداي» على جسدك المنثني. وأذرعُ القبضايات يُطوِّقان رقبتَي فهد ومحمد. ها أنتم تنضمّون إلى «شعب الظِّلّ»، شعبٍ أُدينَ بلا سبب.

اليوم، ولّى زمن الاعتقالات البدائيّة، تلك التي سمعتُك ترويها، وابتسامة متهكِّمة ترتسم على شفتيك. مع بداية الثورة، وصلَت فيديوهات إلى مَرْأى العالم ومَسْمعه: الشعارات، وأزيز الرصاص، والمظاهرات، وقصص من هذا القبيل. رأينا كلّ ذلك، ثمّ رأيناكم فَوْر إطلاق سراحكم تَعُودون إلى الشوارع، رافعين لافتات يدويّة الصنع، ترفعونها عالية علّها تعانق السماء.

الآن، لم يعد القمع «البسيط» قادرًا على إسكاتكم. لقد سيطر الذعر على النظام، فلجأ إلى الخطف والتعذيب. تُطوِّق الدباباتُ الأحياء، وتُطلَق الصواريخُ على المنازل، والتفجيرات، والبراميلُ المتفجرة التي تُدفع بالأقدام من المروحيّات. نعم بالأقدام. نعم، رأى العالم هذه المَشاهد، عندما وثّق الجنود فرحتهم. يَقتلون على قاعدة «حظّك نصيبك»، ويُسقِطون براميلهم المعبّأة بالخردة. بعد ذاك، استَخدموا غاز السارين والكلور، فهجّروا آلاف الأطفال والنساء والرجال.

مقاومةٌ وموتٌ في الطرقات، وبيوت مدمّرة. صمتٌ وصراخٌ، صراخٌ يصمّ الآذان. وتحت الأرض، مَن يستطيع أن يسمع «شعب الأشباح» المتواري عن الأنظار والحُبّ؟ كيف لنا أن نقارب هذا الاختفاء، وهذا الغياب؟ لقد فقدتَ الوعي في ذلك اليوم من شهر آذار ٢٠١٢. مَن الذي سوف يخبر كيف ألقَوا بك في صندوق سيارة «الهيونداي»؟ ومَن الذي سيبلّغ والِدَي فهد ومحمد؟

رُعْب الدولة السورية ونظام الأسد عتيقان ومُقَوْنَنَان. ففي عهد حافظ الأسد (١٩٧٠ ـ ٢٠٠٠)، خيّم الصمتُ والتعتيم على ملفّ السجون، فأضحى المعارضون فئة لا يأتي المجتمعُ على ذكرها. هم في بالِ مَن يعرفهم طبعًا، بَيْد أنّ الحديث عنهم ممنوع. مَن يَجرُؤ على السؤال علنًا عن أخبار أحبَّائه المعتقلين أو المفقودين؟ مَن؟ يُعَدّون على الأصابع. يَهمسون همسًا، بالسرّ، في أمكنة مفتوحة حيث لا شاهد ولا رقيب. «مُخْتفٍ»، «أخوها مفقود»، «تبحث عن والدها المسكين الذي اختفى». يحاولون الكلام عن الموضوع بعيدًا عن الأطفال، كي لا يغلطوا في نقل ذلك إلى خارج البيت. مجرّد الكلام عن الموضوع أو لقاء بعائلة مفقودٍ، يُعرّض المتكلّم للاعتقال.

مع الثورة، شعَر النظام بالتهديد. ذُعرَ، فأطلق العنان لعنفٍ من

طـراز غـير مسـبوق، ضدّ الشـجعان الذيـن تجـرّأُوا وطالبوا بالحريّـة والتغيير السـياسيّ. ١٠٠٠٠ ـ ٣٠٠٠٠ ـ ٨٠٠٠٠ ـ ١٠٠٠٠٠ ـ ١٣٥٢٥٢، هـي أرقـام مَـن اعتقلهـم النظـام بـين آذار ٢٠١١ وآب ٢٠٢٢، أثنـاء مظاهـرة، أو عنـد حاجـز، أو وهـم عائـدون مـن العمـل، أو وهـم ذاهبـون لـشراء كيـس أرزّ مـن البقالـة. ٩٥٦٩٦ هـو رقم المفقودين السـوريين. خمسـة وتسـعون ألف اسـمٍ مـدوّن في سـجلّات «الشـبكة السـورية لحقوق الإنسـان»، الأمينـة على هذه المعلومـات المؤلمـة والأساسـيّة. سـوريا اليـوم بلـدُ المغيّبِين.

كلٌّ منّـا يحـاول تخيُّـل ذلـك الصقيـع، الـذي يسـتقرّ في حشـا المخطـوف المعتقـل. الخيـالُ لا يمـتُّ إلى الحقيقـة بصلـة.

«لم يَعُـد. شُـوهد مُغـادرًا برفقـة مسـلحين. وهـي لم تخـرج من المستشـفى. طرقـوا بعنـف بـاب الشـقة وأخذوهما».

لم تُخْـتَرَعْ بعـدُ لغـةُ «مـا وراء الخـوف»، ولم نَخـترع بعـدُ لغـةً لهـذا الـدُّوَار الممـزوجَ بالهاويـة وبالعجـز، حيـث يتـدرج العقـل ومنطقُـه إلى بـرزخٍ بـين حيـاة ومـوت.

لا أدلّـة، ولا عناويـن لأماكـن الاحتجـاز. المختفـي شـبحٌ، والشـبحُ لا يوجـد. مُغيَّـبٌ مَمحُـوّ، فِكره ممزّق. هـو في وَحْدته في موت اجتماعـيّ، في اللاوجود، في الرعـب والتعذيـب. ذلـك جـبروت الأجهـزة القـادرة على تحصـين أسرارها.

في مـكانٍ مـا، هـوَى المفقـودُ، وصـار في عـالم آخـر مـا بـين حيـاةٍ ومـوت. أهو في قبـو أحـد المبـاني وسـط دمشـق، أمْ عـلى بعـد مئـات الأمتـار مـن سـاحةٍ مزدحمـة، أمْ في غرفـةِ مبنًـى في مطـارٍ عسـكري، أم في زنزانـة مركـزٍ للشرطة؟ هـي أماكـن عاديـة منتـشرة في جميـع أنحـاء البلاد. يمـرُّ النـاس في الشـوارع، وتسـتمرُّ الحيـاة. أمّـا رجـال المخابـرات، فهـم في مكاتبهـم يُسـيّرون أعمالهم الحقـيرة، وجِوارهـم تحتهـم فوقهـم معتقَلـون تُحِيـق بهـم الأسرار. ❖

الفصل الحادي عشر

حين يُقبَض عليك أوّل مرة في الشارع، كما حدث لي، تجتاحك الأسئلة.
مَن هؤلاء الأشخاص كي يهينوك؟ هل هم قطّاع طُرق أم رجال مخابرات؟

ضربوني، ضربوني على الرأس والوجه، فأضحى عقلي مشوّشًا. بعض المعتقلين ينهار منذ اللحظة الأولى. «أنت وحيد» قلتُ لنفسي. رَشّوا عليّ الماء كي لا أفقد الوعي. يهينونك. أنتَ مقيّد اليدين، عاجزٌ عن الحركة.

وصلْتُ بقميصي المميَّز بماركة «ستيفانيل»، وخاتمي الذهبي، ومحفظتي. وصلتُ «أنيقًا» إلى القسم. نظروا إلى هندامي وضربوني، وهم يفكّرون في أنّ مرتّباتهم الوضيعة لا تتيحُ لهم شراء قميص مثله، وأنّه بعد قليل سيصبح حقًّا لهم. طُلب منّا خلع ملابسنا. تيقنّتُ حينها أنّ قميصي ملطّخ بالدم. احتفظتُ بملابسي الداخلية، وسلَّمتُ ما أحمله من أوراق نقديّة (بضع مئات من اليوروات، و١٥ ألف ليرة سورية)، وهاتفًا خلويًّا. طبعًا دَوّنوا كلّ ذلك في سجلّاتهم، يا له من مُزاح!

أخذونا إلى «بُورة» مزروعة بالخِيَم العسكريّة، تحيط بها بعض المباني. بدا لي أنّنا حوالي أربعين معتقلًا في هذه الباحة، راكعين، منكّسي الرؤوس.

ضربونا بأعقاب كلاشينكوفاتهم، تارة على أرجلنا، وطورًا على رؤوسنا، وهم يردّدون:

ـــ إرهابي! إرهابي! إرهابي!

ثمّ صدح صوتٌ من المكتب الذي تَسلَّمُوا فيه محافظنا وهواتفنا:

ـــ لمن هذه الأموال الأجنبية؟

إن اعترفتُ، فسأتعرّض لمزيد من الضرب. سأنهزم. امتلاكُ أوراق نقَديّة أجنبيّة يعني الخيانة والعمل مع الأجانب في عُرْفهم.

ـــ لمن هذه الدولارات واليوروات؟

قرّرتُ قول الحقيقة:

ـــ لي.

ـــ تعالَ أيّها الحمار.

أُدخلتُ مكتبَ الرقيب.

ـــ رأسك إلى الأسفل. هل الدولارات واليوروات لك؟

ـــ نعم، إنها لي.

ـــ من أين حصلتَ عليها؟

ـــ أعمل في شركة نفطيّة، أرسلتني للعمل في الأردن، من هنا هذا المبلغ. أمّا خاتم الذهب عيار ١٣ غرامًا فهو هدية من والدتي.

الأوراق النقدية لا تعنيني؛ أمّا الخاتم الهديّة من والدتي التي توفيّت عام ٢٠٠٧، فنَعَم.

ـــ اصمُت، لا خاتم لدينا. كم دولارًا سلّمت؟

ـــ حوالي ٢٠٠ دولار، و١٠٠ يورو، و١٥ ألف ليرة سورية.

عندما غادرتُ المعتقل الأوّل، وكنتُ قد أمضيتُ فيه زهاء العام، في حزيران ٢٠١٣، وقبل نقلي إلى السجن، أرجَعُوا لي ٢٠٧٥ ليرة

سـورية، منهـا ٢٠٠٠ ورقـة نقديـة، و٧٥ قطعـة معدنيـة. سـلّمني الحـارس المبلـغ وهـو يَعُـدّه قطعـة قطعـة، مُوحيًـا أنّـه بتصرّفـه هـذا يعيـد لي كامـل المبلـغ.

ـــ تمام؟ أينقصك شيء؟

لـو أجبـت بنعـم، لصُفِعـتُ وضُرِبـت، ولـصَرَخ الحـارس: «أيّهـا البغـل، أنحـن لصـوص؟!».

أسـمَعُ رنـين القطـع المعدنيّـة في جيبـي؛ أمـا الـدولارات واليـوروات وخاتـم أمّـي، فاحتفَظـوا بهـا.

أبقَونـا مُطَأطِئـي الـرأس عـدة سـاعات في هـذه البـورة. كلّما مـرّ جنديٌّ أو حـارس نُـضرب. بعـد ذلـك... بعـد ذلـك أخذونـا، أخذونـا. مـا عـدتُ أذكـر. فقـدْتُ قـدرتي عـلى التركيـز. ضربٌ، ضربٌ في رأسي، ضجيـج. زززززززززز، وبعـد ذلـك، أحتـاجُ إلى وقـت كي أتذكّـر. اقتـادوني إلى الزنزانـة.

ـــ أين أنا؟

هو أوّل سؤال طرحته على نفسي.

أجابني المعتقلون:

ـــ في مطار المزّة.

عنـد جميـل حسـن، رئيـس فـرع الجوّيـة المعـروف بشراسـته. كيـف لي أن آكل أو أشرب وأنـا في هـذا الفـرع. غفَـوتُ في وضعيّـة الجنـين مـدة يومـين كي أتأقلـم، وكي أتقبّـل خشـونة الأرض. ومـا شـمَمْتُه مـن روائـح العَـرق ذكّـرني بقـنّ الدجـاج. أَنْ يعتـاد المـرء هـذه الشـناعات لا يعنـي تقبُّلَهـا. كنـتُ أمـوت بالتأكيـد.

أخذتُ أسأل النزلاء مِن أين هم. تَبيّن أنّهم من كلّ مكان. أخبرني رقيبٌ فارٌّ من الجيش أنّه من مُوحسن.

موحسن هي البلدة التي تنحدر منها عائلة والدي، شرق دير الزور. ولِكَوني بِطبعي شكّاكًا سألته عن العائلة، ومِن أيّ جبٍّ، ومِن أيّ قبيلة، كي أتحقَّق من مصداقيّته.

هو من عشيرة البوخابور، من قبيلة العكيدات، التي تعيش بين العراق وسوريا والأردن. يسكن أبناء عشيرة البوخابور في قرى موحسن والمرعية والبوعَمْرو. نحن جميعًا أبناء عمومة. عرفْتُه حين سرد لي كلّ هذه التفاصيل. إنّه لا يكذب.

اسمي الكامل ونسبي يعودان إلى جَدِّ الجدّ: أنا مازن البسيس الهايس الحُمادة الفواز الجابر العُمَر.

❖ كَتب الصحافي فراس علاوي في موقع «الجمهوريّة» الإلكترونيّ بتاريخ ٢٨ تشرين الأوّل ٢٠١٦: «على يمين ضفة نهر الفرات لجهة الشرق، على بعد ٢٠ كيلومترًا من مدينة دير الزور، تقع بلدة صغيرة تتألف من عنقودِ قُرًى أوسَعُها موحسن. جِوارها المريعية والعبد والبولال والطابية والطوب».

بمحاذاة موحسن، على طريق المريعية باتجاه الشمال، تقع منطقة البوعمرو، حيث وُلد وعاش والد مازن، قبل أن يستقر في دير الزور عام ١٩٧٠، ويشتري أرضًا.

يضيف فراس علاوي: «استنادًا إلى التاريخ الشفهي وإلى مرويّات الآباء والأجداد، وصلَتنا قصص المئة عام الأخيرة من تاريخ هذه المنطقة. أما قبل ذلك، فما بقي منه شذراتٌ تكادُ أن تضيع. اسم

المدينة مكوّن من شقَّين: موح وحَسَن، الموح هي الأرض التي يغطّيها طوفان النهر[...] سكان قرى الموحسن والعبد والمريعية هم أبناء عشيرة البوخابور التي تنتمي لقبيلة العكيدات الكبيرة».

«مع افتتاح أول مدرسة ابتدائية في قرية موحسن عام ١٩٤٧، أدخَلَ مدرّس هو مدّاح الصايغ العقيدةَ الشيوعية إلى دير الزور، وقد لعب دورًا فعّالًا مشجعًا شبابَ القرية للالتحاق بالحزب الشيوعي السوري». لُقّبت موحسن بـ«موسكو الصغيرة»، وستتميز المنطقة بـ«مستوًى تعليميٍّ عالٍ، ونسبةِ أمِّيَّةٍ تكاد تكون معدومة بين رجالها، ومنخفضة جدًّا بين نسائها».

«كما هو حال جزء كبير من الريف السوريّ، عانت منطقة دير الزور من شتّى أنواع التهميش في ظل حكم حافظ الأسد: تاريخيّ واجتماعيّ واقتصاديّ، علمًا أنّها غنية بزراعاتها من القمح والقطن والشمندر السكّري والذرة الصفراء والخضروات وغيرها من المحاصيل. غياب أيّ مخطط لتنمية الزراعة حوّل موحسن إلى منطقة تملّحت أرضها وتصحّرت، فأضحت غير صالحة للزراعة، مما دفع العديد من سكانها إلى الهجرة». ❖

يخيَّل للناظر من بعيدٍ إلى مطار المزّة العسكري وما يحيط به من مبانٍ أنّها مَكاتب، بَيْد أنّها في الواقع فصولٌ مدرسيّة تحوّلت إلى زنازين، يُطلق عليها تهكّمًا اسم «زنازين الدراسة». في المكان الذي أقمتُ فيه يوجد غرفتان متجاورتان، مساحة كلّ واحدةٍ منها ٥ × ٤ أمتار تقريبًا، تتسع لنحو ستين معتقلًا، وأمامهما فِناء صغير في آخره مراحيض، تحيط به أسلاكٌ شائكة.

من حيث أنت، لا ترى العالم. تنقطع عنه نهائيًّا. انشقّت الأرض وبلعَتك. أنت لم تعد من هذا العالم، أخفَوك عنه.

فَـوْر وصـول شـخصٍ جديـد، تسـأله عـن الأخبـار. بعضهـم يجيـب، وبعضهـم لا، حـذَرًا، خوفًـا، مـن يـدري؟ سـألني المعتقلـون: «مـاذا يحـدث في الخـارج؟»، كذبـتُ وأجبـت: «لا أعـرف، لمـاذا؟». لِكَـون المخابـرات لنـا بالمرصـاد، يريـدون الحصـول عـلى مـا لم يحصلـوا عليـه تحـت التعذيـب. بعـض السـجناء مسـتعدّ للتعـاون؛ أمّـا أنـا فابْـنُ بلـد، وأعـرف خِدَعهـم.

ــ أنا طبيب، أنا طبيب!

وصل إلى زنزانتنا نزيلٌ جديد.

ــ «اهدأ، اهدأ، اهدأ» قلنا له.

بَيْد أنّه كرّر مذعورًا:

ــ أنا طبيب، أنا طبيب.

أشعر به. أعرف ما يمرّ به من صدمة.

فبعـد قضـاء الموقـوف سـاعاتٍ في «ضيافـة» رجـال أمـنٍ يصفعونـه، ويكيلـون لـه الشـتائم، يقـوم الحـارس بدفعِـهِ بركلـةٍ إلى الزنزانـة الجماعيـة، حيـث يجدنـا. الخـوف يتغلغـل في الأحشـاء. وبعـد مـا يمـرّ بـه السـجين، يكُـون المرحـاض ضرورة قصـوى. في الزنزانـة التـي سُـجنتُ فيهـا حـين اعتُقلـتُ أول مـرة، ثـمّ عـدت إليهـا عـدة مـرات، مرحـاضٌ فيـه إبريـق مـن البلاسـتيك، نمـلأه بالمـاء ونفرغـه عـلى رأس الشـخص الجديـد، ليَخـرج مـن ذهولـه. المـاء البـارد منبّـه ممتـاز.

نغتسـل صيفًـا شـتاء بنفـس الإبريـق. الحـمام في فصـل الشـتاء والمـاء متجمـد، تمريـنٌ صعـب. كنـتُ أتـردّد، أسـتجمع كلّ إرادتي قبـل أن أسـكبَ المـاء عـلى رأسي المتّسـخ. أوه، بـرررررد.

سُمح لنا باستعمال المرحاض مرتين في اليوم: بين الإفطار والغداء، وقبل العشاء فقط لا غير. الخروج عن النظام ممنوع طبعًا.

جرّبتُ زنازين كثيرة، كبيرة، وصغيرة، أصعبُها السجن الانفراديّ. ظننت وأنا فيه أنّني سأموت.

أحيانًا، تكون المراحيض في الخارج. نَخرج في صف، عشرة عشرة، ورؤوسنا مطأطِئة. نتعرّض للضرب على الطريق، بَيْد أنّنا نرى السماء من خلال الأسلاك. مراحيض بعض السجون في الجزء الخلفي من الزنزانة. نقوم اثنين اثنين، ويُسمح لكلّ واحدٍ بدقيقة. ولِاكتظاظ السجون قد تحتاجُ هذه العمليّة إلى ساعتين. السجين المسؤول عن الزنزانة ـ ولقبه السُّخرة ـ قد يتيح لنا وقتًا إضافيًّا لقضاء حاجاتنا، عالِمًا أنّه قد يُعاقَب بسبب ذلك.

أحيانًا يسرّع وتيرةَ العدّ كي يستعجلنا:

ـــ ٢، ٤، ٦، ٨، ١٠، ١٢، ١٤، ١٦.

لا تستطيع إخراج ما في أمعائك قبل نهاية الأسبوع، وحده التبوّل مسموح.

ـــ هيّا، عجّلوا!

السُّخرة يحثّنا همسًا على أن نسرع. إذا ما سمعه السجّان، نراه يَدخل الزنزانة سائلًا:

ـــ من الذي يسبب المشاكل؟

هكذا يعاقِبُ كلّ من لا يسرع.

في الطابور، نغنّي كي يمرّ الوقت كي نهدأ وننسى العالم الخارجي.

مَن يفكّر في عائلته يُجنّ. عيونك تخرج من مآقيها.

لا تستطيع، لا... وإلَّا فستنهار... لا... ما نعيشه فوق طاقتنا.

حذّرني إخوتي: «لا تفكر في الخارج». لقد مرّوا بالتجربة قبلي.

أبو الجود قضى خمس سنوات في السجن في الثمانينيات. أبو الجود وعبد العزيز رجُلان من الصلابة بمكان. لكَمْ أفتقدهما. لكَمْ فرّقَت بيننا الأيّام.

في الزنزانة الكبيرة، التي استُعملتْ ذات يوم قاعةَ درسٍ وتدريبٍ للطيّارين العرب، منصةٌ، لربَّما وقف عليها الأستاذ، وجوارها المراحيض. مَن أنهكه التعذيب وصار يتبوّل باستمرار، ينام هناك، وقد أُطلق عليها اسم «منصّة المتبوِّلين».

الموكل بالزنزانة، وهو غير السُّخرة، ليس متعاونًا بالضرورة. غالبًا ما يكون سجينًا محكومًا بجناية، وهو من يقرّر لك مكانك فور وصولك. انتقاه الحراس للتجسّس علينا، ونقل ما نتحادث به.

أحمد الحمصي فاسدٌ، وغْدٌ حقيقي، قذِرٌ بكل معنى الكلمة. هو من سوف يُدخلُ الهاتف الخلوي لاحقًا. يَحصلُ على سجائر، ويدخِّن في المراحيض.

نحن نكتفي بالدخان المتسرّب إلينا.

«رائحة السجائر... رائحة السجائر...» نتهامس. تَصوّرْ صداعَنا ـ نحن المدخّنين الحقيقيين ـ وقد حُرمنا النيكوتين.

أتذكّر دخولي الزنزانة والمرحاض أوّل مرّة. أتذكّر كيف سارعوا إلى استجوابي كما استجوَبْنا الطبيب.

ـــ من أين أنت؟

ـــ من جرمانا.

ـــ ما سبب اعتقالك؟

ـــ أخذني الأمن من عقر داري.

ـــ كيف تسير الأمور؟

ـــ التظاهرات مستمرة، والجيش الحُرّ حَرّر هذا المكان وذاك. النظام سينهار.

بعد أسبوعين مِن وصولي، استدعاني الحارس.

ـــ قوموا جميعًا، لا أريد أن أسمع صوتًا. لِيَستمعِ الجميع.

يقرأ أسماءَ المساجين الذين سيُنقلون إلى مكانٍ آخر. «عندما تسمع اسمك، تجيب: حاضر. استعِدّ. إلى البابِ».

يغادر لحظاتٍ، ثم يعودُ ويَعصبُ لنا أعيننا، ويقيّد أيدينا بكلبشاتٍ بلاستيكية. نَخرج ونسير في طابور، واحدًا واحدًا، واضعين يدنا على كتف السائر أمامنا. رحلة عمياء، متردّدة. أرسَلونا إلى مبنًى آخر، ووزّعونا على زنزانات أصغر. سمعنا الحارس يفتح الباب.

ـــ هيّا، ادخُلوا.

ممرٌّ على جانبيه زنازين.

ـــ من معك؟

همستُ للواقف قبالتي، بعد أن تحقَّقتُ من ابتعاد الحارس عنّا.

أجاب بصوت متعب: «هذا، وهذا، وهذا».

ـــ هل تعرّفتَ إلى مساجين من الدير؟

ـــ لا، من حمص وحماة.

مكثتُ ثلاثة أشهر تقريبًا في هذا المكان، ثمّ حان وقت الاستجواب.

الفصــل الثـاني عشـر

غرفـةٌ في ســقفها شــبك مغطًّــى بقــماش ســميك يحجــب أشــعّة الشــمس، ولهــا نافذتــان. هنــا غرفــةُ التعذيــب.

راكعٌ، معصوبُ العينين، معصوب اليدين خلف الرأس.

ــ اسْمُك؟

ــ مازن الحُمادة.

ــ ما الذي فعلته؟

ــ لا شيء.

ــ لا شيء؟ ذهبتُ إلى المظاهرات.

وجـدوا مقاطـع فيديـو نشرْتُهـا عـلى حسـابي الفيسـبوكي، وبثّتْهـا قنـاة ديـر الـزور الإخباريـة عـبر اليوتيـوب.

ــ نعم، صوّرتُ المظاهرات لتوثيق ما يحدث.

ــ وماذا أيضًا؟ لقد فعلتَ أكثرَ من ذلك بكثير.

ــ لا، لم أفعل أكثر من ذلك.

أطفأوا سجائر على ساقيَّ، وسكبوا الماء، وصعقوني بالكهرباء.

اعترفتُ بأسماء أصدقاء لي قُتلوا في دير الزور.

عليك أن تعترف بأشياء أخرى. عدد الأسلحة التي خَزّنْت.

ـ ليس لديَّ أسلحة، أنا أكره الأسلحة. سلاحي هو كاميرا التوشيبا.

«اســتَبْقُوه ريثــما أدخــنّ ســيجارة» قــال أحــد الضبــاط لمســاعديه.

«وعندما أعود، أريده أن يعترف بأنّه قَتل جنودًا وصنع قنابل».

عاد.

ــ حدِّثْني عن أسلحتك. ستُوقِّع على هذا الاعتراف.

ــ لا أسلحة لديّ.

يريدون منك أن تعترف بأسلحة لم تكن يومًا معك، وبأنك قتلت جنودًا، وزرعت متفجرات، وذلك لتلطيخ سمعة الثورة، وليثبتوا أنّنا إرهابيون.

أمسك بي أربعةٌ من مساعديه، كلابٌ ضارية. لكَمُوني وركلوني وضربوني بماسورة، ثم داسوا عليّ وكسروا أضلاعي. فعانيت أسابيع بعد ذلك من صعوبة في التنفس.

بعد ذلك، عَلَّقُوا يديّ بنافذة على ارتفاع أربعين سنتيمترًا من الأرض. الأصفاد التي تقيّد يديّ تجرحني. أصرخ... سَدّوا فمي بحذاء.

ــ بوزك.

عُلّقتُ أكثر من مرّة.

ــ أخبِرْنا عن الأسلحة.

ــ لا أسلحة لدي.

أخذوا مِشبكًا من حديد يستعمله السبّاكون، ووضعوه حول قضيبي وأخذوا يشدّون.

ــ هل تعترف أم أقصّه؟

شعرتُ بعصًا تُدخَلُ في مؤخرتي. لم أعد أعرف أين أنا ومن أنا. فانتهى بي الأمرُ معترفًا بكلّ ما يرغبون.

ـــ ما الأسلحة التي كانت لديك؟

ـــ ما السلاح الذي تريدني أن أحمله؟ أخبرني وأنا أعترف.

ـــ الأمر لك، أخبِرْنا.

ـــ كان عندي كلاشينكوف.

ـــ بكم شاحنٍ؟

ـــ خمس رصاصات. أحتاج إلى شاحِنَين، كان لديَّ شاحنان.

التعذيبُ فنٌّ. يُرغمكَ السَّجان على الاعتراف، ثم يطلب منك التوقيع على إفادتك. أنت لا تعرف على ماذا ستوقّع، لكنّهم يحذّرونك: إن كرّرتَ شنيعتك فلا مفرّ من الموت.

نعم، القتلُ من فنونهم.

أُحضرَ صبيٌّ من داريا يبلغ من العمر ١٧ عامًا. أُخذ رهينة لإجبار والده الداعم للجيش السوري الحُرّ على تسليم نفسه. محمد. عندما عَلِم الحرّاس أنّه من مواليد هذه الضاحية التي وقفَت في وجه بشار، أحرقوا وجهه وصدره وظهره. رأيته يذوي.

بقينا يومَيْن ونحن نحاولُ في الزنزانة مواساته. جُننت. صرختُ في وجه السجَّانِين.

فعلّقوني على النافذة.

دَعُوني أَمُتْ هنا. لِيتوقّفِ العالم.

❖ «بعد اثنين وعشرين عامًا، ما زلتُ مُعلَّقًا من ذراعيّ المخلَّعَين على ارتفاع متر واحد من الأرض. يَضيقُ نَفَسي، وألُوم نفسي».

كان في سنّ الواحدة والثلاثين، عندما اعتقلتِ الشرطةُ السِّرِّيّة الألمانية «الغيستابو» في بلجيكا في تمّوز ١٩٤٣، النمساويَّ الأصل جان أميري، متّهمةً إيّاه بالنضال في صفوف المقاومة الشيوعية. وبين أنفرس وبروكسل عُذّب في حصن بريندونك قبل أن يُقتاد إلى معسكر أوشفيتز. في عام ١٩٦٣، حين بدأت محاكمة أوشفيتز الشهيرة في فرانكفورت، قرّر كتابة «ما وراء الجريمة والعقاب: بحثٌ في تَخطِّي ما لا يُحتمل»، الذي صدر بالألمانيّة عام ١٩٦٦، وبالفرنسيّة عام ١٩٩٥.

تعذيب الإنسان للإنسان صدمة جعل منها محور تفكيره.

بلا سابق إنذار صُفعتُ. «يَفقدُ السجينُ كرامته في تلك اللحظة». «يفقدُ ثقته بالعالم»، بالعالم الذي تَوانى في نجدته. جِلدُهُ. أيحميه جِلده؟ أيحمي حمِيمه؟

المُعَذَّبُ عارٍ.

كتب جان أميري: «ها أنا معلّقٌ، ويداي مقيدتان خلف ظهري، في أقبية هذا المعتقل. في إحدى اللحظات تَمزّقَ الجزء العلوي من جسدي. تَمزُّقٌ لا ينساه جسدي حتّى اليوم. انخلع كتفايَ، فما يحملانه فوق طاقتهما. سقطتُ في الفراغ، وأصبح جسدي معلقًا بالذراعين، المخلوعَين المنفرجَين للأعلى وإلى الخلف فوق رأسي.

أصول كلمة «تورتور» [التعذيب] الفرنسية: «توركيري» اللاتينية، وتعني التفكيك. نعم، التعذيب يُفكّك البَشر. توركيري اللاتينيّة هي عين المعنى. هنا تَكمن قوّة التعذيب.

بعد اللكمة الأولى يسترسلون في التعذيب. بعد اللكمة الأولى يبدأ التعذيب الفعليّ. تعذيب يَترُكُ ندوبًا لا تَمّحي، وكسورًا، وتمزّقات نهائيّة. مِن بعدها، يستحيلُ المُعَذَّبُ رجلًا آخر: «رجلًا وحيدًا مع جرحه، في عزلة تامّة عن عشيرته».

يُفرضُ عليه الصمت. أُسْكِتَ بعد أن أُرغمَ على البوح باعترافاتٍ ومعلوماتٍ كاذبة. هي خدعة يُتقنها الجلّادون مستهزئين من الصدق. ∴

الفصل الثالث عشر

القطعان أكثر تنظيمًا ونباهة.

فحين تُصابُ الأغنامُ بمرضٍ ما، ونُقرّر رشّ صوفها بمادة كيميائية مضادَّة للطفيليات، نَعرفُ أنّ الدواء مزعج. لذا، نَفتح «سُكْرَ» البئر كي يتدفّق الماء. تصِلُ الأغنام، واحدة تلو الآخرى، وتُعرّض نفسها للماء، وتُغادر لإفساح المجال للآخرين: يصل الخاروف، ويبقى لحظات في الماء ثمّ يرحل، هكذا بكلّ بساطة.

في السجن، الوضع مختلفٌ. يتشاجر البشر ويُصرّون. أبسبب المرض والألم؟

أحضَرَ لنا الحراس برميل ماء، وضعوا فيه مواد مطّهرة، وقالوا: «مَن معه جرَبٌ فلْيَخرج». وبلا احتياط سكبوا المحلول والماء على الأجساد المريضة. بعد عشر دقائق احمّر جلد من خضعوا لهذا الحمّام، وسمعناهم يصرخون: «تَوقّفوا. توقّفوا. هذه المادة

نـار تُحرقنـا».

«نعالـجُ الأسرى»، هـذا هـو الانطبـاعُ الـذي يسـعى رأس الهـرم للترويـج له .

في أكيـاس تُسـتعملُ لتغليـف الخبـز، توضـع كميّـة مـن الأدويـة المسـكِّنة. يُقـتِّر السـجّان في توزيعهـا، مُقيِّـمًا بنفسـه شـدّة المـرض: مـن أربعـة إلى خمسـة أقـراص باراسـيتامول لـ١٨٠ سـجينًا!

رأيـت سـجينًا بُـترتْ أصابعـه، مصابًا بالغرغرينـا، عالقًا في فتحـة صغيرة أعلى البـاب، يُـضربُ وتُكسر أسـنانه، ثـم يُخـرَجُ مـن الزنزانـة. نراقـب المشـهد، ونكـزّ عـلى أسـناننا، ونصمـت.

ما من راعٍ يَزرب ١٥٠ خروفًا في حظيرة سَعتُها خمسون.

أمّـا نحـن، فمئـة وثمانـون شـخصًا، بملابسـهم الداخليّـة، والقيـح يَخـرجُ مـن بعـض الأرجـل، مكدّسـون في زنزانـة مسـاحتها أحـد عـشر مـترًا في سـتة أمتـار.

يدفعـك جـارك، وهـو لا يعلـم أنّـك مجـروح. ووسـط ازدحـام الأجسـاد هـذا، في الظـلام، مـاذا يمكنـك أن تـرى؟ إن أخـذ جـارك كـسرة خبـزك، تبـدأ المُشـادَّة.

يجوّعوننا كي نقتتل. لا دين للجوع. الجوع كافر.

أحدهـم جُـنّ بسـبب الحـرّ والازدحـام. صـار يمـشي فـوق الآخريـن، ويقـرع البـاب بقـوّة.

«مـا سـبب سـجننا يـا ابـن الكلـب؟ ملعـون بشـار، ملعـون أبـو بشـار، ملعـون حافـظ، ملعـون أبـو حافـظ...».

وعليه، دخل السجّانون: «وجوهكم إلى الحائط». ويبدأ الضرب. نقع. بعضنا يختنق. يقبضون على الأحمق. انظُرْ من الكوّة: ربَطوا يديه خلف ظهره وعلّقوه إلى سقف الردهة، وأمعنوا في ضربه. جسده كبندول الساعة. توك، توك، توك... سمعتُ صوت انخلاع كتفه.

جنون القيظ. نحن نختنق.

المرضى، وكبار السنّ، بعضهم مات اختناقًا. المحظوظ مَن يجدُ مكانًا قرب الباب ليتمكنّ من غَبّ قليلٍ من الهواء. هذه الأمكنة قرب الباب، وقرب كوّة السقف، لا يُتخلّى عنها بسهولة. فالهواء على شُحّهِ عزيز.

نستفيد وُسْعَنا من هواء مروحة تعمل أحيانًا في الزنزانة المجاورة. حين تنقطع الكهرباء نموت فوق موتنا.

الفصل الرابع عشر

كنّا نغنّي بصوت منخفضٍ، علّنا نرتاح. نحن مئتان في الزنزانة، والكلّ أخذ يدندنُ، فاستحال الغناءُ جلَبةً. «اصمتوا» قال الحارس، «ولا كلمة».

إنْ سمعوا ضجيجًا يَحضرون ويضربوننا بالعصي، أو يفتحون صنبور خزّان المياه، فنغرق حتّى الركب، ونبقى مستيقظين واقفين طوال الليل، وأحيانًا يومًا أو يومين.

ونحن متلاصقان، أخَذْنا فهدٌ وأنا نُدَندن بِبُطء. الاستلقاء ـ ونحن

في هـذا الوضـع ـ مسـتحيل. دنْدَنّـا:
«طيّبْ إذا مْنِرْجَع، بتُوعِدْنا تِسْمَعْنا؟
ماشي يلّا اِسْمَع، هايِي مَطالِبْنا.
بَدْنا أصابِعْ نَصْر، نِرفَعْها فُوق القَصْر
بَدْنا الصُّبح والعصر، تِمرُق وتِفْقِدْنا.
بَدْنا دمِّ الشُّهَداء، ويِرجَع نهر برَدَى
والقصة مَعْ سَرْدَا، ليش كِنِتْ تِقْتِلْنا.
وتْلِمْ كِلْ دَمْعة، نِزْلِتْ بكِلْ جِمْعَة
كلْ إصبَع بْشَمْعة، يضَوّي لْنَا وِجْهِتنا.
بَدِّلِلْنَا اللَّمْزِة، والقاف بالهمْزِة
ورَجِّعِلْنَا حمزِة، وهاجَرْ وإخوِتْنا.
حَبْل الصدق مِدُّو، مِلْكِ البَلَد رِدُّو
ولِسَّا الشَّعب بَدُّو، تِرْحَل وتِتْرِكنا
ترحل وتتركنا...».

«يا خاين يا ابن الخاين، اِلْغي القانون الثامن
بدنا حرّية إعلام، ما بدنا كلاب النظام
فكّك الفروع الأمنيّة ، اشتقنا لزمن الحريّة

قانون الطوارئ باطل، إِلْغِي هالقانون الفاشل ...».

أحد المعتقلين كان يُنشدُ مواويل عراقيّة. كنتُ أجلسُ جوار ضابط سابق من حمص لتبادل أطراف الحديث، فأسمعه ينشد مواويل ريفيّة خاصّة بمنطقته، وحين يوهن صوته أُعِينه بموَّال عراقي، وهكذا. الغناء يستحضر الدمع. بكيْنا أحيانًا.

متى غنّينا أكثر مرَّة؟ ساعة توزيع الغداء ظُهرًا والكلّ يتحرّك. وحين يَفتحُ السَّجّانُ الباب، على الجميع الوقوف والنظر باتّجاه الحائط. يأخذ السُّخرةُ الأوعيةَ، ويَخرج لإحضار الطعام.

كنتُ السُّخرةَ أحيانًا. أعْرِف هذه الصحون البلاستيكيّة الخمسة والعشرين، التي لا تَصدر خشخشة ولا تؤذي كالمعدن.

عثروا مرةً مع سجين على قطعة حديد. أتعرفين ما كان عقابه؟ أولاد الكلب. ظلّ شهرًا في الاستجواب:

ــ كيف حصلت على ذلك؟ كيف حدث ذلك؟ كيف وصلَت قطعة الحديد إلى يدك؟ ما نيّتك؟ ماذا تُخطط؟

أبناء الكلب. لقد كانوا خائفين في الواقع.

أنا مُتعَبٌ، متعبٌ. لو تعرفين...

مرّةً رمَوا بي ثلاثة أيّام في زنزانة مليئة بالقاذورات. لو بقيتُ يومًا إضافيًّا لَجُننت. أحضَروا لي طعامًا وسط هذا القرف. كنتُ في ملابسي الداخليّة المتّسخة الكريهة الرائحة.

يا لها من نكتة! عُوقبت بسبب هاتف تمَكّنَّا من إدخاله الزنزانة. رمَدَ العين ولا العمى.

مـع الجلَبـة التـي تَحـدث حـين يُدْخِـلُ السُّـخْرةُ أطبـاق الأرزّ، كان الغنـاء وتبـادُل الأحاديـث أسـهل. حينهـا يَنقـرُ السَّـجان بعصـاه عـلى شـبكة التهوئـة كي نخفـض أصواتنـا.

أيضًـا غنّينـا ونحـن في طريقنـا إلى المرحـاض. دعينـي أرسـم لك المشـهد: أحيانًـا يكـون المرحـاض داخـل الزنزانـة. هنـا البـاب. أتَرَيْـن؟ السـجّان بعيـدٌ عـن البـاب، ولـن يسـمعنا.

فهمتِ؟

أثنـاء قيامـي بمهمّـة السُّـخْرة غنّيـتُ للسـجناء المنتظريـن دورهـم أمـام المرحـاض. السُّـخْرة ينـام أمـام هـذا البـاب؛ إذ هـي فرصتـه ـ بسـبب «سـلطته» ـ لـكي يتمـدّد.

كان في الزنزانـةِ شـابٌّ اسـمه صالـح، مـن الغوطـة في ريـف دمشـق. يُدَنـدنُ بصـوت حنـون ورخيـم أغـانِيَ عراقيّـة. صالـح لطيـفٌ جـدًّا.

عـلى مسـافة قريبـة مـن المطـار، حيـث زنازينُنـا، كان الجيـشُ يقاتـل الثـوّار في بلـدة المعضميـة. وبسـبب المناوشـات، وكي لا يجـري الهجـوم عـلى المبـاني، قطعـوا عنّـا الكهربـاء، فتوقفـت المروحـة، وكدنـا نختنـق. اقـترب صالـح مـن البـاب، وأخـذ يقرعـه لتنبيـه الحـراس.

ـــ مَن الكلب الذي يقرع؟

دخلوا واقتادوه، وضربوه، ثم أعادوه إلى الزنزانة جثّة هامدة.

عمّـت الفـوضى في الزنزانـة. بكَينـا. دخـل السـجّانون ومُسـاعدوهم، خمسـة أو سـتّة. ولِكَـوني السُّـخرة حملـتُ الجثّـة مـع سـجين آخـر. إنّهـا الجثّـة الثانيـة التـي كُتـب لي حمْلُهـا.

الفصــل الخامـس عشـر

رأيتُ جثثًا كثيرة في الزنازين.
بَيْـد أنّ الجثّـة الأولى، التـي يُكتـب عليـك حمْلُهـا إلى الخـارج، أشـبهُ بنصـلٍ يخترقـك.

المـوتُ، مـوتُ سـجين، مناسـبةٌ للتفكّـر، ولتـلاوة آيـات مـن القـرآن، ولإخفـاء الدمـوع. وسَـط الآهـات والروائـح الكريهـة، يرحـل أكثرنـا هشاشـةً كلّ يـوم. نُـدْني المحتـضِر مـن شـبابيك التهوئـة مـن البـاب، كي يتنفّـس نفسـه الأخـير.

حين يدنو أجلُ أحدِنا نَقرعُ معدن الباب.

ــ اترُكوه. حين يموت سنفتح.

ويتكرّر المشهدُ كلّ يوم.

هــو مــن ضواحــي دمشــق. تَظاهَــر، فاتُّهِــم بالانتــماء إلى الجيــش السـوري الحُـرّ، وحمْـلِ السـلاح. ضربـوه بأنبـوب بلاسـتيكي عـلى الرأس والعينـين؛ رأسـه كاد ينفصـلُ عـن جسـده. حملنـاه إلى المنصـة في آخـر الغرفـة. ظـلّ يحتـضر مـدة يومـين. هـو جُثّتـي الأولى.

لففْتُـه ببطانيـة عسـكرية عشْـعَش فيهـا القمـل. ومـع زميـلٍ لي ـ كان سُـخْرة أيضًـا ـ أخرجنـاه إلى الردهـة، حيـث وصلَـتْ سـيارة إسـعاف عسـكرية روسـية قديمـة مـن طـراز السـبعينيات، فوضعنـاه فيهـا. بكَيت وأنا أحمله.

عـدتُ إلى الزنزانـة وفي حلقـي صراخٌ: أنـا التائـه الممـزَّق، المغلـوب عـلى

أمـره. لـو أقـرع بقـوّة هـذا البـاب، لـو أصرخ، لـو أشـتم الحـرّاس.

«إيّـاك! سـيعُودون ويعذّبونـك حتـى المـوت» هـذا مـا قالـه لي أصدقـاء المصـير، وهـم يرتجفون.

أسامة وفهد حاولا إقناعي. كان فهد قويًّا، أمسكني ليهدِّئني.

رشّـوا عـلى وجهـي مـاءً مـن الحـمام. وأخـذ رجـلُ ديـنٍ مـن درعـا يتلـو آيـاتٍ مـن القـرآن الكريم.

آهٍ من جثّتي الأولى. آهٍ من جثّة صالح ذي الصوت الحنون.

∴ «لن ينامَ أحدٌ هذه الليلة».

تَهـبُّ الريـاحُ، وتَصفِـرُ وتـئنُّ. يَصعَـدُ الأنينُ من المسـتنقعات، ويسـتحيلُ عويـلًا يَكـبر، ثـمّ يكـبرُ إلى حـدّ الانفجـار، ثـم يهـدأ في صمـت مرتجـف، يليـه عويـلٌ يكـبرُ، ويكـبرُ، ثـمّ ينفجـر ويَمَّحِـق.

لا أحـد ينـام. صمـتٌ، وريـحٌ تُعْـوِل، وآهـات. آهـاتٌ تبـدأ ضئيلـة، ثـمّ سرعـان مـا تعلـو وتَعـرفُ الآذان مصادرهـا، ولـو هـدأت الريـاح.

لا أحد ينام.

سـتينيا البلوكهوفـا لا تسـتطيعُ النـوم. تُغـادر غرفتهـا عنـد مدخـل المبنـى. شـمعتها تـضيء الطريـقَ المظلـم بـين الزنازيـن، حيـث نرقـد مكدَّسـات. تنتظـر سـتينيا أن يهـدأ الإعصـار، وفي الصمـت حـين ترتفـعُ الآهـات، تـصرخ: «مِـن أيـن يـأتي هـذا الضجيـج؟ اصمُـتْن!» بَيْـد أنّ الحشرجـة لا تنقطـع. تـصرخ سـتينيا: «اصمُـتْن!». أمّـا القريبـة مـن المـوت فـلا تَسـمع. «اصمُـتن!»، الحشرجـة أقـوى مـن الصمـت. الريـح

تهبّ وتملأ سواد الليل.

ترفع ستينيا شمعتها، وتسير لملاقاة الحشرجة، تُحدِّد هوية المرأة التي تلفظ أنفاسها، وتَطلب إخراجها.

رفيقات المرأة المحتضرة يحملنها إلى الخارج تحت عصيٍّ ستينيا. مدّدْن جسدها بما استطَعْنَهُ من لطف على طول الجدار، ثمّ عُدن إلى أَسِرّتهن.

شمعة ستينيا تبتعد، ثمّ تختفي. الرياح والأمطار الغزيرة يحطّمن السقف.

«في المعتقلات، لا أحد ينام».

خلال الحرب العالميّة الثانية، وقد كانت في الثامنة والعشرين من العمر، أُلْقتِ الألويةُ الخاصَّة التابعة لشرطة باريس، المسؤولة عن تتبُّع أعداء الداخل في شهر آذار ١٩٤٢، القبضَ على شارلوت دلبو، المناضلة في صفوف المقاومة الشيوعية الفرنسية. رُحِّلَت عام ١٩٤٣ مع ٢٣٠ من زميلاتها المناضلات إلى أوشفيتز بيركيناو، من كانون الثاني ١٩٤٤ إلى كانون الثاني ١٩٤٥، ثم نُقلتْ إلى رافينسبروك من كانون الثاني ١٩٤٥ إلى نيسان ١٩٤٥. ذاقت مدة خمسة عشر شهرًا عذاب المعتقلات، وقد أثمرت هذه التجربة أدبًا من طراز رفيع ومؤثّر، لم أقرأ مثله عن أوشفيتز قط.

حنانُ نظرةِ شارلوت دلبو، وهي تصفُ قسوةَ تَمزُّق أجساد نساء المخيم ورجاله. صمْتُهم وصراخهم لوحات انطباعيّة ذات سردٍ مفكّك، لا علاقة له بمفهومنا الخطّي للزمن، تُشعرنا في الآن نفسه بالرعبِ والعزاء.

ألَمٌ وعذوبةٌ ينجدلان، وأنا أقرأ هذه الصفحات، ترتسم أمامي

صورة وجهِك يا مازن. الحنانُ... أستدعي الحنان كي أتابع الكتابة وألْتقطُ أنفاسي. بالحنان، ملجئي الوحيد، أُواجه القسوة الجارفة المدمّرة، قسوةَ كلامِك.

«الليلُ، وما أدراك كم هو مرهقٌ ذلك الليل، مقارَنةً بالنهار. الليل مسكون بالسُّعال، وبحشرجة مَن تموت وحيدةً وسْط أقرانٍ، يصارِعْن الوحل والكلاب والطوب والعواء. غدًا نستفيق على جثتها، فنحملها ونسير بها في الوحل. نتركها أمام الباب متدثّرة بتلك البطّانيّة، التي احتضنتْ أنفاسها الأخيرة. خفيفة وثقيلة، كظلال الليل تكون المنتقلة. خفيفة لهزالها، وثقيلة تَحملُ أوجاعًا لم يشاركها فيها أحد».

عن نصوص شارلوت دلبو، وعن مقدّمتها لكتابها «الذاكرة والأيّام»، يذكر الكاتب والصحفي فرانسوا بوت، وهو مناضل ومقاوم سابق، في مقابلة أجرَتْها معه صحيفة «لوموند دي ليفر» في ٢٠ حزيران ١٩٧٥: «لغة الكاتبة سلاحها، وقد اختارت دلبو الشِّعرَ، أكثرَ اللغات فاعليّة ـ فهي تعيدُ القارئ إلى سرّ نفسِهِ ـ وهذا السرّ على درجة عالية من الخطورة، يخشاه العدو بلا أدنى ريب».

لو كتبْتَ يا مازن، لو كتبتَ «قصيدة حبّ غريبة»، لو... لربَّما كنتَ معنا اليوم. كم من مرّة ملأَتْ صفحاتُ دلبو الهاوية. وكم من جرحٍ بَلْسَمَت. وكم من قوّة منَحْت. صفحاتٌ يحتضنها المرء كما تحتضنُ القلوبُ في سرّ نفسها ذلك الوطنَ المنشود.

نعم، دعني أُغطّكَ بهذا الغطاء الخفيف، كي تلتئم، ونَجمع شظاياك المكلومة والمدمّرة والملوثّة، وكي تعيش حياتك على نقيض ما كانَتْهُ. هذه الذاكرة سِكّين، هذه الذاكرة تَذبح. إذن، ماذا؟ بِودّي لو نسافر معك، ونمشي، وننحني، لنجمعك ونلفّك بقماش،

بعطـر الطفولـة والفـرات والصحـراء. سـنذهب إلى النبـع ونغتسـل، سـتغادر مبتسـمًا بابتسـامتك أنـت، التـي لا تشـبه غيرهـا.

ستمشي من جديدٍ سعيدًا ملتئمًا. لِمَ لا؟ لِمَ لا؟ ❖

الفصـل السـادس عشـر

أضعـتُ فهـدًا ومحمـدًا ـ ابْنَـي أخـي اللَّذَيـن اعتُقـلَا معـي ـ ، حـين نُقلـتُ إلى فـرع الجويّـة. لم نُسـجن في الزنزانـة نفسـها.

احتُجـزت مـدّة خمسـة عـشر يومًـا في الزنزانـة الأولى، ثـمّ نقلـوني إلى زنازيـن الاسـتجواب. أنـتِ تعرفـين ذلـكَ. بعـد بضعـة أشـهر، سـمعتُهم ينـادون اسـمي عـلى بـاب الزنزانـة.

حينهـا خُيّـل إليّ أنّنـي ذاهـبٌ إلى الإعـدام. «آنَ أوانُ المـوت». مَـن يسـتطيعُ تخمـين مـا يـدور في عقـل مَـن يُنـادَى بـه إلى حتفـه، ومـا يـدور في قلبِـه؟ ومَـن يسـتطيع ذلـك؟ الكلـماتُ عاجـزة. تعرفـين ذلـك. نحـاول التعبـير منـذ سـتّ سـنوات، وقـد سـئمنا الـكلام. منـذ سـتّ سـنوات عـلى بدايـة الثـورة، ونحـن نُعيـدُ القصـص ذاتهـا، ونكـرر الكلـمات.

دعينـي أسـتلْقِ. انتظـري. النَّشَـاف في رأسي، والمعـدة مربوطـة. تخشّـبْتُ. دعينـي أسـتلْقِ. انتظـري.

حسنًا...ارتحتُ. تذكّرتُ. أضحكُ. سأكمل.

نـودي اسـمي عـلى بـاب الزنزانـة. اقتـادني الحـارسُ إلى الزنزانـة

الجماعيـة، حيـث احتُجـزتُ أوّل مـرّة. سـألني المسـاجين فـور وصـولي: «مِـن أيــن أتيــتَ؟». إنّــه السـؤال البديهـي.

أخـبَرْتُ سـجينًا مِـن حَيّنـا في ديـر الـزور، فـرّ مـن الخدمـة العسـكرية في الفرقـة الرابعـة، مِـن أيـن أتيـتُ وكيـف اعتُقِلـت.

ــ هل فهد ابن أخيك؟ لقد كان هنا قبل أن يُؤخذ للاستجواب.

بعـد مـرور بضعـة أيـام، فتـحَ الحُـرَّاس البـاب، وطلبـوا منّـا الابتعـاد وإدارة وجوهنـا نحـو الحائـط. يقـفُ الوافـدونَ الجُـدد في الممـر، في صـفٍّ واحـد. يدفعهـم الحـارس دفعًـا نحـو الداخـل. لا يخاطـرُ أحـدٌ بالالتفـات حتّـى يُسْـمَعَ صـوت صَفْـق البـاب.

كانـا هنـا. فهـد ومحمـد بوجهيهـما المتورّمَـين. محمـد بلحيتـه الطويلـة وشـعره المشـعَّث، وفهـد كَوْسَـجٌ [لا شَـعْر عـلى عارضَيْـه] مثـلي! أنـا لم أَحلِـق أبـدًا، ولحيتـي خفيفـة، مثـل أبـو الجـود. بذلـك نختلـف عـن باقـي أفـراد العائلـة. لكنّـه يمتـاز بشـنبه. أُحـبُّ نعومـة ذقنـي وعـدم حاجتـي إلى الحلاقـة، وكأنّنـي شـابٌّ أبـديّ. طالـبٌ جامعـيٌّ، أو قُـلْ: طالـبٌ ثانـويّ هـرب مـن المدرسـة، وأسـتاذه يركـض خلفـه!

إذًا كانـوا هنـا. هُرعـتُ لتقبيلهـم. أجْهَـش فهـد. سـألني رئيـس الزنزانـة هـل كنـتُ أعْرفُهم.

ــ إنّهم أبناء أخي.

ــ اذهَبْ إلى المرحاض وخُذ ما تحتاج إليه من ماء.

فهـدٌ قـويّ البنْيَـة، مُقـاومٌ، لكـنّ آثـار الكُلُـوم باديـة عليـه. يـا لهـا مـن ضربـات تلـك التـي تلقَّاهـا! محمـد قـويٌّ، تَـدرّب عـلى رفـع الأثقـال، وإنْ شـاء يحملنـي بيـدٍ واحـدة. لكنَّـه أيضًـا قـد عُـذّب. مـا الـذي أُرغم

عـلى الاعـتراف بـه؟ لعلّـه أُرغـم عـلى القـول: إنّنـا وحدنـا مَـن بـدأ الثـورة، وإنّنـا وحدنـا دمَّرْنـا الاقتصـاد. مـا أحمـق أجهـزة مخابراتهـم!

أخـبَروني كيـف حاولـوا الحصـول عـلى معلومـات عنّـي، وعن أنشـطتي، وعـن الجيـش السـوري الحـر، وعـن أعمامهـم وإخـوتي أبـو الجـود وعبـد العزيـز.

«أين هم؟ ماذا يفعلون؟» سؤالان لم يكفّوا عن طرحهما.

جلسـتُ القرفصـاء في منتصـف الزنزانـة. فهـدٌ أمامـي، وأنـا خلفـه، متدانيـان. جلـس محمّـد إلى يمينـي.

ــ ضع رأسك على ركبتي.

بصـوت خفيـض أخـبرتُ فهـدًا عـن ذكرياتنـا في المزرعـة، وكيـف أنّ عائلتنـا تبحـثُ عنّـا بـلا أدنى شـكّ. الـكلّ يسـأل: أيـن هـم؟ أمعتقلـون؟ أهاربـون؟ هـل مـن خـبر عنهـم؟ تمـرّ أفـكارٌ كثـيرة في رأسي: مـاذا سـتفعل أجهـزة المخابـرات بنـا؟ هـل نمـوت هنـا؟ هـل يُطلَـق سراحنـا؟

أَنْ أُمدِّد ساقَيّ، وأنْ نتمدّد، هذا ما كنّا في أمَسّ الحاجة إليه.

لاحظـتُ أنّ رقبـاء منشـقّين تَمكّنـوا مـن إدخـال هاتـف داخـل الزنزانـة. شـاهدْتُهم بـأمّ عينـي. دنـا منّـي أحدهـم وسـألني:

ــ هل تريد هاتفًا؟

ــ بأيّ سعر؟

ــ ١٥٠.٠٠٠.

السـعر باهـظ. ولكـن، لا بـدّ مـن دفـع هـذا المبلـغ لمحاولـة التواصـل مـع الأهـل، وإبلاغهـم أنّنـا هنـا في هـذه الزنزانـة. حصلـتُ عـلى جهـاز

سامسونج صغير، من النوع الذي يُفتح بغطاء. ما زلتُ أذكر رقم عبد العزيز: ٤٤٩٠.

ــ ألو، عبد العزيز؟

ــ من معي؟

ــ أنا مازن، نحن في فرع الجويّة في مطار المزّة مع فهد ومحمد. هذا رقم السجان، أرجو أن تُرسل مَن يسلّمه ١٥٠ ألف ليرة. إنِ اتصل بك أيُّ شخص وطالبَك بمبلغ من المال، فلا تُصدّقه، ولا تَردّ عليه. لا تَردَّ إلا على مكالماتي.

ما سبب تنبيهي له؟ لأنّ أيّ شخص من الشرطة أو المخابرات قد يتّصل به من هذا الرقم ويبتزّه. فالعائلات التي تعيشُ في قلق وانتظار، مستعدة لدفع أيّ مبلغ لمعاونة المسجون، وللحصول على معلومات عن أحبّائها. كم من عائلة غُرِّر بها يا ترى؟ الوسطاء المزيفون يكذبون ويستغلون الوضع. دفعَت عائلتي الكثير إلى محتالين، بعضهم ادّعى أنّني على قيد الحياة، وبعضهم الآخر ادَّعى أنّني أُعدمْت.

لكن عبد العزيز ذكيّ. ولِكونِه مطلوبًا أرسل المبلغ عبر وسيط. مِن حقّه الظنّ أنّني أهاتفه تحت الضغط، حتّى تتمكّن المخابرات من محاصرته واعتقاله.

أضفْتُ: «معي فلان وفلان...». أبْلِغْ عائلاتهم.

ــ فهد، توجَّهْ نحو الباب.

اتصل به الحرّاس. طلبوا منه أن يستحمّ؛ ما يعني أنّه سيُزار. والد فهد ـ بواسطة رفيعة، رفيعة جدًّا ـ تَمكّن من زيارته. وهو

يـترك الزنزانـة، قلـتُ لـه:

ــ لو تطلب من والدك علبة سجائر.

أحـضرَتْ لـه عائلتـه ملابـس وسـجائر. سرق الضبّـاط مـا حـلا لهـم وتركـوا لـه الفضـلات.

حـين عـاد، أخـبرني فهـد مـا حـدث: الزيـارة جـرَت في مكتـب الضبّـاط. السـترة الدافئـة، تلـك التـي لم تـرُقْ للشـباب آلَـت إليـه، في جيبهـا دسّـت والدتـه السـجائر، وهـو يقبّلهـا لحظـة الـوداع. سـجائر مـن ماركـة «إليغانـس» الرخيصـة، تلـك التـي تصـل إلى البلـد عـن طريـق التهريـب، ويسـتهلكها رقيقـو الحـال.

مـع مسـاجين آخريـن، قصَدْنـا المراحيـض للتدخـين. أخـذتُ مَجّـة ثـمّ مرّرتُهـا عليهـم. قـال رئيـس الزنزانـة:

ابعُدوا عنّي، سأدخِّن سيجارتي وحدي.

«قالوا لي إنّنا سوف نَخرج قريبًا»، هذا ما قاله فهد.

ولكـن بعـد هـذه الزيـارة، تبدّلـت أحوالـه. عـانى مشـكلةً في عينيـه، واجتاحـتِ البثـور جسـده. مـا الـذي حـدث؟ ومـاذا يمكننـي أن أفعـل؟ كنـتُ أفكـر. لسـتُ عـلى مـا يـرام. حُـكَاك يتسـلّل إلى جلـدي. فكّـرْت. فكّـرْت. قلـتُ لنفـسي مُحـاولًا المقاومـةَ، وإيجـاد الحلـول: «أنـت قـوي».

قصدْتُ الحارس:

ــ أحتاج إلى مُضادٍّ للالتهاب. فهدٌ مريض. سأدفع لك.

أخفَـى في أوعيـة الأرز عشريـن كبسـولة حمـراء وبيضـاء، ولمّـا كنـتُ

السُّـخْرة أُحـضِرُ الطعـام أيامـذاك، أخفيـتُ الـدواء في المسـتراح، ولم أُبلّـغ رئيـسَ الزنزانـة ـ المسـجون بسـبب جُـرْم ـ ، وهـو لا علاقـة لـه بالثـورة. كان إذا حصـل عـلى دواء يعطيـه لمسـاجين منطقتـه مـن حـماة، حتـى إنْ كانـوا لا يحتاجـون إليـه بشـكلٍ مُلِـحّ.

لو أعطيتُ للطبيب السجين الأدويةَ، لوَزّعها بحسب الأولويّات.

تحسنَت صحة فهد قليلًا.

عـدتُ وهمسـتُ للحـارس: «أحتـاج إلى هاتـف، وإلى كثـير مـن الوحـدات».

فلو هاتَفَ فهدٌ عائلته، لتَحسّنَتْ نفسيّته، ولرُبَّما خرَج مِن مرضه.

ــ اذهَبْ واتصِلْ بعائلتك، واسألْهُم عن سير الأمور.

وقف قرب المرحاض، وأصدقاء لنا يراقبون الزنزانة.

ــ «مرحبًا أمي». تَحدّثَ إليها قليلًا.

ــ كيف حال أبي؟

تبدّلَـت ملامحـه، وضاعـت نظراتـه، وذهـب إلى مـكانٍ آخـر. سـألتُه: «مـاذا يحـدث يـا فهـد؟ مـاذا؟ مـا بهـم؟».

كان يبكي.

«لقد اعتقَلُوا الوالد وعبد العزيز». أخذتُ الهاتف منه:

«أمَّ فهـد، سـؤالٌ واحـد فقـط، أجيبينـي بسرعـة، وسـأغلق الخـط. كيـف أوقَفُوهـم؟».

كان فهد يبكي.

كان أخـي عبـد العزيـز نقيبًـا سـابقًا في الجيـش. خـدم في مستشـفى تشرين العسـكري. بعـد ترقيتـه إلى رتبة نقيب، اسـتقال وافتتـح عيادته، فهو طبيب أسـنان. في أثنـاء الثـورة كان يعمـل في عيـادة صديـق طبيـب، وكانـا يعالجان سرًّا أعضـاءً مـن الجيـش السـوري الحُـرّ. سـبَقَ أنْ أخبرتُـك أنّـه ـ حتّـى ولـو كنـتَ متظاهـرًا عفويًّا ـ من المسـتحيل الذهاب إلى المستشـفيات الحكوميّة. قُبـض عليـه في هذه العيـادة.

في نفـس اليـوم ،أُلقـي القبـض عـلى أبـو فهـد، وهـو مهنـدس في أحـد المقاهـي.

الفصــل السابـع عشـر

أصدقـائي في هولنــدا، متيقنّــون أنّهــم في المســتقبل ســيعودون إلى سـوريا لإعـادة إعمارهـا. لـذا، تراهـم يجتهـدون لتحسـين مهاراتهـم وتطويرهـا. حـين ألتقـي بهـم، تحلـو لي أيّامـي. أشـجّعهم عـلى أن يلتحقـوا بالجامعـات، ويثابـروا في دراسـاتهم، ويحترمـوا القوانـين، كي يفهـم القـاصي والـداني أنّنـا تركْنـا بلدنـا بحثًـا عـن الكرامـة، وأنّ ثورتنـا أخلاقيّـة قيميّـة.

هولنـدا بلـدٌ جميـل. مـا ظننـتُ أنّنـي سـأعيشُ هنـا، وهـا قـد بقيتُ في هـذه القريـة الصغيـرة هيلغـوم. كلَّ عـام نحتفـل بالمَلِك. في هـذا اليوم، يرتـدي جميـعُ السـكّان ملابـس برتقاليّـة، قطعـة برتقاليّـة واحـدة عـلى الأقـلّ. في الربيـع، عندمـا تُبَرعَـم أزهـار التُّوليـب، يُنظَّـم بضعـة أيّـام مهرجـانُ الزهـور. فتُزيّـن العربـات، وتطـوف في قريتـي وفي سـبع قُـرًى أخـرى. مشـهدٌ مبهـجٌ فعـلًا.

سـكّان هيلغـوم ٢٥ ألـف نسـمة، فيها بيـوت أرسـتقراطيّة جميلة. يسـكنها مَلّاكـو الحقـول الكبـار، والكثـير مـن المتقاعديـن. بعد السادسـة مسـاءً، ينامُ الجميـع. موظّفـو البلديّـة يحبّوننـي، وأنـا أيضًـا أُحبّهم. أهنئهم بعيـد الميلاد ورأس السـنة، حاملًا لهـم بطاقـات المعايـدة.

تعيـش إحـدى أخـواتي هنـا منـذ حـوالي خمسـة عـشر عامًـا. وصلَـتْ واسـتقرّت قبـل الثـورة بسـنوات. مُجـازة في التاريـخ. تزوّجَـت مـن سـوري ، وهـي الآن تحمـل الجنسـية الهولنديـة، ولديهـما طفـلان: صبـي عمـره ٤ سـنوات، وفتـاة عمرهـا ٩ أشـهر. ألعـب معهـما، وأقـدّم لهـما هديّـة يـوم عيـد ميلادهـما، أو أعطـي بعـض المـال لأمّهـما كي تختـار معهـما مـا يحلـو لهـما.

أمضَيـتُ مسـاء الأمـس عندهـم، وأيضًـا ليلـة رأس السـنة. شِـقَّتُهم عـلى بعـد خمـس عـشرة دقيقـة عـلى الأقـدام مـن مسـكني. لـذا، طلبـتُ هـذا البيـت بعـد إقامتـي في خمسـة مراكـز لجـوء، قبـل أن أسـتقرّ هنـا. حُـقّ لي أن أطلـب الإقامـة في أمسـتردام، لكـنّ صهـري نصحنـي بالإقامـة قربهـم ، حيـث التأقلـم مـع الحيـاة الهولنديـة أسـهل:

ــ بعـد حـين، حـين سـتعتاد الحيـاة هنـا، اذهـب للعيـش في مـكان آخـر إذا شـئت .

أُحـبُّ هـدوء الريـف، للعمـل والتفكـير والتأمّـل والشـعور بالراحـة. لكنّنـي أعـزب، وأعيـش وحـدي. أمّـا إن عشـتُ في أمسـتردام، فسـتُتاح لي فـرصٌ لِلِقـاءات متنوّعـة. معظـم أصدقـائي اللاجئـين مـن الشـباب، يحبـون قضـاء سـهراتهم معًـا؛ نلتقـي مسـاء. هـذه هـي حيـاة الريـف. الأهـمّ في هـذه القـرى البعيـدة أن تُـرزَق بجـيران غـير عُنصريِّـين، ينظـرون إليـك بصفتـك إنسـانًا مثلهـم، لا وحشًـا.

سـكَن قبـلي مُهاجـرٌ صومـالي في هـذه الشـقّة. حـين دخلْتُهـا أوَّل مـرة،

وجدتُ فيها كرسيَّيْن على الشرفة وستائر. أُخْبرتُ أنَّ وكالة اللَّاجئين بصدد تجديد المكان، ولكن بعد حين، لأنّها فضّلَت تحديث أنابيب الغاز والماء.

لِكيلا أنتظرَ طويلًا، شمّرتُ واشتريتُ طلاءً وفُرَشًا، وأنزلتُ أغاني على هاتفي، وقمت بالمهمّة وأنا أُغنّي. كنتُ سعيدًا. قبل سنوات بعيدة في الدير، طليتُ بعض جدران منزلنا.

أحْبَبتُ الرسمَ على الجدران لِخَلْق جوٍّ لطيف. منظرٌ طبيعيٌّ تراه خلفك عندما تلتقط صورة، أو خريطةٌ مثلًا. بَيْد أنّ إمكانيّاتي الماديّة لم تكن لِتَكفي هذا المشروع.

أعدْتُ طلاء كلّ شيءٍ في يوم واحد. في المساء، طَويتُ الغطاء البلاستيكي وألقيتُه في سلّة المهملات، ونمت. اقترحَتْ عليّ أختي أن أذهب وأنام في منزلها، لكنّني اعتذرت. أعارتني بطانية وفراشًا إسفنجيًّا، غفَوتُ عليه فورًا؛ أرهقني العمل.

عندما استيقظتُ كنتُ مستلقيًا بجانب الغلّاية. فتحت عينيّ وأنا أشعر بوجع عميم، وبتصَلُّب عضلاتي. ما يَحدث لي بديهيّ. فمنذ خمس سنوات لم أبذل مثل هذا المجهود. مسّدتُ نفسي فترة طويلة. يا لسعادتي، تَبيّن لي أن عضلاتي تسترجع عافيتها.

نعم، لقد أرهقني المجهود، نمتُ فجأة، وانقبضت عضلات جسدي. خمس سنوات بلا مجهودٍ بدنيٍّ يُذْكر، خمس سنوات في السجن. كم من يومٍ قضيتَه جالسًا وذراعاك حول ساقيك. حظائر الأغنام أقلّ اكتظاظًا من الزنازين.

عندما دفعني الحارس داخل الزنزانة، اختنقتُ. رائحةٌ، أين منها روائح الحظائر، تلك التي أعرف، رائحةُ عَرقٍ نفّاذة، وأوساخٍ نتِنة،

وعفَـنٍ. نحـن هنـا لنتعفّـن، ولنَفقـد قدرتنـا عـلى الإحسـاس. أجسـادٌ تتحلّـل، قَيـحٌ ثـمّ امِّحـاء.

الأجسـاد المحرومـةُ الشـمسَ والهـواء تتقشّـب. أُصبـتُ بالجـرب. رأيتُ حفـرة في قدمـي، تجويـف صغـير خدشَـتهُ أظفـاري الطويلـة القـذرة. ثـمّ تَوسَّـع الثقـب وصـار بحجـم إصبـع. فاوضـتُ وحصلـتُ عـلى أربعـة أقـراص مـن مُضـادٍّ للالتهـاب، فتحتُهـا وأفرغتُهـا فـوق جرحـي.

في إحـدى الزنزانـات، التـي كانـت سـابقًا قاعـة درس للطيّاريـن، حاولنـا في الصباحـات ممارسـة بعـض التماريـن الرياضيـة. يقـوم عـشرة منّـا في كل مـرة، وإلا فلـن نتمكـن مـن الحـراك. يحتـاج الجسـد إلى حـدٍّ أدنى مـن الحركـة ليحافـظ عـلى نفسـه مـن التشـنجات، تمديـد الجسـد ضروري وإلّا فسـيَضمر.

انظري إلى ساقي، عضلاتها معطوبة.

بعـد طـلاء الشـقة، اسـتيقظتُ فيهـا أوَّل مـرة. وبحسـب مـا أسـلفتُ، دلّكـتُ نفـسي وشـعرتُ بالارتيـاح، عـلى الرغـم مـمّا انتابنـي مـن وجـع في عضـلاتي. وضعـتُ الغلَّايـة في الكبـس. غسـلت وجهـي. خرجـت لـشراء أدواتٍ لتنظيـف المـكان.

صديقـي باسـيل، الـذي كان يعمـل معـي في شركـة شـلمبرجيه في الديـر، يسـكن عـلى بُعْـد سـاعة مـن هنـا. جـاء لمسـاعدتي عـلى شراء مـا سـوف أحتـاج إليـه مـن أدوات منزليّـة. كتبْنـا قائمـة بالأشـياء الأساسـية: الغسّـالة، وفـرن الغـاز، والثلّاجـة. نصحنـي أن أشـتريها جديـدة ومضمونـة خمـس سـنوات، فمـن يـدري؟ أمّـا الطاولـة، والكـراسي، والخزانـة الخاصّـة بالتلفزيـون، والأريكـة، وطاولـة القهـوة، فقصَدْنـا شراءهـا مـن مَتجـر للسـلع المسـتعملة.

بعد حين أكملتُ تجهيزاتي بالأطباق والمناشف، ثم أضفتُ سجّادة تحت المرتبة الإسفنجية التي أعطتني إيّاها أختي.

اكتملَت ترتيباتي، فدعَوتُ أصدقائي من مركز اللاجئين إلى قضاء يوم أو يومين عندي. حناني غامرٌ تجاههم. يعيشون الشظف، وما يُقدَّم لهم من وجبات لا يؤكل. طهوتُ لهم. لعبنا كالأطفال بورق الشدّة، وبألعاب الفيديو. أعادتنا هذه اللحظات إلى طفولتنا.

طُمأنينتي لا توصف. أخيرًا كُتِب لي أن يكون لي مكانٌ شخصيّ آوي إليه. هي شِقَّتي الأولى.

كم من محنةٍ قَطعْتُ... الحرب. السجن. ساعدني الهولنديون كثيرًا، وأعانوني كي أفهم بلدهم. فحين وصلتُ لم أكن أعرف مَنْ، وأين أنا. كان كلّ شيءٍ جديدًا.

عبْر «سكايب» أريتُ عائلتي الشقة: «انظروا». أبْدَوا رأيهم في أصغر تفصيل. ضع قطعة الأثاث هذه هناك. بدِّل هذا أو ذاك. بعد أن أصغيتُ إليهم فترة، ضجرت:

«هذا ما استطعتُه بما عندي من مال. انتهى الأمر. هذا بساطي».

شِقَّتي بحجم مطبخنا في الدير. غرفة معيشتي هنا بحجم حمَّامنا في الدير: بِدُوشِه، ودَورة مياهه، ومغطسه، وموقد التدفئة، وسخّان الماء.

منزلنا في سوريا ضخم بالفعل. طول واجهتِهِ اثنا عشر مترًا. مبنيٌّ من طين، له سقف خشبيّ على الطراز العربي. صيانته صعبة، فحين تهطل الأمطار نغرق. لمعالجة الموضوع، لجأنا إلى طلاء السطح بالقطران. أبقينا الجدران على وضعها، فهي تحمي من

الحـر صيفًـا ومِـن الـبرد شـتاءً. أحـد الأجنحـة كان يُسـتخدم أكـثر في الصيـف، والثـاني في الشـتاء.

لسـوء الحـظ، لم أحتفـظ بصـورة للبيـت. انتظـري، دعينـي أحـاول رسـمه. انظـري. إنّـه هكـذا.

هنـا المدخـل. المطبـخ مـن هـذا الجانـب، والحـمَّام والمراحيـض مـن هـذا الجانـب. هنـاك مراحيـض أخـرى. وفي الفنـاء مَصْطَبَـة مرتفعـة للجلـوس. في الصيـف، نبنـي سُرادقًـا مـن قـماش يشـبه الخيمـة، لـردّ الشـمس. فـإن انخفضـت درجـات الحـرارة ليـلًا، نُنـزل السـتائر. لعِبـتُ أحيانًـا في هـذا المـكان قـرب شـجر الليمـون، وهنـاك أشـجار أخـرى نَحـرص عـلى تشـذيبها. هـذه الباحـة عبـارة عـن حديقـة، شـاهدتُ فيهـا يَمامًـا، وقـد زرعنـا عـلى أحـد جدرانهـا أزهـارًا.

في الجهـة الأخـرى مـن الفِنـاء، بُنيَـت أربـع غـرف نـوم. هنـا غرفتـي القليلـة الترتيـب. مسـكينة والـدتي، كـم مـن سـاعة أمضَتْهـا وهـي تجمـع ملابـسي المبعـثرة في كلّ مـكان. هنـاك، غرفـة والـدي. كنّـا ننـام عـلى مراتـب إسـفنجية، نفـرش تحتهـا حُـصُرًا. في الصيـف كنـا ننقـل أسِرّتنـا البسـيطة إلى الخـارج، ثـم نجمعهـا في الصبـاح ونكدّسـها فـوق سـجّادة. وضعنـا التلفـاز عـلى طاولـة بعجـلات، نحرّكهـا كيفـما شـئنا.

نسـتقبل في صالونَـين: أحدهـما عـربي بوسـائده للجلـوس عـلى الأرض، والثـاني بأرائكـه الغربيّـة. مزيـجٌ مـن ريـف ومدينـة. اشـترَت والـدتي صندوقَـين تقليديَّـيْن لترتيـب ملابسـها فيهـما.

مـن طفولتـي حتّـى بلوغـي الثلاثـين، ظـلّ منزلنـا عـلى هـذه الحـال. بعـد وفـاة والـدَيَّ تبدّلـت الأمـور، علـمًا أنّنـا لم نُدخـل أيّ تغيـير في الجنـاح القديـم، حيـث عاشـا، وحيـث الذكريـات.

كلاهما تُوفي عام ٢٠٠٧، بفارق عشرة أيام. أصيب والدي بسكتة دماغية، بعد مكوثه في المستشفى مدّة أسبوعين. أمّي وباقي النسوة زغردن يوم عاد. كانت والدتي سعيدة ترحّب به. وبعد دقيقة، أصابتها سكتة. سيارة الإسعاف التي جلبَت والدي لم تكن قد غادرت بَعْد. فوضعها المسعفون على نقّالة، وحملوها إلى المستشفى.

في اليوم التالي، وأنا واقف أمام المبنى لكي أشتري شيئًا من بائع العَرق، كنتُ سأسكب الماء في الكوب، حين هاتفتني إحدى شقيقاتي: «احضُرْ فورًا...». توتّرتُ، فهمتُ، ورميتُ الكوب على الأرض.

أمام غرفة الوالدة، قال لي الطبيب ـ وهو صديق طفولة ـ : «كن قويًّا يا مازن». مع الليل عدنا إلى البيت. كيف أُبلّغ والدي المريض بالخبر السّيِّئ؟ وعدَني عبد العزيز بالتكفّل بالموضوع. بَيْد أنّنا لم نحتَجْ إلى إبلاغه، إذ إنّه استشعر الأمر حين غصّ المنزل بنساء العائلة، اللواتي تَنادَين وتوافَدْنَ.

سأل حينها: «ماذا يحدث؟».

ــ لقد جئن لزيارتنا. هكذا.

إنّها الثالثة فجرًا. من المستحيل أن يقتنع عاقل بهذه الزيارة.

ــ في هذه الساعة؟!

ــ يا أبي، أنت مؤمن. قال عبد العزيز.

ــ «توفّيت. أليس كذلك؟». دثّرْني.

دثّرتُه، وطلبتُ من إخوتي أن نتركه. قلتُ له وأنا أبتعد: نادِني إن

احتجتَ إلى أي شيء.

أمسكني من القميص.

ــ أوصيك أن تدفنني بجوارها.

بعد ثلاثة أيّام تُوفّي الوالد عند الساعة العاشرة صباحًا.

الحقّ أنّني لم أعش وحدي قط. فحين تُوفي والدي، عشتُ مع أختي الصغرى في الدير. عندما كنت أسافر للعمل، كانت أختي تنام في منزل أخواتنا أو إخوتنا أو يأتون للسكن معها.

الفصل الثامن عشر

عندما انتقلتُ للإقامة في هيلغوم، شعرتُ بالسعادة. هنا بيتي حيث أعيش استقلاليّتي. أخيرًا، غادرتُ مخيم اللجوء، حيث اقتسمتُ غرفتي مع خمسة آخرين.

الهدوء يساعدني كي أُبحرَ بعيدًا في أفكاري، وكي لا أبقى أَسيرَ الثورة والسجن. أُحبُّ وحدتي، أصفو، وأتذكَّر ما حدث لي، أُراجع ما حدث لنا.

اشتريتُ جهازَ تلفزيون. سدّدَتِ الدولة مشترياتي الأولى بموجب فواتير. ثم اشتريتُ من سوق العتيق سريرًا وخزانة ملابس. أخذتُ قياسات الغرفة بشكل دقيق، إذ يختلف الوضع هنا عن مساحات الغرف السوريّة الواسعة كملاعب كرة القدم.

غرفتي هنا لا أنام فيها. لم أنم فيها أبدًا. هي أشبَهُ بزنزانة ذات

سقف منخفض، ونافذة لا تكاد دَرْفتُها تَنفتِح لِيَدخلها بعض الهواء. هذه الغرفة... باب الزنزانة... النافذة التي تُذكِّر بفتحة الزنزانة.

بسرعة أعددتُ سريرًا للأصدقاء. جاء عمر وعاصم أيضًا، وجابر وزوجته نور. حين اجتمعوا كلّهم لقضاء عطلة نهاية العام، أضفتُ مراتب إسفنجية في غرفة المعيشة.

أُفكّر في تحويل غرفة النوم إلى مكتب حين تتحسّن أوضاعي الماديّة. سأشتري طاولة وجهاز كمبيوتر، وأنقلُ السرير إلى السطح، وأطلي سقف الغرفة باللون الأسود، وأزيِّنُه بالنجوم ليشبه سماء سوريا. على الجدران، سأرسم أشياء جميلة، وكلّ ما يخطر ببالي.

مذ سكنتُ في هذه الشقّة، أنام في غرفة الجلوس. أحتاج إلى صوت، إلى ثرثرات التلفاز، كي أغرق مُعْيًى في عتم الليل.

لو أستطيع أن أُرغم ساقيَّ على التمدّد.

بعد كلّ ما حدث ويَحدث من موت وجوع وتعذيب، أشعُر بالخجل إن متّعَني شرب الخمر. أخجل من الصور التي ينشرها بعضهم عن حياتهم الاجتماعيّة البَطِرة عبر الفيسبوك، في حين أنّ السجناء في عتمة زنازينهم يتضورون جوعًا.

في المساء، أنشرُ شموعًا معطّرة في كلّ أرجاء البيت، على الطاولة، والأثاث. أطفئ الأضواء، وأضيء الشموع، وأشعل التلفاز. هذا جوّي. هذه الرومانسيّة. أليس كذلك؟

حول النوافذ علّقتُ أكاليل فيها أضواء صغيرة. أحبُّ هذه الأضواء. أضواء تَسردُ ألف قصّة وقصّة. علّقتُها فترة ثمّ قلّ صبري، لأنّها تحتاجُ إلى عناية دائمة. فتخلّيتُ عنها، ودسَسْتُها في زاوية مهملة.

زيـادةً عـلى ذلـك، أُحـبّ موسـيقى الشـجن، وأصغـي إلى كاظـم السـاهر وهـو يقـول:

يا دنيا انْتِي الْحَرَمْتِيني مِنَ اهْلِي

سِكنْتِ الغُرْب مِن غَصْبَنْ عليَّا

أَدِقْ يا بابْ واسألْ مَنْ عَلِيكُم

ضعَفْ صَبْرِي وزِماني خانْ بِيَّا

[...]

شَوَصْفِلْكُمْ غُرْبْتِي... شَوَصْفِلْكُمْ غُرْبْتِي

صَدْرِي مَخْنُوقْ... صُوتِي مَبْحُوحْ

دفَنْتُونِي بِغُرْب وِتْعَالِجِ الرُّوحْ

غَريبْ... غَريب وكُلْ غَريبْ يِتْذَكَّرَ اهْلَه.

هكـذا أرحـلُ. أُغـادرُ إلى عالمـي. هـل أُطفـئ الضـوء أم أُشـعله؟ مـا هَـمّ: أُطفـئ؟ أُشـعل؟ الشـموع أفضـل. هـي رحمـةٌ تعينـني عـلى تنقيـة دماغـي.

أحتفـظُ إلى اليـوم بكنـزة، حمَلْتُهـا معـي بوصفهـا ذِكْـرَى لطيفـة مـن سـوريا. هنـا عنـدي صابـونُ غـارٍ سـوري مـن حلـب، ومـن ديـر الـزور. هـذه اللوحـة مـن منزلنـا، كانـت معلّقـة في غرفتـي، أرسـلَتْها إليَّ عائلتـي، وحمَلَهـا لاجـئ مـن تركيـا. أول أمـس، نـشرتُ صـورًا لمنزلنـا المدمَّـر عـبر الفيسـبوك، أرسَـلها إليَّ صديـق، بعـد أن دخلَـتِ الشرطـة، وقطعَـتِ الأسـلاك الكهربائيـة لسرقتهـا.

كم أشتاق إلى عائلتي في سوريا. كم أفتقِدُ عائلتي.

والله، تعِبْتُ. والله تعِبْت.

أُقسم أنّني متعب، أنا مُتعب جدًّا. أحمِلُ جبَلًا على رأسي.

الـكلّ يَطعنـك، الـكلّ يطعننـا. يـا أمـي، سـاعديني. أمـي، أنـا موجـوع، موجـوع. أمـي، أمّـي، أمّـي.

يـا إلهـي. رأسي. هـذه الأفـكار التـي تجتـاح رأسي، في كلّ مسـاحةٍ مـن رأسي.

كما تعلمين، تعَبٌ، تعَبٌ، تعب.

صغيرًا كانت أمّي تُداعب شعر رأسي. فأهدأ.

∴ أجلسُ هناك. هناك. نعم، هناك.

تَخشّـبَ جسـدُك. مـا الـذي بقـي منـك؟ مـا الـذي بقـي؟ لـو نبُـثّ فيـه الحنـان والـدفء والحيـاة. لـو نُـوَرّد خدَّيـك، وننفـخ فيهـما ونضمّرهما، كي تتكـوّرا وتمتلئـا مـن جديـد.

دارِ نفْسَـك. ألَا تـزال تَحتفـظ ببعـض الأسرار؟ احتفِـظْ بهـا، واحْمِهـا. لقـد بلـغ بَوحُـك وتَعرِّيـك أقصـاهُ. صِرتَ سِرّك، صِرتَ في حفـرة وجـعٍ نَهِـمٍ يلتهمـك.

جـدران الزنازيـن، والوثائـق المرعبـة الصامتـة، تَعـرف الكثـير. فلـماذا لا تَـترك لهـا الـكلام أيضًـا؟ أفليـس الصمـتُ حيـاة؟ أفليـس الصمـتُ امـرأة؟

يـروي المناضـل يُـورغ سـامبران في كتابـه «الكتابـة أو الحيـاة»، عـن

تجربتـه في معتقـلِ بوخنفالـد، كيـف أنّ امـرأة أعانتـه عـلى العـودة إلى الحيـاة: «لقـد كانـت لي الحيـاة [...] ولقـد أردتُ الانخـراط بـكلّي في هـذه الحيـاة. مـن أجـلي ومعـي أعـادت ابتـكار وظائـف جسـد عـاد مـن التعذيـب والمـوت، فردّتْـهُ ببذلهـا إلى اقتصـاد الحيـاة، إلى بـذخ الحـبّ..». بـذْخُ الحـبّ ناقـصٌ بالطبـع، وغـير كافٍ، بَيْـد أنّـه ـ إنْ وُجـد ـ لا بـأس بـه. ∴

لقـد اسـترحْتُ، اسـترَحْت. لا بـأس عـليّ. أضـع لفافـة قـماش حـول رأسي، فأهــدأ.

هـدوء شـقّتي ممتـع، علـمًا أنّ الضوضـاء تَـوأم الحيـاة. في سـوريا، نشـأنا عـلى الضجيـج. هنـا، لا أخـرج إلا لقضـاء عمـل محـدّد، التسـوّق مثـلًا. معظـمَ الوقـت أنـا في البيـت، وعـلى تَواصُـل دائـم مـع أهـل الداخـل. مـذ عـدتُ مـن الولايـات المتحـدة، حيـث أدليـتُ بشـهادتي مــدة شــهر، زادت بَيتوتيّتــي. أُمــضي ســاعاتٍ مفكّــرًا ومســتمعًا إلى موسـيقات هادئـة. أدليـتُ بشـهادتي منـذ أربـع سـنوات عبثًـا. لعلّهـم لا يدركـون فحـوى كلامـي.

لـو أعـود إلى بلـدي. أحـترمُ الغـرب لأنّـه يحـترم شـعبه، ولكنّـي لا أحترمــه، لأنّــه لا يحــترم شــعبي.

لقـد خاننـا الغربيـون، وصمتـوا عـن جرائـم بشـار. لقـد تعرّضنـا للأذى. لقــد آذَونا.

∴ شـقيقك أبـو الجـود عـبّر عـن حزنِـهِ وخيبـة أملـه مـن الغـرب، في الرسـالة التـي كتبهـا لي، موافقًـا عـلى أن أصـدر هـذا الكتـاب الـذي كنّـا

ننـوي ـ أنـتَ وأنـا ـ كتابتـه معًـا، قـال:

«لسـنا مجموعـة مـن البُلَهـاء. لم يُقـدّروا وحشـيَّة النظـام وتآمـره وسـيطرته عـلى البـلاد أكـثر مـن نصـف قـرن. لكنّنـا صدّقْنـا العـالم المتحـضر، ومـا بـشّر بـه مـن قيـم إنسـانية: قيـم حقـوق الإنسـان، والمسـاواة، والعدالـة، ودعـم الديمقراطيـة. أرَدْنـا أن نتحـرّر مـن هـذا النظـام الشـمولي والفـاشي، لنبنـي وطنًا تسُـودُهُ قيـمُ الحريـة والمواطنة والقانـون، وطنًـا يحـترم كرامـة مواطنيـه، ويحافـظ عـلى مقدّراتهـم [...] لقـد اكتشـفنا أنّ هـذه القيـم التـي يتباهـى بهـا الغـرب تَزْيِينيّـةٌ ليـس إلّا. تُسـتخدم بحسـب الحاجـة، ويَعتبرهـا مفصّلـةً عـلى مقاسـات المجتمعـات الغربيـة حـصًرا. أمّـا حـين تتعـارض هـذه القيـم مـع مصالحـه الاقتصاديـة أو السياسـية، فـلا مانـع لديـه مـن دعـم الطغـاة أو الأنظمـة الهمجيـة».

أبو الجود يَعرف أيضًا ثمن التضحيات:

«نحـن شـهود عـلى الكارثـة. كثـيرون اضطُـرُّوا إلى البقـاء في جحورهـم، لتجنُّـب الاحتـكاك بقـوّات الأمـن والشَّـبِّيحة. فـأيّ مشـكلة معهـم، تُـؤَدِّ إلى فتـح أبـواب جهنـم، وإعـادة فتـح ملفاتنـا المكدّسـة في الأفـرع الأمنيـة.

أردنـا أن نتجنبهـم، ليـس خوفًـا عـلى حياتنـا التـي فقَـدَت معناهـا اليـوم، ولكـن دفاعًـا عـن أطفالنـا وذريتنـا مـن هـذا الرعـب الـذي يقصـم ظهورنـا. يَحلـم الآبـاء في كلّ أنحـاء العـالم بـأن يـرَوا أبناءهـم بالقـرب منهـم؛ أمّـا نحـن ـ السـوريّين ـ فـلا تطمـئن قلوبنـا إلا عندمـا نـرى أطفالنـا قـد فـرّوا مـن هـذا الجحيـم». ❖

الفصل التاسع عشر

كان الضبّاطُ الثمانية مسجونين منذ عدّة شهور، عندما نُقلتُ إلى زنزانتهم. انشقُّوا، وبعد حين قُبض عليهم. قيل لهم ـ كما قيل وأُشيع ـ : إنّ المتظاهرين إرهابيون. لكنّهم سألوا الناس وأهاليهم، فأُخبِروا أنّ المتظاهرين ناسٌ عاديون.

أعلى الضبّاط رتبةً في الجيش علويّون، مثل بشار. تجدُ مسيحيين أيضًا، وقلّة من السُّنَّة. فهم في الغالب من الرتب الدنيا. هذه التركيبة تعني أنّ أيّ انقلاب شِبه مستحيل.

صرتُ أراقبهم، فلستُ بعيدًا عنهم. يحتلّون جزءًا من الزنزانة، ويتمتعون بسبب رتبهم ببعض الامتيازات. يُسمح لهم مثلًا بالاستلقاء؛ أمّا نحن فمتكوّرون على أنفسنا، نكادُ نَتْلف.

يخضع السجين لنظامٍ صارمٍ. ولكوني أرِقًّا، أُمضي وقتي في مراقبتهم، وهم يتهامسون ويراقبون الباب. لا بدّ أنّهم يَعرفون بالتحديد أين نحن في هذا المطار، مطار المزّة العسكري.

في بحرِ النهار، أُتابعُ أحاديثهم إلى مَن حالفَه «الحظ» من المساجين، وإلى مَن «كُتِب» له مَوقعٌ بِجوار الباب. يحاولون التفاوض معهم، كي يتنازلوا لهم عن هذا «المكسب»، علمًا أن مواقعنا يحدّدها الحارسُ، أو رئيس الزنزانة المُخوَّل تغيير أماكننا. فالمَرضى وكبار السن، يُسمحُ لهم بالمَوقع قرب الباب لاستنشاق مزيد من الهواء. مَوقعهم داخل الزنزانة «مُريحٌ» نوعًا ما، فما سبب مطالبتهم بنقلهم إلى جوار الباب؟

إنّهم حتمًا يكذبون. بنباهتي فهمتُ مُخطّطهم. يريدون الهروب. ظنّوا أنّ اعتقالهم لن يدوم، لكنّهم هنا منذ أشهر، ولا بدّ من الفرار. إنْ نُقلوا إلى جوار الباب، يُمْكنهم القبض على السجان عندما يفتح القفل، ويسرقون مفاتيحه، ويدفعونه إلى المرحاض. بلا جلبة، سيتوجّهون إلى مكتب الرقيب، ويَستولون على بنادق الكلاشينكوف المخزَّنة في مكتبه، ويهدّدونه، ويجبرونهم على دخول الزنزانة. عنصر المفاجأة من قواعد الحرب، وهكذا لن يدرك الرقباء إلا وقد بَغتَهُم ما يَحدث لهم.

هنا سيَخرج الفارّون إلى جهة اليسار، ويهربون باتّجاه داريَّا. مطارُ المزّة غير مُسيّج، تُحيط به مكعّبات إسمنتيّة. أمّا زنزانتنا، فبعيدة نسبيًّا عن وسطه. فإن تَمكّنوا من العبور إلى الجانب الآخر، فسيَصِلون إلى منطقة يسيطر عليها الجيش السوري الحر.

سألني أحد الضبّاط، واسمه أبو أحمد:

ــ لو استطعتَ الهروب الآن، فهل تهرب؟

ــ نعم.

ــ حتّى لو أخفقَتْ خطّتُنا ومُتْنا؟

ــ إذا مُتُّ، تنتهي حياتي وأرتاح من التعذيب والسَّجّانين. مستعدٌّ لقتال مئة شخص. سأقاتل. أهرُب أو أمُوت.

أريد الخروج من هنا. هنا نموت. يتفنّنون في قتلنا. الموت هنا. نجاور الموت كلّ يوم. جثثٌ. كلّ يوم نحمل جثّة جديدة.

لم تنجح خطتهم، علمًا أنّهم تَمكّنوا من أخذ موقع قرب الباب. فلو حرَسَ البابَ حارسان عوضًا عن ثلاثة، لكانوا سيطبّقون ما

رسموا. لكنّ الحراسة ظلّت مشدّدة، وجرى نقلهم إلى سجن آخر. حين غادروا فتَرَت همّتنا. لسنا في شجاعتهم لتنفيذ الخطّة. أحدُ المساجين فتَنَ علينا، والخائن ما زال بيننا.

«يقف» قلبي كلما فُتح الباب: «جاء دوري. سيأخذونني». لقتلِ الوقت، كنتُ أُدردش مع فهد بصوت خفيض. فُتح الباب: «جاء دوري. سيأخذونني».

مرّت أيامٌ ولم يَحدث شيء. لكنّني لم أكن مطمئنًّا.

شُنقَ الضبّاط. سمعتُ الخبرَ بعد أشهرٍ من مغادرتي السجن. كتبتُ على صفحتي الفيسبوكيّة أسماء بعضٍ من شاركتهم في الزنزانة. اتصلَتْ بي ابنة أحد الضبّاط الثمانية. أُعدم والدها، وطلب منها النظامُ الحضورَ لاستلام بطاقة هويّته، لكنّها لم تُبلَّغ بأي تفصيل. لا ريب أنّهم ـ وكثيرون غيرهم حتّى من مُداني المحاكم المدنيّة ـ شُنقوا في سجن صِيدنايا العسكري الرهيب.

كنتُ يافعًا عام ١٩٩٢. حضَرتُ فجرًا عند الرابعة صباحًا في ساحة دير الزور حُكْمَ إعدامٍ. في الواقع، لم أشاهِد عملية الإعدام، ولكنّي رأيت الرجل المشنوق صباح اليوم التالي. كان اسمه حمرون، ترك الجيش، ويُزعَم أنّه اغتال ضابطًا في النظام. ظل معلقًا حتّى الساعة الحادية عشرة صباحًا، والثلج يتساقط. عرضوا عمْدًا جثته أمام الناس، الناس الذين يعارضون العنف. أشعُرُ إلى اليوم بالخوف الذي اعترى جسدي المراهق، حين رأيتُ جسده يتأرجح معلّقًا برافعة البناء.

يَعرفُ الجميع أنّ حمرون مختلٌّ عقليًّا، وأنّ النظام لا يعاقبه وحده، بل كي نَعتبر جميعًا بأنه: «لا خروج عن خطّ النظام».

الفصـل العشـرون

«انْـسَ اسْـمَك. أنـتَ الرقـم ١٨٥٨»، هـذا مـا قالـه لي الحـارس قبـل أن يُرسـلني إلى المستشـفى. كنـتُ أتبَـوَّل دمًـا. أوجـاعٌ مبرّحـة في الكِلْيـة تمنعنـي مـن الوقـوف.

في المسـاء، يمـرُّ المقـدَّم ـ رتبتـه أعـلى مـن رتبـة السَّـجَّان طبعًـا ـ ويسـألُنا صوريًّـا: مـاذا ينقصكـم؟ لِنُسـلّمْ بأنّنـا أخبرنـاه عـن حاجاتنـا، فهـو لـن يهتـمَّ بهـا. ثـم إنّ الحـرّاس قـد يَضرِبـون طالـب الـدواء هـذا. أحيانًـا يُنقـلُ معتقَـلٌ مريـض إلى المستشـفى. يُخـبِرُ مَـن عـاش هـذه التجربـة أنّ الممرِّضـين يَضربـون المـرْضَى، وأنَّ الأطبـاء لا يَرحمـون. لم أرغـب في تصديـق هـذه القصـص.

قلتُ للمقدَّم ذاتَ مساء: «أتبَوَّل دمًا. أنا مَوجوع».

في صبـاح اليـوم التـالي اتصلـوا بي. كنـتُ عاريًـا إلّا مـن سروالي الداخـلي، فأعطَـوني بنطـالًا ملطخًـا بالدم. لبسـتُه وغادرْنا بالسـيارة إلى مستشـفى المـزّة العسـكري، رقـم ٦٠١. كنّـا في كانـون الثاني أو شـباط ٢٠١٣، وكنتُ معصـوب العينـين. وصلـتُ إلى المستشـفى، وعندمـا دخلـتُ المبنـى ضرَبنـي ضبّـاط المستشـفى بنعالهـم. أخـذوني إلى الطابـق السـفلي، وأزالـوا العُصْبَـةَ عـن عينـيّ، ثـم قـادوني عـبر الممـرّات إلى غرفـة فيهـا حـوالي عـشرة أسِرّة، مـع مريضَـيْن عـلى الأقـل عـلى كلّ سريـر، وأيـدي المَـرْضَى وأقدامهـم مقيـدة بالسلاسـل، أو مربوطـة بأسـلاك بلاسـتيكية.

سألني ممرض:

ــ هل أنت ٨٥٨١؟

ـــ نعم.

ـــ مُدَّ ذراعك. لا أرى عروقك. فكيف تريدني أن أعطيك المَصْل؟

منذ الصغر وعروقي شفّافةٌ، بالكاد تُرى. أدخَلَ الإبرة بشكلٍ عشوائيّ، فنزفَت وأخذتُ أصرخ، فهدّدني بالضرب.

ليلًا دخل الغرفة رجل مخمور، وهو يصرخ.

ـــ مَن يريد دواءه؟

كنّا في المستشفى للعلاج، أقتسِمُ السرير مع رَجُل السُّخْرة الذي همس لي:

ـــ لا تَطلبْ شيئًا، لا تقُل شيئًا، لا تَرفع يدك.

تذكّرتُ ما سمِعتُه في زنزانة المطار. بدأتُ أفهم، وأُصدّقهم.

همس أحد المرضى: «أريد دواءً». أمسَكه الرجل المخمور وانهال عليه بالضرب. شاهدتُ فظائع مِن قَبْل، لكنّها لا تُقارَن بهذا المشهد. يا ابن الكلب، ملعون من أرسَلك إلى هنا. صرخ الرجل:

ـــ أنا عزرائيل، ملاك الموت. حكمْتُ عليك بالموت.

ضرَبه، وضربه.

ـ مهمّتي القبض على أرواح مَن وصل إلى نهاية المطاف... وضرَبَه.

أنزَلَ السُّخْرة الجثّةَ عن السرير، وجرْجَرَها نحو المرحاض.

عندما ذهبتُ إلى الحمَّام، رأيتُ ثلاثَ جثث خلف الباب، لاحظتُ تَبدُّل لونهم، لعلّهم قضَوا قبل ساعات. أغلَقْتُ هذا الباب، وفتَحتُ باب مرحاض آخر، فرأيتُ جثتَين أُخرَيَين، أُرغمْتُ على

التبـوّل عليهـما.

شرح لي السُّخْرةُ أنّ الحرّاس يَنقلون الجثث كل يومين أو ثلاثة.

الرائحة رائحةُ جثثٍ تتحلّل.

لم أسـتطع البقـاء في هـذا المسـلخ، فتظاهـرتُ بالشـفاء. وبعـد أربعـة أيـام، توسّـلتُ إلى الطبيـب أن يعيـدني إلى الزنزانـة.

ــ أنتَ لم تُشْفَ.

ــ نعم، أنا أفْضَل.

في اليـوم التـالي، أعادتنـي سـيارة، وأنـا مقيّـدٌ، إلى فـرع الجَوِّيّـة. ضربني الحـرّاس في طريـق العودة.

ــ ابن الكلب، ماذا؟ ألم تَمُتْ بعْدُ؟ ألم يقتلوك هناك؟

∴ لا شـكّ في أنّ الأطبـاء يتحمّلـون مسـؤولية جسـيمة عـن هرَمِيّـة آلـة المـوت الأسـديّة، حيـث كتَبُـوا بتواطُئِهـم بعـض أحلـك صفحـات التاريـخ السـوري. تَصرُّفُهـم يشـبه مـا حـدث مـع نُظَـراء لهـم في ألمانيـا النازيــة، حيــث كان اليهــود يُعتــبرون طفيليــات، مــن المستحسَــن القضـاء عليهـم.

لم يَـترك النظـامُ السـوري شـنيعة لم يرتكبهـا: نـادى بتحسـين النسـل، واقتصـد في عـلاج المعتقَلـين، عَـذّب نـزلاء المشـافي، وزيّـف المـوت، وأتلـف الأدلّـة، واسـتخدمَ النظـامَ الصِّحـيَّ لإبـادة المعارضـين، الذيـن اعتُـبروا تهديـدًا وجوديًّـا.

نـشَرَت أنصـار شـحّود، الباحثـة الشـابة في مركـز دراسـات المحرقـة

والإبادة الجماعية في جامعة أمستردام، أطروحتها عام ٢٠٢١ حول العنف الطبي في سوريا. عامان من البحث، اضطُرَّت خلالهما إلى تزييف هويّتها، مدّعيَةً أنّها منفيّة مؤيِّدة لنظام الأسد على شبكات التواصل الاجتماعي، كي تتصل بمؤيِّدي النظام. تَعترف بأنّها اختارت «منهجيّة مراوَغة»، باعتبارها الأسلوب الملتوي الوحيد الممكن اتّباعه، بسبب ما يخضع له المجتمع من مراقبة. تقول في أطروحتها: «إنَّ العاملين في المهن الصحيّة هم جيش النظام الثاني؛ أمّا المستشفيات فخَطٌّ مُواجهتِه».

خضع الأطبّاءُ في عهدَي حافظ وابنه بشّار لسياسةٍ قوامها الابتزاز. فلا مِنَح دراسية ولا وظائف، إنْ لم يُشهروا ولاءهم المطلق لحزب البعث الحاكم. وفي القَسَم الأخلاقي المعروف، صار المتخرّجون مُرغَمِين على أداء التحيّة الحزبيّة؛ ما حَوَّل الأسدَيْن: حزبَ البعث، والقوميَّ العربي الاشتراكي، إلى حزبين فاشيّين يمجّدان «أبو الوطن».

لتعزيز ولاء الأطباء للسلطة، ولِبَثِّ الخوف في جميع القلوب، راجت نظريات «المؤامرة»، و«الأعداء»، و«أسطورة الوحدة».

هكذا، عندما اندلعتِ المظاهرات، وبسبب كلّ ما بُثَّ من رُعبٍ، صدّق الكثيرون سرديّات بشّار الأسد. وبعد خمسة عشر يومًا من بدء الثورة في ٣٠ آذار ٢٠١١، وقَفَ وتَحدَّث أمام البرلمان مُعلنًا أنّ البلاد ضحيةُ «مؤامرة». صفّق المجلسُ النيابي لطبيب العيون، الذي ورث الرئاسة عن الده بموجب تعديلٍ دستوريّ. بِبَذْلته الداكنة وربطة عنقه، تابع قائلًا: «المؤامرات كالجراثيم، تتكاثرُ في كلِّ لحظةٍ وكلِّ مكان، لا يمكن إبادتها، وإنّما يمكن العمل على تقوية المناعة في أجسادنا». في الثمانينيات، وصَف حافظ الأسد جماعة الإخوان المسلمين بـ«الحشرات». مذ بدأ القمعُ الدموي عام ٢٠١١، وُضعتِ المستشفيات ـ العسكرية والمدنية ـ تحت مراقبة أجهزة المخابرات،

وافتُتحتْ لهم فيها مكاتب تُراقب الخارج والداخل. فحين يُقبَض على المتظاهرين المصابين يُنقلون إلى هناك. انتشر خبر هذه المكاتب الأمنيّة، وصار الشباب يُنبّه بعضُهم بعضًا: «لا تُفكّر في الذهاب إلى أيّ مشفى إنْ تعرَّضْتَ لإطلاق نار».

كلُّ مَن عالجَ المتظاهرين مِن أطبّاء اعتُبر خائنًا. ممارستُهم لواجبهم باتت تُعرّض حياتهم للخطر. وقد أُنشِئت بالسرّ مراكزُ إغاثة في الأقبية، أو غُرفِ المعيشة أو المطابخ، قبل أن يقومَ نظامُ مستشفياتٍ مُوازٍ في مناطق سيطرة المعارضة. بعد حين، وبشكلٍ مُمَنهج، اجتهد النظام السوريّ وحليفه الروسيّ في قصف المراكز الطبيّة البديلة.

نُقِل مازن إلى مستشفى يوسف العظمة العسكري، المعروف أيضًا باسْم «مستشفى ١٠٦». تقول أنصار شحّود: «إنّه معسكر مَوت، يُرسَل إليه المعتقَلون المرضى». يقع في منطقة المزّة. أوّلُ مَبانِيه شُيّد أيّام الانتداب الفرنسي على الموقع «٣٣ °٣٠ '٤٣» شمالًا، و«٣٦ °١٥ '١٤» شرقًا.

تقع مَدرسة ليسِّيه دمشق الفرنسية بمحاذاتِه، على مَبْعَدةٍ مِن وسْط العاصمة، وعلى مسافة قريبة نوعًا ما من المطار العسكري بزنازينه المكتظة، ومن شارع ٦ أيّار المعروف بفروعه الأمنيّة، حيث يتكدّس سجناءُ ومساجين مجهولو المصير.

يَستقبل مُجمَّعُ المستشفى بمبانيه القديمة والجديدة، بدءًا من أسماء [زوجة الرئيس] وبشّار الأسد، إلى الجنود والمواطنين العاديين. أمّا المعتقَلون المرضى، فلهم جناحٌ خاصٌّ يجري فيه إخفاؤهم وضرْبُهم و«علاجهم»، جوار جثث السجناء الذين يجري تصويرهم للأرشيف العسكري السري، في مستودع مَركبات عسكريّة.

عند وصولهم إلى المستشفى يُفرَز السجناء. فلِكلّ فرعٍ من أفرُع المخابرات غُرَفٌ خاصّة به. يزور الطبيب المرضى مرّة في الأسبوع، ويقوم بتقييم أوضاعهم: «الميؤوس منهم والعصاة مَصيرهم الموت»، بحسب ما كتبَتِ الباحثة.

إلى جنوب المباني، تحت المَرائب التي تُركن فيها مَركبات الجيش، تُلْقي أجهزةُ المخابرات كلّ صباح جثثًا جديدة. الجثث بلا أسماء، كُتِبَ على جلدها مباشرة أو على شريط لاصق فوقها، بخَطٍّ سميك، رقمُ صاحبها، ثم يجري تصويرُها أكثر من صورة.

نجح مُنشقٌّ اسمُه المستعار «قيصر»، عام ٢٠١٣، في سرقة ٧٢ ألف صورة وتهريبها. هي اليوم دليلٌ دامغٌ على الجرائم التي ارتكبها ـ ويرتكبها ـ النظام.

لِنَضعْ جانبًا عدد الصور، ولْنتساءل عن دور الأطبّاء ـ أطبّاء النظام ـ مُزوّري الموت. قبْل نقلِ الجثث إلى المقابر الجماعية، يُصدر أطبّاء شرعيّون شهادات مزوّرة تَشرح أسباب الوفاة، جاء فيها مثلًا: «سكتة قلبية»، أو «ضِيق في التنفّس». تَكشف الصور ارتكابات الطواقم الطبيّة، وغياب الرعاية، عِلمًا أنّ أغلب السجناء قضَوا لا بسبب التعذيب والضرب، بل جوعًا واستهتارًا، وعدمَ مُبالاةٍ بأمراضهم.

خلال محاكمة اثنين من أعضاء النظام بتهمة ارتكاب جرائم ضد الإنسانية، وهي المحاكمة الأولى من نوعها في ألمانيا، بين نيسان ٢٠٢٠ وكانون ٢٠٢٠، حلّل فريق طبّ شرعيّ تابِعٌ للأمم المتحدة «ملَفَّ قيصر». دقّق البروفيسور ماركوس روتشيلد أكثر من عامين في الصور الـ٨٣٩,٦٢، واحدةً تلو الأخرى، وفي الجثث الـ٢١٨,٦، لمحاولة تحديد الأسباب الطبيّة ـ لا الدوافع السياسيّة ـ

لوفـاة هـؤلاء المعتقلـين.

في تشريـن الثـاني ٢٠٢٠، خـلال جلسـات الاسـتماع في محكمـة كوبلنـز، أفـاد البروفيسـور روتشـيلد بـأنّ معظـم السـجناء المتوَفَّيْنَ كانـوا عُـراة، أو يرتـدون ملابـس داخليـة، وأنّ ثلـث الجثـث بالغـة الهـزال مـن قلّـة التغذيـة، وأكـثر مـن نصفهـا ظهَـر عليهـا آثـار عنـف وحـشي. فبيّنَـت الصـور إصابـة أغلبهـم بمـا يسـمّى بـ«مـرض الهائـم»، حيـث تتبـدّل سـماكة الجلـد ولونـه، فيضحـى داكنًـا نتيجـة لدغـات القمـل والبراغيـث.

اعـترف البروفيسـور ماركـوس روتشـيلد، وهـو يـشرح مـا تَوصّـل إليـه أمـام قضـاة محكمـة كوبلنـز، بأنّـه وزميلتـه أعـادا مـرات كثـيرة تحليـل مجموعـة مـن الصـور بسـبب تشـابهها، مُشـكِّكَيْن في أنفسـهما، ومُعيـدَي الكـرّة. نعـم، الشِّـبْه كبـيرٌ بـين الصـور. فأصحـاب الجثـث ضُربـوا وجُوِّعـوا، ذلـك لأنّ «طريقـة منهجيّـة» تُتَّبـع في مراكـز المخابـرات.

في ٠٢ آب ٢٠١٧، اعـترف بشـار الأسـد ـ في خطـابٍ ألقـاه ـ بـأنّ البـلاد قـد فقـدت شـبابها وبنْيَتَهـا التحتيـة، «لكنّهـا اكتسـبَت مجتمعًـا صحِّيًّـا متجانسًـا [...] وهـذا التجانـس هـو أسـاس الوحـدة الوطنيـة». ❖

الفصـل الحادي والعشرون

أحـاول ترتيـب الأمـور في رأسي. أُرتّـب، فيعترضنـي شَرْخٌ في الوسـط. أحـاول ربـط الأمـور، ولا أنجـح دومًـا، فيخـرج عقـلي عـن الخدمـة. أشـعُر بـألمٍ في الـرأس. أَعصِبـه، نعـم. الأمـور متّصلـة، وجانـب دماغـي

الأيسر هو السجن. حياتي في السجن، وقد تَعطّل جزء من عقلي وأنا هناك. لم يبق شيء. السجن جريمة، وقتل، وصناعة إرهاب. رأيتُ سجناء يموتون، ورأيت كيف يدفعنا النظام إلى الجنون. خيرة الناس الأصحّاء يُزَجّ بهم في هذه المطامير، ويُدفعون دفعًا إلى الجنون، وإلى غسل عميق للدماغ، وإلى حشْوِنا بأفكار ضدّ الغرب. بشّار هو مدير مصنع الإرهاب، ومُحترفه.

في أفرع المخابرات، يُكدَّسُ المعتقلون في مساحات ضيّقة. أين مِنّا الدواب؟ عراة، نَتِنون. وعِوضًا عن الطعام، يقترحون علينا قراءة القرآن.

لا. لِأُخبركِ: يتعرّض السجين في هذه الأفرع الأمنيّة لإهانات واستفزازات جارحة.
السجين لا شيء. سألتُ نفسي: لماذا يَضْربُ ويَقتلُ السوريُّ سوريًّا بهذا الأسلوب؟

بعدها، يجري نقلك إلى سجنٍ مدني (مثل عدرا)، أو سجنٍ عسكري (مثل صِيدنايا). في هذه السجون، تُخصّصُ أجنحةٌ للجهاديِّين. ظروفهم بشكلٍ عام أفضلُ من ظروفنا. طعامٌ كافٍ، ورياضة، ولياقة بدنية. رَفاه! على نقيض ما كنّا فيه. وبعد ذلك في عام ٢٠١١، خَلَّى النظام سبيلهم لتلطيخ ثورتنا. لِنَعُدْ إلى البداية. بدأنا نتظاهر، ونطالبُ بحقوقٍ حُرِمْنا إيَّاها. نحن ـ سكان دير الزور ـ بعيدون كلّ البعد عن دمشق. لم يكن إسقاط النظام من مطالبنا في البداية. كانت مطالبنا تقتصرُ في الأيّام الأولى على حرية التعبير، وإمكانيةِ إنشاء أحزاب سياسية، وإنهاء حالة الطوارئ.

أهل دير الزور معروفون بعنادهم، ولا يحيدون عن مبادئهم. ولا شكّ في أنّ بشّار الأسد يعرف ذلك، فأراد قمعنا فورًا مُرسِلًا

دبّاباتـه إلى الديـر، كـما حـدث في حـماة. مظاهراتنـا ضمّـت عـشرات الآلاف. نزَلْنـا كلّنـا معًـا. صِرنـا مليونًـا. نعـم، مليونًـا.

عشـتُ في بلـدي مـع أجانـب عملـوا مثـلي في شركـة شـلمبرجيه. عندمـا يـزور هولنـدي أو فرنـسي أو أسـترالي منزلنـا، نُعرّفـه بأفـراد العائلـة، ونشـاركه في ثقافتنـا حتّـى يَعـرف مـن نحـن. نتنـزه معًـا، ونـزور معـه مواقعنـا الأثريـة.

نحـن نَعـرف أنّـه وفَـدَ إلى بلدنـا للعمـل بضـع سـنوات، وأنّـه بعـد ذلك سـيغادر. نتـصرّف مـع الوافديـن دومًـا بطريقـة تجعلهـم يشـعرون بأنّهـم في بيتهـم.

حـضر الأجانـب مظاهراتنـا. نزلـوا إلى الشـوارع، ورأوا بشـار الأسـد وهـو يذبحنـا، ورأوا القتـلى والمعتقلـين. صبَرْنـا وقُلنـا إنَّـه سـيغيِّر رأيـه. اسـتمرت المظاهـرات، ورأى الجميـع أنّهـا مسـتمرّة. تظاهَرْنـا سـلميًّا عـدة أشـهُر. لقـد اسـتهانوا بنـا، ونظـروا إلينـا، وكأنّنـا لسـنا بـشرًا. هـم الذيـن يمدحـون... الحريـة.

لقد ذُبحنا على مذبح المصالح.

كان يكفـي أن يُقَـرِّع الفرنسـيون والأميركيـون بشـار الأسـد، وأن يقولـوا لـه: «كفـى. دع النـاس يُعـبّروا، ويتنفّسـوا».

خاننـا مَـن أوحـى لنـا أنّـه حليـف لنـا، وأُصبنـا بخيبـة أمـل كبـيرة إلى درجـة أنّنـا الآن... لم يَعُـد لدينـا، لـدى أطفـال ديـر الـزور، أيّـةُ ثقـة. لقـد تَعرّضنـا للذبـح. ذبَحَنـا بشـار الأسـد، وداعـش، والأميركيـون، والـروس: «قيـاصرة» القصـف والبراميـل.

لَـمّا وصـل جيـش النظـام إلى ديـر الـزور، شَـعرْنا بالخيانـة. في البدايـة اعتقدنـا أنّـه أُرسِـل لتخويـف النـاس. قصدْنـا الجنـود وقلنـا لهـم:

«نحـن إخوانكـم»، وقدّمنـا لهـم مـن حـواضر بيوتنـا.

مـا إنْ دخـل الجيـش المدينـة وضرَبَ الأهـالي، حتّـى تُركنـا لمصيرنـا. أيـن الأصدقـاء؟ أحرَقـوا إنسـانيّتنا وأخلاقنـا وقلوبنـا، وأحرقـوا البسـطاء. هـم يَعرفـون مـن نحـن، إذْ عـاش الفرنسـيّون معنـا بأمـن وسـلام. إنّهـم يعرفـون ثقافتنـا، ويَعرفـون مقاصدنـا، وحِرصَنـا عـلى الإنسـان وحقوقـه، وعـلى القوانـين الدوليـة.

مـن جديـد، نَصْـلٌ يَخـترقُ رأسي. زِييـي... زِييـي... زِييـي... رأسي... هـذه الذكريـات تَكـسرني.

... ألَـنْ يعُـود إليّ هـدوئي؟ مـرة أخـرى؟ بـلى. حـين تتوقّـف الانفجـارات داخـل رأسي، وحـين أشـعرُ بالتعاضـد بـين سـورِيِّي الداخـل، وحـين يعمـل السـوريّون مـن أجـل الثـورة؛ يعُـود إليّ هـدوئي.

أريـد العـودة إلى سـوريا. لقـد اكتشـفتُ العـالم وأكاذيبـه. رأيـتُ... يقـول بشـار الأسـد: إنّ الغـرب كاذب، لعلّهـا الحقيقـة.

أريد العودة إلى سوريا للدفاع عن بلدي.

بجـوار منـزلي، عـلى بُعـد عـشر دقائـق سـيرًا عـلى الأقـدام، قنـاةُ مـاء وحديقـةُ حيـوان أزورهـما... فأهـدأ.

أحْمِـل بطّانيـةً، وكـوب قهـوة أو شـاي، وأجلـس أمـام المـاء وحـدي، مصغيًـا عـبر هاتفـي سـاعات وسـاعات، سـاعتَيْن، ثـلاث... إلى مـا أُحـبّ مـن أغنيـات الشـجن. أتأمَّـلُ الزرقـة، وأسـهو. فكـرةٌ تأخـذني، وفكـرة تَـرُدّني.

هذا فرات هولندا!

أُطعـم الغـزلان والأيائـل، وأُحـضرُ خبـزًا للبـطّ. مـا أشـبَهَ المشـهد

بمزرعتنا القريبة من الماء في بلدة دير الزور، التي ضمّت أبقارًا وأغنامًا وجمالًا. ربَّيْنا بطًّا أيضًا. لكَمْ أحببتُ حيواناتنا!

لقد دمّروا ذاكرتنا. دمّروا البشرَ والحجر، مَراتع الذاكرة. مع كلّ جولة دمار، كانت خلايا رأسي تضمحلُّ. هذا المكان يُنشّط ذاكرتي، فأتذكّر طفولتي وشبابي، وإنْ بشكل مختلف. أُطعمُ البطَّ خُبزًا كي لا يبتعد عنّي، وأَشعر معها وهي حولي بأُلْفة.

أتذكّر طفولتي. أهدأ. لكنّي أتخيل أيضًا البيوت المدمّرة والمنهارة. أين سكّانها اليوم؟ هل ماتوا؟ هل قُتلوا؟

تعُود بي الذاكرة إلى أيّام قضَيتُها في جوار الفرات في الخان: ريفٌ أخضرُ، وماشيةٌ اهتممتُ بها. كنتُ حُرًّا. أمّا شؤون الدولة، فممنوعٌ الاقتراب منها. فإنْ فعلتَ فستُقلق السيّدَ الرئيس، وسيَفقد أعصابه. ماذا لو فقد أعصابه؟

أَرْعَبَه أهالي دير الزور. مُحافَظتُنا مستنقعٌ، قد يغرق فيه النظام وصحبُه. إنّهم يُصرّون على ولائنا ودعمنا، فهو مفتاحهم لكلّ المناطق المجاورة. نحن متحدون، وروابطنا القَبَليّة قويّة. ما أكثرَنا، من الرقة إلى الأردن.

هيّا، سأذهب لشراء جبنٍ منزليّ يصنعه رجل سوريّ، ثم أقصد وسط المدينة لشراء ما أحتاج إليه من سُكّر.

الفصل الثاني والعشرون

عُيّنتُ سُخْرةً في زنزانة كبيرة، مراحيضها في أقصاها. قبْل وصولي إلى مركز الاحتجاز، لم أكن أعرف ما عمَلُ السُّخْرة. سمِعتُ أنّهم

مجنـدون في الجيـش، يغسـلون الغسـيل، ويهتمـون بالطعـام.

كنـتُ محتجَـزًا منـذ عـدة أشـهر، حـين اقـترح رئيـس الزنزانـة اسـمي ـ عـلى مـا أعتقـد ـ .

على أيّة حال، قال لي السجان ذات يوم:

«أنتَ والحمار الذي خلفك سُخْرة منذ الآن».

يَطـرُق المسـاجين البـاب قائلـين: لقـد فـارق سـجينان الحيـاة لِتَوِّهِـما، والتيـار الكهربـائيّ مقطـوع، والحـرارة لا تُحتمـل. «الحـمار» الـذي خلفـي صبـيٌّ مـن داريَّـا، عمـره ١٧ عامًـا.

يُبـدَّل السُّـخْرة بانتظـام، والأسـباب معروفـة. بعضنـا يمـوت، وبعضنـا الآخـر يُنقـل إلى معتقـلٍ آخـر. يُعَـيَّن في الزنازيـن الواسـعة أكـثر مـن سُـخْرة، لتلبيـة جميـع الطلبـات. واحـدٌ يُحـضِّرُ الطعـام، وواحـدٌ يواكب زمـلاءه إلى المرحـاض، وواحـدٌ لتوزيـع الأدويـة. حَـدَثَ ذاتَ مـرّة أن كُلِّفـتُ للقيـام بهـذه المهمّـة الأخـيرة لِكـوني ممرِّضًـا سـابقًا. الأدويـة شـكلية وشـحيحة، ويُحتفَـظ بهـذه المهمـة لرفـع العتـب. يتظاهـر الضبّـاط بأنّهـا مؤَمَّنـة، وهـم يَعلمـون جيـدًا أنّهـا غـير كافيـة.

كلّ يـوم، حـين ينتصـف النهـار، يَخـرجُ جميـع رجـال السُّـخْرة مـن الزنازيـن لاسـتلام الطعـام. تَصِـل الشـاحنات، فيَصعـد اثنـان إلى قلـب الشـاحنة، واثنـان آخـران يتسـلَّمان الأكيـاس والأواني الكبـيرة... نُفـرّغ كلّ شيء: أكيـاس الخبـز، وعلـب الأرز، ثـمّ نقُـوم بتوزيعهـا على عشرات الزنازيـن، واضعـين الأكل في أوعيـة بلاسـتيكية كبـيرة ذات إطـار أحمـر، تسـتَوعب حاجـة حـوالي عشريـن شـخصًا.

كنّـا نـأكل بأيدينـا. في بداية اعتقالي سُـمح لي برغيـفٍ ونصف، حاولتُ وُسْـعي الاحتفـاظ بهما وببعض اللبنـة والجبنة البيضـاء إلى اليـوم التالي.

مـن مهـام رَجُـل السُّـخْرة تنظيفُ مكاتـب الضبّـاط وغُرَف الاسـتجواب. دلْـوٌ، ومـاءٌ، وملابـس قديمـةٌ، ومنظّـف «اللودالـين» الرخيـص في مسـتوعبات الخمسـة لـترات، وهيّـا إلى العمـل. الضبّـاط يصِلُـون إلى مكاتبهـم بأحذيتهـم القـذرة، ولا بـدّ مـن شـطف الأرض، ودفـع المـاء والأوسـاخ بِقَشّـاطة مطّاطيـة، ثـمّ تنشـيف الأرض بقمصـان وخِـرَق باليـة.

أخبرتُـكِ كيـف يخلـع المعتقـل ملابسـه قبـل دخـول غرفـة التحقيـق، وكيـف يجمـع الضبّـاط القمصـان الأنيقـة، كقميـصي مـن ماركـة «سـتيفانيل». أعتقـد أنّهـم يرمـون الملابـس المهترئـة. عندمـا ينقلوننـا مـن مـكان إلى آخـر، أو عندمـا نَمْثُـل أمـام القـاضي، يدبّـرون لنـا ملابس مـن هـذا المخـزون.

مـن البـاب، حـين أهُـمُّ بالقيـام بِسُـخْرتي، يـصرخ السـجّان بي وهـو يَضربنـي عـلى ظهـري:

ـ عجِّلْ، وإنْ وجدْتُ حبّة تراب واحدة فسوف... أُمَّكَ وأُختَك.

ثم يَضربني من جديد.

رَجُـل السُّـخْرةُ محسـودٌ مـن زملائـه؛ إذ يُمْكنـه أن يَخـرج مـن الزنزانـة الخانقـة، التـي نبقـى فيهـا واقفـين أو متقوقعـين، حيـث يُمنَـع علينـا الحـراك، ويكدّسـوننا وكأنّنـا حـشراتٌ ميتـة. الهـواء قليـل، والحركـة أيضًـا. لـذا، يعـاني أغلبُنـا تَورّمًـا في السـيقان. الخـروج فرصـةٌ لِعَـبِّ هـواءٍ نقـيّ.

كنـتُ ـ كـما تعرفـين ـ موظفًـا في شركـة فرنسـية. تعلّمـتُ بعـض أسـس الإدارة. لـذا، كفَّيـتُ ووفَّيـتُ في مهمّتـي، ولـو أنّي مَـددتُ يـدي إلى الطعـام أحيانًـا. غافلْـتُ السَّـجَّانَ وأنـا أُوزّع الأرز في الأطبـاق، مُهرّبًـا

لنفسي حفنة أُرْزٍ إضافيّة. الجوعُ كافرٌ، كما تعرفين.

هذا، وأخفيتُ لفهد المريض أدويةً بجوار المراحيض.

سمعتُ بزنزانةٍ سُجِنَ فيها شقيقان. عُيِّن واحدٌ منهما سُخْرةً، فصار الآخر يطلب من الأوّل أن يَسمح له بالذهاب إلى المرحاض أكثر من مرّة. صار السخرة مُحرجًا أمام باقي المساجين. وهكذا، تَقاتل الشقيقان.

حين عُيّن طارق سخرة، غضب عندما أحضر رئيسُ الزنزانة الهاتفَ لفهد كي يتصل بعائلته، علمًا أنّني دفعتُ ثمن «الخدمة». فوشَى بي، ونُقلتُ إلى زنزانة مَلْأَى بالبراز. ظننتُ أنّني سأُجَنّ. صار جلدي يتقشّر.

حين كنتُ أخرجُ لإحضار الطعام، أو لتنظيف الممرّات ومكاتب الضبّاط، كنتُ أحاول تسجيل مشاهداتي في ذاكرتي. فإن عشتُ أُخبِر بها، وإنْ مُتُّ تَموتُ ذاكرتي معي. أفتحُ عينيّ وُسْعَهما، وأُسجّل كلّ ما أرى. أحفظ أسماء الجلّادين. فحين يعذبونك وأنت معصوب العينين، لا ترى شيئًا.

ما الذي يبقى من ذاكرة سجين؟ ذكرياتٌ، وذكرياتٌ. كيف لي أن أتذكّر؟

أذكرُ أسماء مَن سُجنوا معي. أسماؤهم في ذاكرتي. قبل اعتقالي انتقلتُ من مدينة إلى أخرى، والتقيتُ بالعديد من الناشطين. المتظاهرون مسيحيّون ودروز وسُنَّة وعلويُّون. كنّا نعملُ يدًا بيد. ثار مثقفون وكُتَّاب وطُلَّاب، وخرجوا مطالِبين بالكرامة، وبِبناء دولة مدنية. لكنّ النظام قتَل أفضَلَنا، متمتّعًا راغبًا في اغتيال الثورة.

حين تَخُونني ذاكرتي الآن، أتصل بالأصدقاء، فيساعدونني. عليَّ لَمْلَمَتُها والتحقّق من معلوماتي.

قبل الثورة، كانت ذاكرتي من حديد. وبعد اعتقالي في فرع الجويّة، أرغَمتُ نفسي على التذكّر؛ فإما الخروج من هذا الجحيم، أو الموت.

حدّثَني إخوتي عن احتجازهم. كنتُ صغيرًا، بَيْد أنّني حاولتُ حفظ كلّ ما قالوه في تلك الأمسيات، مستمعًا إلى أحاديثهم باهتمام. في أيّامهم، لم تكن الزنازين بهذا الاكتظاظ، وبهذه الوحشية المنافية للإنسانيّة. لن أسكت ـ إنْ عشتُ ـ عن هذه الجرائم.

الفصل الثالث والعشرون

قالوا لي: «إنْ لم تنسَ مِن أين أتيتَ، فستنهار. بمجرّد وُصولك إلى السجن، فكِّر في نفسك فقط. انظُرْ إلى الأرض، وأَحْصِ عدد البلاطات الصغيرة. أنتَ سجين هذه المساحة، أنت الآن هنا. نظِّم إقامتك «على قدّ بلاطاتك»، حتّى تتمكن من النجاة. فكِّر في أكلك، تَحايَلْ. إنْ فكَّرتَ في الخارج، فستموت».

لقد كان إخوتي على حق.

الفصل الرابع والعشرون

أخذ يهذي. الكوابيس تُحاصره. رغوةٌ غريبة تَخرجُ من فمه، ويقف فجأة لحظاتٍ وهو شارد الذهن. ما زال في عالمه المرعب.

يقف، وأرى نظراته التائهة الصامتة. نأخذه إلى الحمّام، ونغسل له وجهه بماء بارد. صار متقوقعًا وحيدًا لا يخالط أحدًا، كأنّ لا شيء يمسّه. تعبَ من العيش، ومن محاولة العيش، ومِمَّا لا يَحتمل. «دَعُوني أَمُتْ» همَس.

رأيتُه ينهار. حدَسْتُ في ذاك. قبْل اعتقال والده وأخي، كان بصلابة حصان، قويًّا، مستعدًّا للمواجهة. فهدٌ اسمٌ على مُسمّى، يليق به.

ولكن بعد اعتقال والده...

علاقة فهدٍ بأبي فهد لم تكن علاقة ابنٍ بأبيه. كانا صديقَين. حتّى إنّني لم أكن «عمَّهُ»، ولم ينادِني يومًا: يا عمّي، ولا يا مازن، بل «أبو المِيز» تَحبُّبًا.

سقط فهد حين سمع باعتقال والده. هو في سجن، وأبوه في سجن آخَر. أمُّه وأخته تنتظران وحدَهُما عودةَ المساجين، وهذا ما لم يحتمله. حذّرَنا إخوتي: «انسَوا الخارج، وإلا فسوف تنهارون».

انهار فهد. ولم يَعُد يردُّ عليَّ إنْ تَحدّثتُ إليه.

لم يعُد يَحتمل أيّ حديث. كان سُخْرةً مثلي، مسؤولًا عن فرض الصمت على المعتقلين ساعةَ يذهبون إلى المراحيض. بعضهم لم يلتزم، علمًا أنّ السجان حذّرَ الجميع، وأبْلَغ فهدًا أنّه سيعاقبه إن سمع حسًّا. سمع السجّان ضوضاءَ، وقرّر أن يَضرب فهدًا بالعصا سبعين مرّة.

لم يعُدْ فهدٌ قادرًا على الاحتمال.
ــ اصمُتوا، لا أريد أن أُعاقَب مرةً أخرى بسبَبِكم.
بعضُهم لم يَفهم رُغم التكرار، والتكرار، والتكرار.
كنتُ على باب المرحاض. يَدخُل المعتقَلون اثنَين اثنَين.

ـــ هيّا ادْخُل، لا تُضيّعِ الوقت.

يُسمح بدقيقة واحدة لكلٍّ منّا. دقيقة واحدة تكفي بالكاد لنزع السروال الداخليّ. المصابون بإسهال يحتاجون إلى مزيد من الوقت، فأحاول غضّ النظر ولو ضربني السجّان ضربةً أو اثنتين بعصاه. أمّا إن بالَغَ، فعلى الدنيا السلام.

قال فهد لأحدهم: «قِفْ في الطابور».
ـــ لا تلمسني. ارفَعْ يدك عن كتفي.
ـــ كلّنا سجناء، ولسنا هنا لنتجادل، نحن إخوة.
ـــ لا، نحن لسنا إخوة. أنتم إرهابيون؛ أمّا نحن فمع بشار.
ـــ إن كنتَ مع بشار، فلماذا حبَسَك هنا؟
ـــ بسببكم يا أبناء العاهرة!

تَعارك فهدٌ معه، وطرحه أرضًا. ضربه وكسر أنفه. وللفصل بينهما احتجنا إلى أن نكون ثلاثة.

بعد هذه الواقعة، لم يعُد يَحتملُ التحدث إلى الحارس، ولا إلى النزلاء. صار يَضرب.
أخرجه اعتقال والده عن طَوره. ما حدَث يَقصم الظهر، ولا يُحتمل. فهِمْتِ؟!

مَن لم يختبِرْ ما اختَبره، فممنوعٌ من الحكم عليه. فكيف له أن يَعرف؟

❖ أعِدْهُ. أعِدْهُ إلى والدته يا مازن. ماذا تنتظر لتُخبرها؟ أن يجفّ دمه؟ لقد جفّ. أعِدْ فهدًا إلى والدته. أعِدْ لها تُرابه. اترُكْ يده،

اتْرُكْه. لا تَكبِت دموعك. غسِّلْه بها، ثمّ عُدْ إلى «الحياة»، إلى ما تستطيعه من حياة.

في هاتفك صُوَرٌ له. صورٌ عِوض الكفن. تُرِيني إيّاها باحتياطٍ حنون بين دمع وابتسام. عَلّقت صورةً له على جدار صالونك في هيلغوم، رأسه مُنْحنٍ، وعيناه زائغتان من الشمس. عَلّقت أيضًا صورةً لعبد العزيز في عيادة طبيب الأسنان، وهو يضع نظارةً على أنفه.

صُوَرُ غُيّابِك، صُوَرٌ تُؤكّد المؤكَّد. ما زالوا أحياء، ولن يستطيع النظام مَحْوَهُم. تجتمع الأمهاتُ كلّ أسبوع منذ خمسة وأربعين عامًا في ساحة مايو في بوينس آيرس الأرجنتين، حاملاتٍ صورةَ أحباءٍ غيّبَهُم الديكتاتور بين عامي ١٩٣٨ ـ ١٩٦٧. يقفن ويمشين في حلقةٍ، للتذكير بغُيّابٍ عُذّبوا وغُيّبوا دون أن تُرَدّ جثثهم.

أنتَ أيضًا تمشي أحيانًا مع سوريِّين آخَرِين، حاملًا صُوَرَ فهدٍ وعبد العزيز وأبو فهد خلال الاجتماعات والمظاهرات، أمام الأمم المتحدة في جنيف، وفي شوارع باريس وأمستردام.

لكن، حين تعُود إلى بيتك...

كنتَ راضيًا؛ أمّا الآن، فمغلوب. كانت المظاهراتُ الأولى مصدر فرح؛ أمّا اليوم فخطواتك متعثّرة. تَهزأ من جسدك النحيل: «انظري، أنا هيكل عظمي». قهوةٌ وسجائر، هذا غذاؤك.

ردّ فهد. دعْهُ يَذهب...

يذهب؟ إلى أين؟ أعرفُ أنّك لن تستطيع تركه. لكن ماذا؟ وجهك يزدادُ نُحولًا، وسَواد الأرق تحت عينيك. أين خدودك الممتلئة التي رأيتُها في صورٍ لك أيّام عملك في شركة شلمبرجيه؟ بعد مغادرة

السـجن ازددتَ هـزالًا. «هزَلْـتُ. أعْـرِف. هزَلْـتُ مـن هُـزال رأسي».

أنـت حـرٌّ. حـرٌّ بألْـفِ قيـدٍ وقيـد، تَهيـمُ عـلى وَجْـهِ ذاكرتِـك، وعـلى وَجْـهِ وجَعِـك، لا عـلى دروب المنفـى. ❖

الفصـل الخامس والعشرون

منـذ بضعـة أسـابيع أقبـع في هـذه الزنزانـة، مـع مسـاجين مِـن حلـب والرسـتن والمعضميـة وتلبيسـة وريـف حـماة. نُـودي عـلَيّ وطُلـب منّي التوقيـع عـلى ورقة.

عـلى مـاذا سـأوقّع؟ لا أجْـرُؤ عـلى طـرح السـؤال. فلـو فعلْـتُ، عقـابي معـروف. سـيكسِرون رأسي.

رأيـتُ المـوت أمـام عينـيّ. سأُرسَـل إلى المـوت، فأنـا مُـدانٌ. اعترفـتُ بحمـل السـلاح وقتـل الجنـود في أثنـاء تعذيبـي. أسـباب كافيـة لقتـلي.

المسـجونون عنـد جميـل حسـن ميّتـون حُكْـمًا. إنّـه رئيـس المخابـرات الجويـة، ومجـرمٌ مـن مجرمـي النظـام، يديـر مطـارَ المـزّة العسـكري، والمخابـرات الجويـة في بـاب تومـا، وفـرع القصّـاع... كلّهـا تأتمـر بـه.

هـل زُرتِ بـاب تُومـا؟ هـل تتذكريـن تلـك السـاحة، حيـث يقـف السُّـيَّاح؟ بالقـرب منهـا مركـزُ احتجـاز، تديـره المخابـرات الجويـة.

تقـع مديريّـة المخابـرات الجويـة خلـف مكتبـة الأسـد، في سـاحة الأمويـين، بجانـب مبنـى الأوبـرا والتلفزيـون، حيـث فنـدق الشـيراتون والفـور سـيزونز. مراكـز الاحتجـاز كثـيرة، تحتـلُّ طوابـق المبـاني

السـفليّة. لقـد كان النظـام مسـتعدًّا قبْـل بـدء الثـورة.

وقّعـتُ عـلى الورقـة. أعـادوا لي ٢٠٧٥ لـيرةً، وهاتفًـا خلويًّـا، ومَداسًـا كلّ فـردة فيـه مختلفـة عـن الأخـرى، وسروالًا ممزقًـا، وقميـصَ معتقـلٍ وصـل لِتَـوِّهِ وجـرّدوه مـن ملابسـه.

كنّـا حـوالي خمسـة عـشر سـجينًا، مقيديـن معًـا بسلسـلة، توَجّهنـا إلى حافلـة.

اعتقدتُ أنّنا نُقتاد إلى الإعدام.

لم نكن نَعرف وِجْهتنا. الموت بلا أدنى ريب.

أعـرفُ المطـار، عـلى الرغـم مـن عينـيّ المعصُوبتَـين، والـرأس المُطَأطَـأ، وسـتائر الحافلـة المُسْـدَلة. حاولـتُ تحديـد مسـارنا: «إنِ اتجَهَـتِ الحافلـة يسـارًا، فـإلى منطقـة الصبّـورة حيـثُ تَجمُّـعُ مجموعـةٍ مـن الثكنـات العسـكريّة، وفيهـا يجـري الإعـدام. أمّـا إنِ اتجَهَـتِ الحافلـة إلى اليمـين، فنحـن في طريقنـا إلى دمشـق».

انعطفَـت الحافلـة يمينًـا، حيـثُ يوجَـد نفَقَـانِ باتجـاه دمشـق إلى سـوق الحميديـة، ثـم يسـارًا. أيـن نحـن؟ نفَـقُ «الثـورة» إلى الشرطـة العسـكرية، حيـث تجـري إعدامـاتٌ أيضًـا.

توقفَت الحافلة.

ــ وقوف! خَلْع العصبة عند النزول.

حـين رأيـتُ القبّعـات الحُمْـرَ، ولكـوني أدَّيْـتُ خدمتـي العسـكريّة، فهِمْـت. نحـن مـع الشرطـة العسـكرية. أخـذوا هواتفنـا المحمولـة، وتركـوا مـا في جيوبنـا مـن لـيرات، وقادونـا إلى غـرفٍ كبـيرة. جلسـتُ عـلى الأرض. هـا قـد عدنـا إلى الاكتظـاظ. يـأتي صـوتٌ مـن المَمَـرِّ.

ـــ شاي، شاي، شاي؟

منذ أكثر من عام، لم أشرب كوبًا من الشاي. وفي جيبي بِضعُ ليرات. أسمع الصوت يقترب من غرفتنا، ويُفتح الباب.

ـــ مَن يريد شايًا؟ سندويشات؟

ـــ فلافل! مَن يريد فلافل؟

منذ عامٍ لم آكُل غير الرزّ.

ـــ كم تريد؟

ـــ ١، ٢، ٣، ٤، ٥...٥٠٠.

عرَض عليَّ أن أختار من بين سندويشات، وضعَها في كيس بلاستيكيّ يُستعمل عادة لجمع القمامة. اشتريتُ كمّية، ووزَّعتُها على كلّ مَن حولي، واحتفظتُ ببعضها لي، وبدأتُ أتناولها الواحدة تلو الأخرى. كان في داخلها فلافل، وبندورة عفنة. الشاي مرٌّ بلا سُكّر.

مكثْنَا مدة خمسة أيام في هذه الغرفة التابعة لمركز الشرطة العسكرية. وفي الأيّام التالية، اشتريتُ سندويشات لي فقط.

إنّهم يُعدِمون هنا. المكانُ خطير، فكيف لي أن أرتاح؟ أسهر حتّى الفجر، وأقول لنفسي: غدًا سأُعدَم. كيف يا ترى؟ برصاصة؟ بمشنقة؟

تُنفّذ عمليات الإعدام حوالي الرابعة صباحًا. أنامُ بعد الخامسة أو السادسة صباحًا، ولم يأت دوري بعد.

سوف أطلب منهم رؤية عائلتي قبل إعدامي. أفلا يُسأل مَن سوف يُعدم عن أمنيته الأخيرة؟ أليس كذلك؟ رؤية عائلتي هي أمنيتي الأخيرة، إخوتي وأخواتي الطلقاء. بعضهم في السجن،

وبعضهـم الآخـر مُتَـوارٍ.

في اليـوم الرابـع، نُقلنـا إلى غرفـة أخـرى كبـيرة ونظيفـة ولهـا نوافـذ. فيهـا سـجناء يرتـدون الـزي المخطّـط باللونـين الرمـادي والأبيـض.

أرِقْتُ من جديد، وصرتُ أنتظر الفجر.

ــ لماذا لا تنام؟ ما فائدة النوم؟ سوف أُعدَم.

ــ تُعدَم؟ لا. سيأخذوننا إلى سجن عدرا.

أَأُصَدّقـه؟ لعـلّ المسـكين لا يَعـرف. مـرّت أربـع، خمـس سـاعاتٍ. بعـد ثمـاني سـاعاتٍ نُـودِي عـلَيّ مـع آخريـن. وقفْنـا في الطابـور، والأصفـاد حـول أيدينـا.

ــ كما قلتُ لك، سينقلوننا إلى عدرا.

أشَرْتُ إلى رأسي، وقلت له: «رأسي فارغٌ».

ركِبنـا في شـاحنة مـبرّدة، سـارت بنـا مـن جبـل قاسـيون ومعربـة والتـل، حتّـى وصَلْنـا إلى عـدرا.

الفصـل السادس والعشرون

هذه مهمّتك، أن تَشِيَ بهم. لا تتقاعس. هذه مهمّتك. سأذهب الآن.

تَعانقْنا. شجّعتُه.

«مصيرنا بِيَد الله» قلتُ له.

ومشى إلى حتفه.

استقبلني أحمد في سجن عدرا في دمشق، رآني بسروالي القصير الممزّق، ونعْلِي بزوجَيهِ المتخالفَيْن. ومنذ ذلك الحين أصبح هو وأسعد صديقَيَّ. قبْل نقْلِنا أُعطيتُ قميصًا ملطخًا بالدماء، وملابس داخلية باليَة. الملابس حاملة الأمراض والبراغيث والقمل، تُحرَق أحيانًا. وزّعُوا علينا بيجامات السجن المخطّطة. لسنا ملزَمين بارتدائها في الزنزانة، ولكنّك تحتاج إليها للعمل في الورش أو في مناسبات معيّنة، على سبيل المثال: إنِ استُدعيت إلى المحكمة، المحكمة المهزلة.

كم كانت واسعة بيجامتي. أحاول ربطها، لكنّها لا تهدأ على خصري، وتقع على الأرض. أتُراني أطلبُ واحدة على مقاسي؟ قيل لي: غدًا اقْصِد الخياط عند مدخل السجن، سيضيّقها لكَ.

جاء طبيب لفحصنا، فوقَفْنا في الطابور. عبَرْنا بابًا، ثمّ آخَر.

ــ اجلِسْ.

انتظَرْنا. ننتظر قبْل أن يوزّعونا على الزنازين. جاء لرؤيتنا سجناءُ سبَقونا ـ نحن الجُدُد ـ .

سألني: «مِن أين أنت؟».

ــ مِن الدير.

ــ أنا أيضًا.

فتّشتُ في ذاكرتي، فتّشتُ وتذكّرتُ عائلته.

ــ ألن تُقدِّم لي سيجارة؟

قدَّم لي سيجارة من ماركة «الحمراء». أشْعَلْتُها، دُخْتُ، دار رأسي،

تضايَقْت. أعتقد أنّني فقدتُ شيئًا من وَعْيِي.

بعد ذلك سُمح لنا بالاستحمام، وقصّ لنا الحلاقُ شعرنا.

الحمّام، ماءٌ ساخن وصابون من ماركة «نخلة»، أبيض مستطيل كثير الرغوة. كنتُ بريئًا مثل عصفورٍ دُورِيّ بلا ريشٍ، يعبث في بركةِ ماء، مستمتعًا هازًّا رأسه. ثم أخذتُ أفْرُك جسدي. يا لسعادتي! كلّ هذا الوسخ.

كانت فروة رأسي قذرة إلى درجة أنّ الصابون لم يَرْغُ عليها؛ أمّا الأوساخ والجلدُ «القديم»، فحدِّث ولا حرج. فركتُ بلِيفة الحمام حتّى احمرَّت يدي.

منذ خمسة عشر شهرًا لم أستحمّ بهذه الكميّة من الماء الساخن. استعدتُ متعة قديمة. ففي مركز الاحتجاز التابع للمخابرات، كنّا نستحمّ في حوض ماء بارد، صيفًا وشتاءً.

حين أنهيتُ حمّامي قصدتُ الحلّاق: «يُقرّعون» شَعْرَنا في السجن، كما تعرفين. دقيقتان، وأنجز المهمّة.

زووم... زووم... هيا اذهب. إلى السجين التالي.

بعد ذلك نُوزَّع على الزنازين.

أُرسِلَ خمسةٌ منا إلى الجناح رقم ٨، جناح القتلة. سلّمَتْنا الإدارة إلى المفرزة، إلى مجموعة ضبّاط شرطة السجن المسؤولين عنّا.

«مازن الحمادة، اذهَبْ إلى ٨٠١».

هناك، استقبلني أحمد وأسعد، واهتمّا بي. أعطَياني صابونة صغيرة وبعض المال، فتمكنتُ من شراء ملابس داخلية وقميص جديد ما

زال في كيسه. لقد أمضيتُ أكثر من عام لا أملكُ فيه أيّ شيء. أعطَياني بطاقة هاتفهما، وعرَضَا عليّ أن أستعملها قبلهما. الهاتف معلق على الحائط. يُسمَح للسجناء باستعماله دقائق من وقت إلى آخَر، دقائق لا تتيحُ حديثًا أطول من: «مرحبًا، كيف الحال؟ أنا بخير، أرسلوا إليَّ بعض المال».

ــ اتصِلوا بأهلكم كي يطمئنّوا. قال لنا قدماء الزنزانة.

هكذا، اتّصلتُ بشقيقتي.

ــ أنا في عدرا، هل تزورينني؟ أعْلَم أنّ إخوتي مطلوبون ولا يستطيعون زيارتي. أمّا هي، فمرّت بعد ثلاثة أسابيع.

أوه. لا أريدُ تَذكُّر هذه اللحظات. أُفضّل أن أدخّن سيجارة.

عندما رأتني خلف القضبان، سقطَت على الأرض، وأخذت تبكي.

ــ لا تبكي. هيّا، لا بأس، لا تبكي. ماذا عن إخوتي؟ أهُمْ أحياء؟

ــ إنّهم بخير، باستثناء المعتقَلين. إنّها الحربُ في الخارج.

الحرب... نعم. سأدرك ذلك لاحقًا، حين سأخرج من السجن، وأكتشف ما حلّ بسوريا من دمار.

دعيني أُخبِرْكِ قصة أحمد وأسعد. كنا في نفس الزنزانة، في جناح القتَلة بجوار أَجنحة السُّرّاق والنصّابين. نحن قتلة؟

لقد خلَّى النظامُ سبيل أكثر من ١٣ ألف مجرم حقيقي، واستبدَلَنا بهم؛ أي: بالمتظاهِرين المطالِبين بالتغيير.

كنّا حوالي المئة في الزنزانة، ولم تكن الأَسرَّة لتكفي الجميع. نام نِصفُنا على الأرض. وحين وصلْتُ نِمتُ على حصيرة، ثم تقاسمْتُ

سريـرًا ذا طابقَـين مـع أسـعد، هـو فـوق، وأنـا تحـت؛ أمّـا أغراضـه فهـي تَحْـتَ السريـر: صحـونٌ، وكبّايـاتٌ، وخـرزٌ. يُمـضي السـجناءُ، المحكـوم عليهـم مـدة عـشرة أو خمسـة عـشر عامًـا أو مؤبَّـدًا، أوقاتَهـم في شـكّ الخـرز، لتمضيـة الوقـت وكسـب القليـل مـن المـال. وبـين الحـين والآخـر يـأتي مهتمّـون لـشراء مـا ينتـج مـن لوحـات أو تَـذْكارات. لا صـبر عنـدي عـلى شـكّ الخـرز. سـاعدتُ عـلى ربـط الخيـوط أو لفّهـا فقـط.

ذات يـوم، اسـتَدعى الحـراس خمسـين سـجينًا، مـن بينهـم أحمـد وأسـعد. استشـعر أسـعد ذلـك، كيـف؟ لا أعـرف. قبـل أربعـة أو خمسـة أيـام، قـال لي: «أغـراضي أمانـة، أترُكهـا معـك: دفـترٌ دوّنـتُ فيـه خواطـري وذكريـاتي، وبضـع صـورٍ، ورسـالة إلى والـدتي. أرجـو منـك تسـليمها إلى عائلتـي».

كان يَعلـم. غـادر هـو وأحمـد كي يُعدَمـا. وقـد أُعدِمـا، بحسـب مـا استَشـعر أيضًـا حـارسٌ كان يُهـرّب لي مـالًا وأدويـة. كنـتُ أعـرف الحـارس مِـن قبـل. بفضلـه تَمكّنَّـا مـن الحصـول عـلى دواء للجـرب. أمّـا المـال، فكانـت العائلـة تُؤمّنـه. أحيانًـا كنـتُ أحتـاج إلى إرسـال شيء إلى الخـارج، فأضعـه في السـلّة المعدنيـة، تلـك المسـتعملة للمهمـلات خلـف المرحـاض. يراقبنـي مـن بعيـد، ثـم يـأتي ليأخـذه. أثنـاء جولاتـه في الممـر لمراقبتنـا، كان يسـير ببـطء، ويتوقّـف أمـام بابنـا بالقـرب مـن فتحـة صغـيرة. فيهمـس لي أحـد السـجناء: «مـازن، صديقـك هُنـا». فأقـترب مـن موقعـي في الخلـف للحديـث إليـه. عندمـا اسـتُدعي الخمسـون سـألتُه:

ــ ماذا يحدث؟

ــ أعتقد أنّهمُ اقتِيدوا إلى الإعدام.

أراد الجميع التدخُّلَ في متعلّقات أسعد.

ــ لا أحد يلمس أغراضه.

طلبتُ من رئيس الزنزانة ومِن بعض الشهود، رؤية أغراضه. أخرجتُها من تحت السرير كي يشاهدوها. هذه الأغراض وصيّته.

ــ سوف أُسلّمها إلى عائلته.

اتصلنا بوالدته. حضرتْ بعد أسبوع، أو عشرة أيام. أردتُ النزول لإعطائها أشياءه، لكنّ رئيس الزنزانة رفض طلبي.

قلتُ له وأنا أعطيه أغراض أسعد: «دِير بالك، هذه ذكرياته. هنا الميداليات الخشبية التي صنعها لأَخَواته. اسأَلْ والدته لِنَعرف ما حدث بالفعل».

عندما عاد، أخبرَنا أنّ والدته سألتْهُ عن اليوم المحدّد الذي أُخرج فيه ابنُها من الزنزانة. مرّ عليها أحدهم وطلب منها الذهاب إلى قسم الشرطة. هناك أعطوها هوية أسعد، زاعمين أنّه قُتل على يد الإرهابيين.

قصّة سوريالّية. نعم، سوريالّية. إنْ فُقِد فردٌ من أفراد عائلتك، تُنصَح بالسؤال عنه في مراكز الشرطة العسكرية، فهُم من يعرفون هل كان حيًّا أم ميتًا. شقيقتي تمرّ بانتظام على الشرطة العسكرية، فهي تبحث عن زوجها وابنها. اختفَيَا ولا أخبار عنهم. أمّا إنْ تحقَّقتَ أنّ مَن تبحث عنه موجود في السجن، فيُطلب منك الحصول على تصريح من المحكمة لزيارته.

إداريّات لا تَرقى إلى مستوى الدولة. لُصوصيّة. إنّهم قُطّاع طرق، قُطّاع طرق بيروقراطيون.

حُكِم على أحمد بالسجن خمسةَ عشرَ عامًا، ولكنّه أُعدِمَ. كان قدِ استَحصل على وثيقة تؤكّد أنّه في سجن عدرا، يقضي حُكْمًا بالسجن مدة خمسة عشر عامًا. لكنّهم أخَلُّوا بالحُكم.

اسمعي. معي ورقة شبيهة بورقته. لقد طلبتُ وثيقةً رسميةً، مستمسَكًا يدلُّ على اعتقالي. أردتُ أن أُبيّن أنّهم اعتقلوني بلا سبب، وبلا دافع. تقدمتُ بطلب إلى إدارة سجن عدرا. انظُري، هذا هو طلبي المكتوب:

«جمعية حماية السجناء وأُسَرِهم

تأسَّسَت عام ١٩٦١

هاتف: ...

فاكس: ...

السعر: ٢٠ ليرة سوريّة.

إلى السيد العميد مدير فرع سجن دمشق المركزي،

مقدّم الطلب: مازن بسيس الحمادة/ اسم الأم: خضرة.

سِجِلّ سجون دمشق.

الموضوع: طلب تأكيد الحضور.

سيدي،

أرجو أن تُزودوني بمذكرة الاعتقال الخاصة بالمحاكمة، التي أنا

معتقَـل بسـببها حاليًـا في السـجن المركـزي في دمشـق، وذلـك لإحالتهـا إلى الجهـات المختصـة.

بَصْمة السجين كتوقيع: ...

اعتبارًا من ٧ ـ ٩ ـ ٢٠١٣».

وهنا ردّهم:

«إلى من يهمه الأمر،

نُفيدكـم بـأن الأسـير مـازن بسـيس الحـمادة موجـود حاليًـا في سـجن دمشـق المركـزي بموجـب المذكـرة رقـم.../... منـذ تاريـخ ٥-٦-٢٠١٣ بجـرم الإرهـاب. ومقيَّـدة حريتـه اعتبـارًا مـن ٥-٦-٢٠١٣.

توقيع مدير السجن المركزي بدمشق».

حسنًا؟ فهمتِ؟

تشـير الوثيقـة إلى أنّنـي في عـدرا منـذ ٥ حزيـران ٢٠١٣. لكـن، قبـل ذلـك؟ أيـن كنـتُ قبـل ذلـك؟ في قسـم اسـتخبارات الجويـة، حيـث أمضيـتُ سـنة وثلاثـة أشـهر.

هذا جنون. إنّهم مجانين.

أُعـدم أحمـد. هـل بُلّغَـت عائلتـه؟ لا أعـرف. لم يـزره أحـد، فوالدتـه مريضـة، وعائلتـه تعيـش بعيـدًا في مخيّـم فلسـطيني في اللاذقيـة. كان صبـيَّ العائلـة الوحيـد. أُلقـي القبـض عليـه لحملـه سـلاحًا؛ في الحقيقـة شـارك في المظاهـرات، وهـذا كلّ مـا في الأمـر. عندمـا غـادرْتُ عـدرا لم أتمكـن مـن زيـارة والدتـه. عنـد سـقوط بشـار سـأزورها.

الفصل السابع والعشرون

إنْ لم تُعدَم، وإنْ لم «تُنسَ» في إحدى زنازين أفرع المخابرات كي تحتضر بِبُطء، فقد تُرسَل إلى المحاكمة.

كنّا خمسين سجينًا، في حافلة لا تسع إلّا خمسة وعشرين. جلستُ إلى جنْبِ السائق.

ــ «عندك هاتف نقّال؟» سألته.

ــ خمسمائة ليرة.

ــ حسنًا.

«مرحبًا، أنا ذاهب إلى المحكمة. لا أعرف هل أُدان أو يُطلَق سراحي».

المهمّ، بلّغتُ أختي. فبعض السجناء يُحْكَم عليه بالسجن مدة خمسة وعشرين عامًا، ولا مَن يهتمّ به، وبعضهم يبقى وحيدًا سنوات في غياهب النسيان. القضاة لا يبالون طبعًا. مَنسيّون، منسيّون، ما أكثرهم.

على مقربة من سوق الحميديّة مبنى المحكمة، في قلب دمشق. بسبب كثرة القضايا والمراجعات، بنَتِ الدولة محكمةً جديدة على طريق المزّة السريع.

كنّا خمسة عشر مقيدين بالسلاسل، حين وصلْنا إلى المحكمة. نزلنا الدرج إلى الطابق السفلي الثاني، فصرنا أربعين في غرفة ضاقت علينا ـ إذ لا قيمة في عُرفِهم للإنسان ـ . الجو حارٌّ، خانقٌ، آبُ

اللَّهّاب. جلسنا على الأرض. بيننا ألفة، فكلّنا من عدرا.

خاطبني القاضي من وراء مكتبه:

ــ مازن الحُمادة، حملْتَ السلاح، وقتلتَ جنودًا، هذا ما اعترفتَ به.

ــ انظُر إلى آثار التعذيب، أُجبرتُ على الاعتراف بأفعال لم أرتكبها. أنتَ تَعرفُ جوَّ الأفرع الأمنيّة.

أخذ القاضي يشطب جملًا من اعترافاتي.

ــ المتهم أنكَر ذلك... أنكَر ذلك. أنكَر... أنكَر... المتهم طلَبَ العفو والرحمة.

ثم نظر إليَّ:

ــ تفضل، سأُخلِّي سبيلك يا ابني.

ــ تُخلِّي سبيلي؟

ــ نعم.

غادرتُ المكتب دون أن أغلق الباب، على ما أعتقد. طِرتُ من الفرح، ووزَّعْتُ الليرات التي في جيوبي على الحرّاس.

عدتُ إلى السجن لقضاء آخر ليلة فيه. قبّلتُ الجميع ووزَّعتُ ما بقي معي من مال. عندما يُخلَّى سبيلُ واحدٍ منّا، يَسمح له الحارس بالمرور لرؤية مساجين باقي الزنازين ووداعهم من خلف القضبان، بإشاراتٍ من اليد. في كلّ زنزانة زهاء مئة سجين، وفي جناحنا ثلاث عشرة زنزانة. تمنّيتُ لهم ـ أنا المغادر وهم الباقون ـ أن يُفكَّ قيدُهم قريبًا. وعدْتُهم بإرسال رقم هاتفي

الجديد للحارس، وتمنيّتُ عليهم ألّا يوفّروني إن هم احتاجوا إلى ما أستطيعه.

كنتُ على وشك المغادرة قرابة الساعة الحادية عشرة صباحًا، لكنهم عندما راجعوا ملفّاتهم تَبيَّن لهم أنّني مطلوب، فأعادوني.

ــ ستذهب إلى فرع الجنايات قرب الميدان في منطقة باب مُصَلّى.

هذا فرع يُعنَى بالمخدّرات وبالقضايا الجنائيّة.

ــ الأمن السياسي يطالِب بكَ. سننقلك إلى هناك.

يا لها من مفاجأة مُكْرِبة. بعد أن ابتهجتُ بإطلاقي من أسْرِي، وبعد أن ودّعتُ رفاقي، ها أنا أُرسَلُ إلى مكانٍ لا أعرفه على الإطلاق. بعدَ كلّ ابتساماتي أمس، ودِدتُ لو تنشقُّ الأرض وتبلعني.

عندما خرجتُ كنتُ أرتدي ملابس أنيقة: جينز وقميص بولو من ماركة «لاكوست»، أحضرَتْها لي أختي. قميص بولو أبيض، وجينز أزرق، وحذاء كاكي اللون، ونظّارات «راي بان».

بلا إنذارٍ، ودفعةً واحدة، تَعطّل دماغي. «طقّت فيُوزاته». قلتُ لعناصر الفرع الجنائيّ:

ــ هيا، انقلوني وبسرعة!

ليتني لا أُحتجز، وأنام هناك. ماذا يريدون منّي؟

في الخامسة مساءً نقلوني في سيارةٍ، مع اثنين من الضبّاط. سمعتهما يتحدثان عن شخص آخر سيرافقنا. هكذا مرّوا واعتقلوا شابًّا في العشرين من عمره. أتذكّره إلى اليوم. المسكين بشرته بيضاء، شعره أشقر، على معصمه ساعة بسلسلة ذهبية، أنيقة

جدًّا. قبضوا عليه، وربطونا معًا، ثم انطلقت بنا السيارة.

سألني: «هل أنت معتقل من زمان؟». «لا. سنة ونصف!».

فُوجِئ، وحزن، وخَرِس. أضحك اليوم وأنا أُخبِرُكِ القصّة، بَيْد أنّ المسكين بقي مذهولًا. استقبَلَنا عناصر فرع الأمن السياسي بالضرب الاعتيادي. «لا يتعبون. يضربوننا منذ عامٍ ونصف. لا يملّون».

كنتُ في تلك اللحظة في قمّة الإعياء. وصلْتُ إلى حضيض نفسي. أخذوا منّي بقية متعلّقاتي وقادوني إلى الزنزانة. سألتُ أين مكاني. ثم أضفت: «ولا كلمة. أمضيتُ عامًا ونصفًا في فرع الجويّة، ثم في عدرا. أريد أن أنام».

خلعتُ حذائي وسروالي وقميص البولو، صرتُ عاريًا إلّا من ملابسي الداخليّة، وضعتُ رأسي على ملابسي، ونمت حتّى صباح اليوم التالي.

في الزنزانة إسلاميون من كلّ المناطق، أمضَوا فترة اعتقالهم في سجن صِيدنايا، ثم أُرسِلوا إلى الأمن السياسي، حيث ينتظرون أن يُفرَج عنهم. الجهاديون طلبوا منّي، حين تَنبّهوا أنّني عارٍ إلّا من ملابسي الداخليّة، أن أتستّر:

ــ اتَّقِ الله وعقابه.

أقمتُ بينهم ثمانية وعشرين يومًا، هالني فيها أنّهم يُعامَلون برأفةٍ لا كسائر السجناء.

الأمن السياسيّ هو فرعٌ من أفرع المخابرات، مهمّته تَتبُّع المعارضين السياسيين. ذات يومٍ استُدعيتُ للاستجواب بعد أن

عصبوا عينَيّ. هذا لم يمنعني من فتْحِهما خلسة كي أرى مَوطِئَ قدمي.

ــ مازن الحُمادة. أنتَ خرجتَ للتظاهر وأهنْتَ الرّئيس.

مظاهرات؟ إهانة الرئيس؟ أهذه تهمتي؟ علمًا أنّني في فرع الجويّة اعترفتُ ـ تحت التعذيب ـ بأنّني حملتُ السلاح وقَتلْت. هنا، يتّهمونني فقط بالتظاهر. مجانين. جنونهم فاقعٌ.

قلتُ لهم: «نعم، خرجتُ للتظاهر. أهنْتُ بشَّار الأسد. نعم، لأنّه حمار».

«سدّ بوزك». قام السجّان فقيّدني، وأضحتْ يداي فوق رأسي. التعذيب مجدّدًا.

بكلّ الأحوال، وضْعي حسّاسٌ. ما زال الأمن السياسي يحتفظ بأمر التفتيش منذ كانون الثاني ٢٠١٢، وهو الأمر الذي عثَرَتْ عليه سارة في فيلمها الوثائقي.

انتظري، سأبدأ من جديد. سأحاول أن أتذكر. جنون... أقول لكِ.

في نيسان ٢٠١١ اعتقلني أمن الدولة بضعة أيام في دير الزور، ثمّ مرة أخرى في نهاية كانون الأول ٢٠١١، بسبب المظاهرات. في المرة الأولى خلَّوا سبيلي بلا محاكمة. قلتُ لنفسي: «لا داعي للمشاكل». في المرة الثانية أُطلِقْتُ من أسْرِي بموجب عفوٍ. انظري، لديَّ وثيقة تقول:

«بالإشارة إلى كتاب مكتب الأمن الوطني رقم ٢/١٩٩٧/أ ق تاريخ ١٥ ـ ١ ـ ٢٠١٢، وكتاب وزير العدل رقم ٢٥١٩/ت تاريخ ٢٠١١/٧/٢٩ و ٢٠١١/١٢/١، مذكرة وزير العدل بتاريخ ١٧ـ ١ ـ٢٠١٢

مَثَـلَ اليـوم الاثنـين ٣٠ـ ١ـ ٢٠١٢ السـيد مـازن بسـيس الحُـمادة مـن مواليـد ١٩٧٧.

وبنـاءً عـلى الإخبـار المرفـوع ضـدّه تـم اسـتجوابه حـول أمـورٍ منسـوبة إليـه، وتطبيقًـا للمرسـوم التشريعـي رقـم ٠١ تاريـخ ٢٠١٢/١/١٥ الخـاص بالعفـو العـامّ عـن رئيـس الجمهوريّـة العربيّـة السـوريّة تَقـرّر مـا يـلي:

إطـلاق سراح هـذا الشـخص وإيقـاف محاكمتـه بجريمـة التظاهـر المنسـوبة إليـه.

يُرجى قراءة هذه المعلومات وتعميمها على جميع المراكز».

الورقـة كـما ترَيْـن واضحـة: «يرجـى الاطـلاع عـلى هـذه المعلومـات وتعميمهـا عـلى جميـع المراكـز». لمـاذا لا يطّلـع الأمـن السـياسي عـلى هـذا التعميـم؟ مـاذا يفعلـون؟ يسـطّرون أمـر تحـرٍّ وجلـبٍ جديـد ضـدّي في ١٥ كانـون الثـاني.

في آذار ٢٠١٢ اعتقلتنـي المخابـرات الجويّـة في سـاروجة، وفي آب ٢٠١٣ خـلَّى سـبيلي القـاضي. وهـا هـو الأمـن السـياسي يعيـد اعتقـالي.

مكثـتُ في سـجنهم ثمانيـة وعشريـن يومًـا، ثـمّ أعـادوني إلى المحكمـة. بعدهـا إلى الزنزانـة القبـو مـرة أخـرى، ثـمّ الصعـود إلى الـدرج نحـو الطابـق الثـاني. يحـرس الطريـقَ رجـالُ الأمـن الواقفـون عـلى الجانبـين. لمحـتُ شـخصًا مـن ديـر الـزور يعمـل في المحكمـة. هُـرع نحـوي: «مـاذا تفعـل هنـا؟».

«مـن الجويّـة، إلى سـجنِ عـدرا، فالأمـنِ السـياسيّ. والآن إلى المحكمـة. هـي جولـة في أرجـاء سـوريا».

غرفة وسيعة في الطابق الثاني. منصّة. مُخبرون بملابس مدنيّة. المعتقلون ـ خمسة عشر على ما أظنّ ـ واقفون بصمت خلف بوابة إلى اليمين، بانتظار وصول القضاة. وصل القضاة، ومن بينهم مَن سبق أن خلَّى سبيلي.

يَفتحُ القاضي الملفَّ، ويُنادَى على المتّهم. وهكذا دواليك. أنا متّهم بالتظاهر؛ أمّا اعترافاتي الباطلة في الجويّة فلم يُؤخذ بها.

عرفني القاضي وابتسم: «إلى كم حُكْمٍ تحتاجُ؟ كم مرّة سأراك؟».

ــ «صحيح أنّك خلَّيْت سبيلي، لكنّهم أعادوني».

ــ «اذهب. أنتَ حُرٌّ. عُدْ إلى منزلك».

ــ ولكنّني في حاجةٍ إلى ورقةٍ منك تُسقط عنّي مذكّرة الجلب، فهي ما تزال سارية المفعول. لذا، أعادوني.

ــ ماذا تريد منّي؟

ــ أريد العودة إلى دير الزور. منذ عام ونِصف لم أرَ عائلتي. أريد ورقة رسميّة تفيد بأنّني حرّ.

ــ متى سَفرُك؟

ــ بعد يومين.

ــ «عُدْ قبل ذلك». ثم أشار إلى شرطيّ بأن يُيسّر لي أمري. نزلتُ معه إلى طابق الإدارة. وعَدَني بأن يتّصل بي حين تتوافر الورقة المطلوبة.

خرجتُ. أختي وأحد أبناء أخي ينتظرانني أمام الباب. تمكّنتُ ـ بالطرق نفسها ـ من إعلامهم.

الفصل الثامن والعشرون

عانقتُ أختي وابن أخي، غير مصدّق أنّني معهم. الزحمة خانقةٌ كالعادة ـ على ما يبدو ـ أمام المحكمة. استقَلَّتْنا سيارة أجرة إلى ركن الدين. فاقت أعدادُ ضباط الأمن في الشوارع ما اعتدتُهُ قبل اعتقالي. يعترضُ المارّةَ في نفق الثورة حاجزٌ مهمّ، يطلبُ منهم إبرازَ هوياتهم. قرب منزل أختي، نقطة تفتيش أخرى، تُوقفُ السيارات القادمة من برزة. بقينا صامتين ونحن في سيّارة الأجرة طوال الطريق، فالحذر واجبٌ من السائقين، وكثيرٌ مرتبطون بجهاز المخابرات.

أمُّ فهد وأختها أعدّتَا طبقًا لذيذًا من الخضار: بطاطا، وكوسا، وباذنجان، وطماطم، وخيار، ومَحشي ورق عنب، وملفوف. سعادتنا باللقاء بادية، بَيْد أنّها لم تَرْقَ إلى مستوى الفرح، ففهد وأبو فهد، ما زالا في الأسر. جلسنا على الأرض في الصالون، وأكلنا على حصيرة من البلاستيك الأصفر؛ أما السجّادة القطنية الملوَّنة، فنفرشها في الشتاء.

شارَكَنا في الوجبة إيمان وأمل (أُخْتَايَ)، وناصر (الذي اعتُقل معي شقيقُه محمّد). ومكثْنَا ساعتين أو ثلاث نتبادل أطراف الحديث، وأَسألُهم عن أخبار دير الزور.

ــ سوف ترى بنفسك حين تصل. سيخبرك إخوانك.

لقد أرادوا حمايتي. حذرَتني أختي قائلة: «لا تُغادر المنزل. ارتَحْ هنا. لا تتحرّك. الوضع خطير في الخارج».

كلًّا، أريد الخروج. ولكن، إنْ فعَلْتُ، فسأواصل ما قمتُ به بداية الثورة، وستنهال المشاكل من جديد. اشتقْتُ إلى ريف دمشق. فتحْتُ صفحة جديدة على الفيسبوك، وأعلنتُ خروجي من السجن. فصفحتي القديمة أغلقها أصدقائي حين اعتُقلت. يومها ظنّ الناشطون أنّني متُّ. بُعَيد فتح الصفحة تواصلَت معي الممثّلة يارا صبري التي اهتمّت بالمعتقلين، وجمعَت معلومات عنهم للمشاركة مع عائلاتهم وأصدقائهم.

ذات يوم، غادرْنا إلى دير الزور.

الفصل التاسع والعشرون

رأيتُ الخراب!

لا يمكنكِ تَخيُّل ما شعرتُ به من فرح، وأنا عائدٌ بعد عام ونصف إلى بلدي. فما عِشتُه في فرع الجويّة عارٌ على الإنسانيّة.

يا لسعادتي، وأنا أغادرُ سجن عدرا، علمًا أنّه إنْ قارنْتُه بفرع الجويّة، فهو أشبه بفندق الميريديان. لا تعذيب فيه. لكنّه ـ مَهْما وجَدْنا له أسبابًا تخفيفيّة ـ زنزانة. أمّا في الأمن السياسي، حيثُ جاورتُ الإسلاميين، فمعاملتهم «المُترَفَة» تثير الاشمئزاز. ودِدْتُ السفر على جناح طير أو على بساط ريح، كما في الأفلام، لبلوغ دير الزور.

مذ غادرتُ عدرا، رأيتُ الخراب بأمّ عيني، وكرهتُه.

أين أنتِ يا دير الزور؟ استقَلّتْنا حافلة. غادرتُ دمشق باتّجاه

الشمال. وعند الدوار على طريق حمص، رأيتُ مطالعَ الدمار. فعلى طريق حرستا، حيث وكالات بيع السيّارات، ركامٌ على بُعد عشرين كيلومترًا. وبعد حرستا عدرا، المُسَوَّاة بالأرض. أطلالٌ بأطلال، حتى وصلنا إلى الضُّمَيْر. صدمةٌ ما بعدها صدمة.

حين تكون معتقَلًا في فرع الجوية، يغيب عنك ما يحدث. يخبرك المعتقلون الجدد، بريبة في البداية، فهم لا يعرفونك، عن مشاهداتهم. وبعد حين تتوطّد الثقة. سُمِح لنا في سجن عدرا بمتابعة الأخبار على شاشة التلفزيون الحكومي. طبعًا علينا قلْبُ ما يُدْلُون به، فهذه المحطّات كذبٌ مُصَفّى. محامو المعتقلين يزورونهم أحيانًا، ويزودّونهم بالأخبار.

سمعتُ طبعًا بالدمار، والآن أراه بأمّ العين.

بعد الضُّمَير، مرّت الحافلة بحمص والرقة. توقفنا مرةً واحدة فقط، في الطبقة، لتناول الشاي. لم تَجْتزِ الحافلةُ المدن، بل سارت على طرق ريفيّة بين الحقول.

حين وصلْنا إلى الرّقة، نزلتُ من الحافلة.

-مازن...مازن.

ناداني صديقي حسن ـ سيُقتلُ بعد حين ـ تعانَقْنا، بكينا، قال لي:

- أخوك وأصدقاؤك ينتظرونك هناك.

رأيتُ شاحنة صغيرة للجيش السوري الحُرِّ، وعلى متْنِها أشخاص ملثّمون لا أعرفهم. نزلوا لاستقبالي، فتوجَّهْتُ نحوهم. خرج صدّام وقبَّلني منبّهًا: «سنغادرُ الليلة إلى الدير». ونحن في الطريق، سألت عن تفاصيل الوضع.

- طوِّلْ بالك، رَوِّق. حين نصل، نتحدث في كلّ المواضيع. سترى.

على الطريق بين الرقة والدير، أقامت داعش وجبهة النصر حواجزهما. يوقفوننا ويطرحون نفس الأسئلة: من وين الشباب؟ لوين؟ الهويّات.

طبعًا، لم يعجبني الأمر. ليتني مُتُّ ولم أرَ ما رأيت. قمنا بجولة في المدينة ـ جولة ملعونة ـ قبل أن نصل إلى البيت. دير الزور عبارة عن مدينة أشباح. أوّاه. كم كرهتُ عمري أمام المباني المتهالكة، المهدّمة، الآيلة إلى مزيدٍ من السقوط، والمتّحدة في ركامها كأنّها مبنًى واحد.

سألتُ أخي: «مَن؟ مَن وقّع على هذا المشهد؟». «النظام ببراميله المتفجرة وقنابله».

نِمتُ في مدينة الأشباح. أين نهر الفرات؟ أين مناظرنا الطبيعيّة الجميلة؟ تَصِلُني أخبارُ المقرّبين تباعًا: ميتٌ، ميتٌ، ميت. مُخْتفٍ. خطيبتي قتَلَها القصف. لا أريد التطرّق إلى الموضوع.

صدمة تِلْو صدمةٍ، تِلْو صدمة.

إعادة بناء الحَجَر ممكنة. حجرٌ على حجر. أمّا البشر، الرجال والنساء والأطفال والشيوخ، فيموتون بلا رجعة.

حركَتُنا انطلقَت سلمية، ثمّ اندلعتِ الحرب. مع الثورة، أدركنا معنى الحياة وحقوق الإنسان، وبدا لنا أن التغيير ممكن. نظّمْنا أنفسنا، وخرجنا أيام الجمعة، وخطَّطْنا للمظاهرات. كتَبْنا شعاراتنا الظريفة على اللافتات. غنَّيْنا، والنساء زغردن. يا له من جوّ حماسي.

نسّـقْنا. بعضنـا صـوّر أفلامًـا، وبعضنـا التَقَـط صـورًا. محافظاتنـا ومُدننـا يـدٌ واحـدة: «نحـن معكـم حتـى المـوت».

هتَفْنا لإلغاء حالة الطوارئ والأفرع الأمنيّة:

حُرْ حُرْ حُرّيِّة | ثورتنا كانت سلميّة يا غصن الزيتون

وبدنا نشيلو لبشّار | لَحْ نحرّر سوريا من هالطغيان|

نحن بدنا حرّية.

عـدتُ إلى بلـدٍ مشـلّعٍ ممـزّق، إلى مجتمـع مفـكّكٍ منقسـم، إلى طوائـف وقبائـل وأعـراقٍ وفصائـل. هـو بلـد منقسِـم عـلى نفسـه، حاجـبٌ فكـرةَ سـوريا. كلّ مـا حـولي مخلّـعٌ في الديـر. ابـن الكلـب، أتْقَـن مَقُولـة «فَـرِّقْ تَسُـدْ».

الفصل الثلاثون

في الليلـة الماضيـة، شربـتُ فنجـان قهـوة بعـد صعـودِك لتَخْلُـدي إلى النـوم. بعدهـا أوَيـتُ إلى فـراشي. ثـم بعـد سـاعة اسـتيقظتُ خائفًـا. إنّهـا الكوابيـس. هزيـز الريـح وصفيرهـا زادا مـن الْتِياعـي. شـعرتُ بالـبرد، فنهضـتُ ووضعـتُ قطعـة حطـبٍ في المَوقِـدة. تغطَّيـتُ بِبَطَّانيةٍ وغفـوت عـلى الكـرسي حتـى الرابعـة والنصـف صباحًـا، هكـذا، متقوقعًـا أمـام المِدفـأة.

- أيُّ كابوس راودك يا مازن؟

-وجعٌ في الرأس. لستُ بخير. صُداع عجيب. ما إنْ يزول، حتى أحاول أن أتذكّر.

- انتظِرْ، لِنُضِفْ حطبًا في المِدفأة.

- هل كلّ شيء على ما يرام؟ هل تتدبرين أمْرَك؟ سأساعدك على حملها. كلّا. رأسي سينفجر.

إنّكِ تعرفين أنّهم يريدون التحكّم في العباد بحسب مشيئتهم. ويريدونهم أن يَقْبلوا. عبثًا، عبثًا.

بِاسْم الدم المُراق لا اتِّجار بقضيّتنا. عبثًا يحاولون، عبثًا.

الروس والإيرانيون والتواطؤ الدولي.

الروس والأميركيّون متفقان على الجوهر. لقد تَوَصّلا إلى اتفاق: كلّ واحدٍ منهما يسيطر على ضفّة من النهر. يتصرّفان كما لو أن أرضنا ملْكٌ لهما. فتحا الطريق للميليشيات الإيرانية، والروسية، والأكراد «حزب العمال الكوردستاني»، ليحاربونا. الطيران يحلّق فوق رؤوسنا.

لكنّنا لن نَقبل ذلك، إنّها أرضنا.

هؤلاء جميعهم يدعمون النظام. يساعدون النظام. أتفهمين؟ أجِندات الدول ليست في حُسْباني، ولا أدعم هذا البلد أو ذاك. أفكاري لي. أتصرّف بحريّة. أتحدّى أيّ واحدٍ أن يقول العكس.

نحن مَن ثار مِن أجل حقوقنا، ومِن أجل بلادٍ مزدهرة وديمقراطية. وأنتم، هنا، ما مآربكم؟ تريدون وضع اليد على

مـوارد البـلاد وثرواتهـا، وتتركـون لبشّـار سـلطته. اللعنـة. يـا لهـا مـن وقاحـة، يـا لهـا مـن صَفاقـة.

بالنسـبة إليكـم، كلُّ شـخص يقـاوم هـو إرهـابيّ. مـع كلّ مـا يحـدث، كيـف لا ينخـرط النـاس في تنظيـم مثـل داعـش؟ لكننـي أنـا، أرفـض التطـرف.

لقد خانوا الثورة. وأنا لا أحب الخوَنة. أنا غاضب، غاضب.

ألستِ غاضبة؟

أهـالي ديـر الـزور تَعرّضـوا للخيانـة. أولئـك الذيـن فـرّوا مـن البلـد، هُـم مَـنْ يحملـون الآن جنسـيّات أجنبيـة. ترَكونـا وحدنـا. مـع أنّنـا كنّـا قـد دعمناهـم. لقـد قاومنـا، وبقينـا، ودفعنـا الثمـن.

أنـا مرهـق. بِـتّ يتيـمًا اليـوم. لم يبـق لي أحـد. العـالم تخـلى عنّـا، حاربَنـا. دعْـمُ الـدول لنـا سـطحيّ، فهـم ليسـوا في صفّنـا. تَفتّـت مجتمعنـا. كيـف لنـا بعـد كلّ مـا حـدث أن نعيـد بنـاء هويـة وطنيّـة سـوريّة؟

برجوازيُّـو دمشـق، والتجّـار الموالـون للأسـد، يظنّـون أنّنـا مزارعـون. يعتقـدون أنّنـا مجـرّدُ فلاحـين يعيشـون خـارج أسـوار المدينـة.

سـأُصَفّي حسـاباتي. مـا زلـت أراهـم. مـا زلـت أراهـم. لا بـد أن أُفـرّغ جَعبتـي. تعالَـوا.

أكرَهُهم، أكرَهُهم، أكرههم.

كيـف لي أن أحبهـم؟ أكـره طائفيتهـم، ومرَضَهُـم. خمسـون عامًـا مـن طائفيـة آل الأسـد. تمنّيـتُ لهـم مـع انـدلاع الثـورة أن يصبحـوا رجـالًا صالحـين. لكـن لا.

ما العمل مع هذا الفصيل من البشر؟ أُقسم أنني لا أسامحهم. لا أريد العيش معهم بعد الآن، حتى ولو كانوا من أبناء بلدنا. لن أنسى حقوق شعبي، ولا أمل في تجديد الثورة ما لم يُعاقَب مَن خانها.

أريد أن أعود إلى سوريا، وإلى دير الزور، وإلى دمشق، كي ألتقي بالمحتاجين إلى مساعدة. أودّ أن أعالج كلّ من تعذّب من أهل الريف، وأن أؤسّس منظّمة غير حكومية ليست كباقي المنظمات غير الحكومية الدولية أو السورية، بل منظمة غير حكومية حرّة ومستقلة، أدعمها براتبي بصفتي تقنيًّا في شركة شلمبرجيه. عندما يستقر الوضع مجدّدًا، وعندما أُصبح نفسيًّا أكثر استقرارًا أيضًا.

اثنان من أبناء أخواتي، عالقان في اليونان. يا لبؤسي، لا أستطيع مساعدتهما. لقد تقطّعَت بهما السُّبل في اليونان بلا مال. يريدان الهجرة إلى أوروبا. أساعدهما كيفما استطعْت، أتفهمين؟ بِودّي أن يُقبَلا لاجِئَيْن سياسيَّيْن، فالنظام يبحث عنهما. إلى أين يمكنهما الذهاب؟ هل تفهمين ذلك؟ لا أستطيع. لقد انتهى الأمر. إنهما في مخيّم، وكلّ الأبواب موصدة.

من دون مال، تتحوّل الهجرة إلى اتجار بالبشر. كارثة. أتفهمين؟ يفكران، وقد سُدّت سُبل العودة إلى سوريا.

النظام، والتركيبة، والتَّوَهان، وينتهي الأمر. تفهمين؟ أليس كذلك؟ شيئًا فشيئًا، إلى أن أعود مجددًا. لكن، الآن بدأ عقلي يستيقظ، شيئًا فشيئًا. شيئًا فشيئًا. شيئًا فشيئًا. لكن الآن بدأتُ أرى رؤيا، أشعُر بعينَيَّ تخرجان من مآقيهما، هكذا. هكذا. هكذا. جَمْر. عيناي تَخرجان من محاجرهما.

أربـط المـاضي بالمسـتقبل. أرى المسـتقبل. منـه يُبرعَـم الأمـل، والنـور. يريـدان مغـادرة مكانهـما، عينـاي تحترقـان. تحرقانـني. تغـادران مكانهـما. أشـعر في داخـلي. يصبـح هكـذا. دمٌ أحمـر. دمٌ أحمـر. عينـاي تصبحـان حمراويـن.

لا تشوّهوا التاريخ.

∴ «يا لَرُعْبي ساعةَ
أَدْرَكْتُ هُلاميّتي وألَّا أحدٌ يراني
وأن لا بدّ من ذَرّ شتولٍ من عيون
أيا زارع العيون أدْرِكنا!»

عملَـتِ الأكاديميـة والمترجمـة لوبـا يورغنسـون عشريـن عامًـا عـلى كتابـات فـارلام شـالاموف. وقـد وجـدتْ هـذه الأبيـات في أرشـيفه الموسـكوفي، وهـي بتوقيـع فِليمـير خلِبنيكـوف، شـاعر تِيـه، قراءتـه واجبـة. عـاش خلبنيكـوف مـن عـام ١٨٨٥ إلى عـام ١٩٢٢؛ شـهد تجـاوزات الثـورة الروسـيّة في آخـر سـنوات حياتـه: البوليـس السـياسي، والإرهـاب، والمجاعـة، وسـفك الدمـاء.

نسـخَ فـارلام شـالاموف ـ وهـو كاتـب مرجعـيّ في موضـوع المعتقـلات السـوفياتيّة ـ هـذه الرباعيـة، بخـط كبـير في أحـد دفاتـره. تقـول لوبـا يورجينسـون: إنّ فـارلام شـالاموف شـاهدٌ غـير مـرئي. شـاهدٌ رفـض العـالمُ رؤيتَـه. لـذا، عنْوَنَـت كتابهـا عنـه: «زارع العيـون»، وهـو رحلـة في أفـكار شـالاموف وكلماتـه، ونُتَـفٌ لا تخضـع لتسلسـل زمنـي لسـيرته وخياراتـه المتناقضـة، ورحلـة في شـعاب «ذاكرتـه المراقبـة». هـو «زارعُ العيـون»، بحسـب الكاتبـة. رُحِّـل فـارلام شـالاموف إلى المعسـكرات مـدة عشريـن

عامًا: من عام ١٩٢٩ إلى عام ١٩٣٢ في فيشيرا، ثمّ من عام ١٩٣٧ إلى عام ١٩٥٣ في كوليما. أُدخِل السّجن وهو في سنِّ الـ٢٢ وأُطلق سراحه وهو في سنِّ الـ٤٦ بعد إخلاء سبيله من معتقل كوليما، تَشاجر فارلام شالاموف مع الجميع.

فارلام شالاموف. من زمان أَنظرُ إلى صُوَره، صُوَرِه بالأبيض والأسود. أُحدِّقُ في عينيه الداكنتين، وفي نظراته العميقة، مُحاوِلةً أن أَلْمح... أَلْمح ماذا؟ مُتأمّلة أن أفهم، متأمّلةً أن أجد ـ ربّما ـ نظراتك أنت يا مازن.

جُلْتُ ذهابًا وإيابًا، بين صُوَره وكتاباتِه عن الإرهاب السوفيتي داخل المعتقلات. دنَوتُ من عزلته عزلتك، ومعاناته معاناتك، الحقيقيَّتَين.

رأيتُ في بوح شالاموف بارقةً:

«أَأَبْلُغُ السلام؟ لا.

لا في الحلُم، ولا في الواقع

لأن هذا العُواء

عواء ذئبي، هو صمودي».

اختار راديكاليَّتَهُ كخشبة خلاص.

لقد أدركَ [في المخيمات] أن الغضب هو ما يبْقَى لمن سُلبَ كلّ شيء. فالإنسان المتضوِّر جوعًا، الذي أضحى كومة من العظام، هو كتلة من الغيظ. لا يبالي بكلّ ما تبَقّى. الغيظ وعْدٌ مريح، أو قُلْ فوضى خلّاقة.

الذكريات السيئة تَضطهد صاحبها؛ أمّا فنُّ الحياة ـ إنْ وُجد ـ فزبدته النسيان. ❖

الفصل الواحد والثلاثون

تسألينني لماذا لا أجتهدُ في تحسين لغتي الهولنديّة. بعد كلّ ما عشتُه من صدماتٍ، ذهني مكبّلٌ. إتقان لغةٍ جديدة يتطلّب صفاءً ذهنيًّا، ورأسي مشغولٌ بمئة همٍّ وهمّ، تمنعني من التركيز.

ضعي نفسك مكاني بصفتي إنسانًا. عندما كنتُ طفلًا، وعندما كنتُ صغيرًا، وكنتُ حرًّا أتصرّف بلطفٍ واحترام.

حياتي، وطفولتي وشبابي، حتّى عمر الرابعة والثلاثين، سعيدة؛ أمّا حين بدأت الثورة عام ٢٠١١، فتبدّلت الأمور.

لو نجح النظام والمخابرات في الهيمنة على ضمائرنا، لكان إخوتي وزراء. إنّهم مثقفون وأذكياء، لكنّهم ظلّوا يقولون: إن هذا النظام تديره مجموعة من المجرمين والقتلة. في الدير، يحبُّنا الجميع، لأنّنا نتصرف بشكل لائق.

بعضُ الناس رهانهم مادّيٌّ بحت. لسنا منهم. المال. ما قيمته؟ يَرحلُ الإنسانُ عاريًا. تبقى الذكريات. تبقى قيمٌ: كاللطف والتهذيب والاحترام.

أجدُ صعوبةً في تعلّم اللغة الهولندية. كما تعرفين، ضُربتُ في السجن على رأسي. حين أُطلِقتُ من أسْرِي، رأيتُ بلدًا مدمَّرًا.

ركبتُ البحر، ومشَيتُ، واختبأتُ. الوحشيّة صدمَتني مرّة تِلْو الأخرى. بوم. بوم. بوم.

شعرتُ بأنّني أحترق، ووجهي يشتعل. كنتُ منهكًا. ركبتُ البحر، واختبرت الجرَب والمرض في الطريق، إلى أن وجدتُ مرتعًا هنا في هولندا. التسوّق، الطبيب، أمور يوميّة أدبّرها بما أعرفه من لغة. أمّا الباقي، فصعب. نعم صعب. بعض أفراد عائلتي في السجن، وبعضهم يعيش تحت القنابل، وبعضهم الآخر مختبئ. إنْ أردتُ تعلّم اللغة الهولندية، فلا بد من صفاءٍ ذهنيٍّ، ومن هدوء يطول ستّة أشهر. بعد ذلك ستَرَيْن. سأصبح بُلبلًا.

الفصل الثاني والثلاثون

فقدتُ ذكرياتي.
ضربوا ذاكرتنا. دمّروها.
لكنّني بما عشته من معاناةٍ قويٌّ.

هدموا الجسر المعلّق، لكنّه سيبقى معلّقًا في أرواحنا. جسرُ دير الزور مهمٌّ لأهل المدينة، وهو مرتبط بالكثير من الذكريات، والعشّاقُ أحبُّوه متنزَّهًا. كانت الدوابُّ أيّام زمان تَعبرُه. لكن، منذ طفولتي بات مخصصًا للمشاة والدرّاجات الهوائية والبخاريّة. كان الكورنيش يَضمُّ حوله المقاهي وأكشاك المرطبات، ومقصدنا في أمسيات الخميس حيث يجتمعُ السوريون بالزوّار الأجانب. نضع لِترَيْن من العَرق على الطاولة، ونفتتحُ واحدًا من نقاشاتنا السياسيّة. أنادي عبد العزيز: «تعالَ، معنا أجانب». يُتقن عبد العزيز الإنكليزية، وسوف يشرح لهم ما يَودّون معرفته عن بلادنا.

انفطر قلبي عندما سمعتُ خبر قصف دير الزور وأنا سجينٌ في عدرا. بناه الفرنسيون، لا الوغدُ المعروف لديك. قصَفه هو وأتباعه، لأنّهم يَعلمون علم اليقين ما سيَعنيه الأمر لنا. دمَّروه ليحطّمونا، كما لو أنّهم قتَلُوا لكِ عزيزًا أو حبيبًا.

عندما رأيتُ الجسر في طريق العودة إلى الدير، شعرتُ بالذهول. أوقَفْنا السيارة في أحد الأزقة، ثمّ تابعنا سيرًا. كان قنّاصة النظام منتشرين على سطح مستشفى أمراض القلب، يطلقون النار على المنطقة بكمالها. مشينا محتَمِين بسياج من النبات وأشجار الكِينا. كانت المدينة مدمَّرة، لكنّ منظر الجسر المنهار صعقني.

كنّا ننظّم سِيرانًا هناك، ونقضي أمسيات في السُّرادق المنصوب على ضِفَّة النهر. لقد استضاف الجسر مَعارض ثقافية. خلال الثورة، كان المتظاهرون يَعبُرونه من كلِّيّة الزراعة إلى الساحة الواقعة تحته، حتى إنّ بعض المظاهرات أقامها سبّاحون في الماء رافعين علم الثورة.
ربط بين ضفّتي البلد. مِن جهتي عشتُ في الجزء الغربي.
استهدف النظام بقصفه الجسر الديمقراطيّةَ والقيم الإنسانيّة. ما فعلوه شطَرَ الإنسان إلى نصفين. أظلمَتِ الدنيا والرؤيا، وأضحى القتال يومها أكثر ضراوة.

مرّةً، هربتُ كي أراه. كانت أوّلَ مرَّة أهرُب فيها من المدرسة.

كنّا ستة أو سبعة من المدرسة الابتدائية، وكان عمرنا يُقارِب عشر سنوات. أردنا تَسلُّق الجدار، وكان الأمر هيّنًا بالنسبة إليّ. فأنا طويل القامة، أمّا زميلي القصير فضبَطه مدير المدرسة. وفي دفاعه عن نفسه، قال: «لم أفعل شيئًا. لم أفعل أي شيء».

كنّا قد هربنا، لكنه أجبره على التصريح بأسمائنا. فوقعَت الواقعة،

وجرى إبلاغ عائلاتنا. عدتُ إلى المنزل، وواجهتُ أبي:

- أبي، أريد أن أبوح لكَ.

والدي طيب القلب وحنون.

- أبي، إن أخبَرَك المعلم غدًا أنّني ارتكبتُ غلطة، فهل تقول له إنّني اعترفتُ لك، وإنّك عاقبتني؟

- ماذا فعلتَ يا مازن؟

- أردنا الذهاب إلى الجسر المعلّق. ودِدتُ الذهاب إلى هناك منذ فترة طويلة.

- سأطلب من أحد إخوتك أن يصطحبك.

- ولكنني هربتُ اليوم من المدرسة للذهاب إلى هناك، فقبضوا علينا.

كنا وحدنا في غرفته. «مَن معنا مِن الإخوة في البيت؟» سأل أبي. لم يكن أبو الجود ـ وهو ألطفُهم ـ موجودًا، بل عبد الرزاق الصعب المراس (يَدُه والكفّ):

- إخوتي ليسوا هنا يا أبي.

بعد قليل وصل عبد العزيز، هو بلطف أبو الجود. صحيحٌ أنّه غضوبٌ، لكنّه أيضًا مُسامحٌ. أنهَى التقريع قائلًا: «لا تُكرّرها. حسنًا؟». أخبرْتُه أن والدنا كان يسأل عنه، ثمّ ركضتُ لأخبر أبي أن عبد العزيز قادم. تَحدَّث الاثنان معًا، وقرّرا أن يذهب والدي لمقابلة الأستاذ في اليوم التالي، ذلك أنّ والدي يحترمه كلّ أهالي الدير.

في صبـاح اليـوم التـالي، ارتـدى عباءتـه وكُوفيّتـه الحمـراء والبيضـاء. وصلْنـا إلى المدرسـة، وهـو يتـوكّأ عـلى أجمـل عصـا عنـده. طـرَقَ بـاب مكتـب مديـر المدرسـة:

- تفضلوا بالدخول. مرحبًا بك يا أبا زهدي.

كان الابـن البكـر لوالـدي، أخـي الأكـبر، يُدعـى زهـدي. لقـد تُـوفِّيَ قبـل بضع سـنوات.

- مازن، انتظِرني في الخارج.

كان أصدقـائي يلوِّحـون لي مـن بعيـد، وهـم بِمِـلْء أشـداقهم يضحكـون. قـدّم لـه مديـر المدرسـة كوبًـا مـن الشـاي، وشرح لـه أنّنـي أُسـبّب المشـاكل في المدرسـة، وأتشـاجر دومًـا. وعَـدَه والـدي بأننـي سـأعترف بأخطـائي وأتـوب.

- أراد ابنـي الذهـاب إلى الجـسر المعلـق بالأمـس. لكنّـه سـيأتي ليقـدّم اعتـذاره.

- إذن، لمـاذا لا ننظّـم زيـارةً لِلجـسر مـن أجـل التلاميـذ يـا أبـا زهـدي؟ مـازن، تعـالَ إلى هنـا، اذهـبْ وأخـبِرِ الحـارس أنّنـا سـنقوم بزيـارة يـوم الجمعـة المقبـل، في السـاعة العـاشرة صباحًـا. التسـجيل للرحلـة سـيكلف خمـس لـيرات.

طبَـع الحـارس الإعـلان، وعلّقـه عـلى بـاب المدرسـة. وقمتُ بالتسـجيل. جهّـزَت لي أمـي مـن أجـل النزهـة سَـلَطة وفاكهـة وعصائـر، ثـم وضعَتْهـا كلّهـا في كيـس كبـير. في يـوم الجمعـة، أخذتُهـا معـي إلى الحافلـة. فذهبنـا إلى الجـسر، وسـبَحْنا.

كنـا فخوريـن بجسرنـا، وكان مكانًـا للمـرح ولقـاء النـاس، وحلقـة وصـل بـين شرق الفـرات وغربـه. وسـنعيد بناءه.

∴ أخوك الأكبر تَحطَّم قلبه أيضًا، لمّا دُمِّر الجسر المعلّق.
فهمتُ من رسالته الرائعة والمؤثرة يا مازن لماذا ظلَلْتَ تَذْكُر الجسر، «جسرك»:

«هل تعلمين يا سيدتي أنه في ٢ أيّار ٢٠١٣، يوم فَجّر النظام الجسر المعلّق، عَلا ندبُ النسوة والأنين ـ وهو ما لا يُسمع إلّا عند موت الأحبّة ـ في سماء الدير. هو أحد جسور المدينة السبعة. رمزيّته عاطفية واجتماعية عند جميع السكّان، وهو يربط بين ضفتي نهر الفرات وشطرَي المدينة، وهو أوّل مَعْلَم من هذا الحجم يُبنى فوق النهر.

لكل مدينة رمزها، وهذا الجسر كِناية عن دير الزور.

على ضفاف النهر، شُيّدَت المطاعم الشعبية. ولِكلٍّ دَيْرِيٍّ ذكرياتٌ مع أحبائه فيها. إنه جسر العشّاق. دعيني أُخبِرْكِ عن أحد طقوسنا «المقدّسة» المرتبطة بهذا الجسر. كانت الجَدَّات يَحملن أحفادهن وحفيداتهنّ قبل أن يَبلغن الأربعين يومًا، ويَسِرْن بهم عليه، لتوكيد ما يربط الأجيال بهذه الأرض، وبنهر الفرات العظيم. رحلةٌ أشبَهُ بالمعموديّة الاجتماعيّة، بالموروث.

عسى كلماتي تشرح لكِ بعض ما خسرناه». ∴

الفصل الثالث والثلاثون

لقد كرّرتُ روايتي. كرّرتُها بلا ملل.
أربعَ سنوات ونِصفًا أتنقّل من مدينة إلى أخرى، من أجل الدفاع

عـن قضيـة الشـهداء والمعتقلـين: جنيـف وباريـس وواشـنطن، وبحضور منظـمات حقـوق الإنسـان. ثـم إنّنـي سـافرتُ إلى ماليزيـا. لم أرفـض يومًـا الاسـتجابة لرسـالة أو دعـوة، مكتفيًـا ببطاقـة قطـار أو حافلـةٍ ومـكانٍ للنـوم. وهـا أنـا مسـتعدٌّ للعمـل. أمـا الباقـي، أيْ مصاريفـي الشـخصية وسـجائري، فكنـت أتكفّـل بهـا. أنـا إنسـان كريـم النفـس، لا أُذلُّهـا طلبًـا للمسـاعدة.

أحيانًـا أمُـرُّ بأوقـات عصيبـة، فتُلِـحُّ فِيَّ فكـرةُ أن أنـأى بنفـسي، وأن أرتـاح بضعـة أيّـامٍ كي أُعيـدَ قـراءة مـا حـدث، وأسـتعيد عافيتـي كي أعُـود أقْـوَى. لا أُدافـع عـن قضيـة الأسرى فقـط، بـل أُدافـع عـن قضيـة المقاومـين أيضًـا، الذيـن لا يزالـون في الداخـل، والذيـن يحتاجـون إلى الدعـم.

الشهادة واجبٌ أخلاقيّ.

سـافرتُ إلى الولايـات المتحـدة مـدة شـهر. اشـتريتُ بدلـة كي أبـدو لائقًـا. أُفضّـل الملابـس العاديّـة، إذْ لا أُحـبُّ الرسـميّات، لكنّنـي أُرغمتُ. هنـاك أَدليـتُ ـ بـكلّ صـدق ـ بشـهادتي أمـام أنـاسٍ عاديِّـين وسياسـيين ودبلوماسـيين. مَـن سـمعني، تَأثَّـرَ أيّمـا تأثّـر.

لقد تقيَّأتُ أربع مرات.

مـا قُلتُـه أضحـى موثّقًـا. التوثيـق مـن ثقافتكـم. ثـم إنّ المحطّـات التلفزيونيّـة تَبـثُّ بالمبـاشر. ذهبـتُ إلى ألمانيـا حيـث عُـرض فيلـم سـارة. الفيلـم واضـحٌ وصريـح، والنـاس يَعرفـون اليـوم مـا قُلتُـه، لأنـه صـار بديهيًّـا. لـذا، أَودُّ العـودة إلى سـوريا. فالشرفـاء هنـاك يواصلـون العمـل مـن أجـل الثـورة. لمـاذا لا أعـود للقائهـم؟ للعمـل مـن الداخل؟ وهنـاك، إمـا أن ننجـح معهـم، أو نمـوت شـهداء، هِبـةً للثـورة والبـلاد.

لكـن، حـذَّرَني أهـلُ الداخـل وأصحـابي قائلـين:« مِـن الأفضـل أن تبقـى في الخـارج للدفـاع عـن القضيـة». لكنّنـي متعـبٌ، مُرهـق. أُقسِـم لـكِ بذلـك. أنـا مُنهـكٌ. هـم لا يَعرفـون إلى أيّ مـدى.

∴ «بالنسـبة إليّ، هنـاك أمْـرٌ لا أقْـوَى عـلى تَقبُّلـه، وهـو أن يَقْبـل ملايـينُ الغربيِّـين التوفيـقَ بـين المبـادئ الديمقراطيـة والاحتجاجـات ضـدّ الظلـم الاجتماعـيّ، مَهْـما كانـت أشـكاله، والمحافظـة عـلى إرهابٍ جـليٍّ وعـارٍ مُشـينٍ، لم يَعُـد مـن الممكـن تَجاهلُـه اليـوم».

يعُـود تاريـخ كتابـة هـذه الجمـل إلى عـام ١٩٤٧. كتَبَهـا جوليـوس مارغـولان، وهـي موجـودة في خاتمـة كتابـه «رحلـة إلى بـلاد زو ـ كا». وهـو عمَـلٌ يقـع في ٨٠٠ صفحـة تقريبًـا، وقـد كُتب ـ بحسـب ما يشـير مؤلِّفـه ـ مـن أجـل «المدفونـين وهـم أحيـاء»، في معسـكرات الاعتقـال السـوفيتية. وُلـد جوليـوس مارغولـين، وهـو دكتـور في الفلسـفة، لعائلـة يهوديـة في بيلاروسـيا. اعتقلَتـه وزارة الداخليـة السـوفيتية في بولنـدا (المسـمّاة القوميسـار الشـعبي للشـؤون الداخليـة) عـام ١٩٣٩، عـلى يد الشرطـة السياسـية في موسـكو، ثـمّ أُرسِـل إلى المعسـكرات حيـث قـضى فيهـا خمسـة أعـوام. عنـد عودتـه، تَعهّـد بـأن يكـون شـاهدًا عـلى كلّ تلـك الاحـداث، وهـذا مـا فعَلـه ـ حتـى وفاتـه عـام ١٩٧١ ـ كتابـةً، حـين سرد بدقّـة الممارسـات الوحشـيّة التـي تُجـرّد المعتقَـل في الغـولاغ مـن إنسـانيّته، وتأمّـل في أحـوال الوظيفـة الاجتماعيّـة للكراهيـة؛ ثـمّ فعَلـه مشـافهةً، شـارحًا إحجـام العـالم الغـربي عـن الاعـتراف بحقيقـة المعسـكرات السـوفيتية، لا سـيما أنّ التنظيـمات اليسـارية فضّلَـت حينـذاك التذكـير بـدور الاتحـاد السـوفيتي، ومسـاهمته في هزيمـة النازيّـة.

عندمـا نُـشر كتابـه في فرنسـا عـام ١٩٤٩ أوَّلَ مـرة، حُـذف ثلـث محتواه الأصـلي. ثـمّ أُعيـدَ نـشره في العـام ٢٠١٠ بعـد مراجعـة الترجمـة

وإكمالها، بعناية لوبا يورجينسون، المتخصّصة في أدب معسكرات الاعتقال السوفيتيّة.

كتب مارغولين: «ما عشتُه في الاتحاد السوفيتي كابوسٌ رهيبٌ، على أقلّ تقدير. حينما عدتُ إلى أوروبا، رأيت أن واجبي والتزامي الأوَّلَيْن يُمليان عليّ أن أنقلَ ما عانيتُه، وأن أحمِل للعالم نداءات استغاثة ممَّن هم معزولون عن العالم.

لكنّه اقْتَضى أن أَلْتَقي بغربيِّين أحرار، كي أفهم بعمق محنة الأسرى. حين غادرتُ معتقَلي وأسلاكه الشائكة، اصطدمتُ بجدارٍ حجريٍّ ثانٍ، جدار أقامه الجبن والخيانة».

جبنٌ. خيانةٌ.

كيف يمكننا الوقوف في وجه هاتَين الحقيقتَين؟ وكيف يمكننا ألّا نُجَنّ عندما يفضّل الغربُ غضَّ الطرف عن جرائم نظام قتل ـ بحسب ما تُظهره الأرقام ـ تسعة أضعاف عدد الأشخاص الذين قتلهم جهاديُّو «الدولة الإسلامية»، وبأبشع طريقة ممكنة؟ وكيف يمكننا أن نحافظ على سلامة عقولنا؟ وكيف يمكننا الوقوف في وجه الجبن والخيانة؟ ∴

الفصل الرابع والثلاثون

انظُري، إنّه هو. أنا متحقِّق من أنّه هو.
نفس القميص القطني. هذه صورةٌ له حيًّا، وهنا صورة له ميتًا. يمكنكِ أن تَرَيْ أنّ الصورة التُقطت في زنزانة: البلاطات الصغيرة

الحجم، وهو ممدّدٌ على الأرض والدم يقطر من رأسه. لا يمكنكِ رؤية وجهِه، ولكنْ هذا هو، وهذه هي أرضية الزنزانة. إنّه فهد.

عنصرٌ من المخابرات أرسَل إليَّ هذه الصورة. أنا ابن المنطقة. لذا، أعْرِف الناس هناك. أرسَلها إليَّ مع سؤال: «أليس هذا فهْدًا؟».

عندما رأيت الصورة، لم أستطع النطق، ولم أعرف ماذا أقول، ولم أعرف ماذا أفعل.

قبل ذلك، أطلعَني صديقٌ على صورةٍ من ملفّات قيصر. تلك الصورة أرسلتُها إلى أبو الجود وكرم وعمر وأبناء عبد العزيز، الذين يعيشون في الخارج. أرسلْتُها إلى... إلى من أيضًا؟ أرسلْتُها إلى أكثر من شخص، وإلى أصدقاء فهد، وسألتهم هل كان هو في الصورة أم لا. قالوا جميعًا: إنه يشبهه، لكنّهم لم يؤكدوا أنّه فهد. كأنّهم لا يريدون أن يَجزموا: «ربّما. يشبهه». كأنّهم يَخشون اليقين. حتى إنَّ أبو الجود، وهو موضع ثقة، لم يشأ أن يقول هل الذي في الصورة فهدٌ أم لا.

هل تفهمين؟ أنتِ تعرفين ما أعنيه، أليس كذلك؟ أنا مُقتنع بأنّه هو، وكذلك عائلتي، لكنّهم يكذبون على أنفسهم، ولا يريدون الاعتراف بذلك لحماية والدته. إحدى أخواتي هَلَعَت عندما نظرَت إلى الصورة. أجهَشَت، ولكن بعد بضعة أيّام قالت: إنّها لا تظنّ أنّه هو.

الكلّ يقول: ليس هو، لكنّهم كلّهم يكذبون. لو اعترفوا فقط، لو اعترفوا بأنّه فهد، لكنتُ سأنفجر.

لو مات فهد، لثَأرْتُ له. سيكون لدينا وقت، هم وأنا، وسيكون لدينا مُتّسع من الوقت لذلك. إنْ أُطيحَ ببشار الأسد، فلن أنتقم. هذا إنْ أُزيحَ عن الحكم. لا شيء. ينتهي الأمر. لا أحد. بمجرّد أن

تجـري إزاحتـه. لـكي أرى عزرائيـل. عندمـا أرى بشّـارًا، أرى عزرائيـل، فيختلـط الأمـر عـليّ.

في أيامـي هـذه، عندمـا أتَّصـل بإحـدى أخَـواتي، أسـألها عـلى الفـور مَـن معهـا. فـإنْ كانـت أمُّ فهـد معهـا، أقـول لهـا ألَّا تخبرهـا بأنّنـي المتّصـل. لم أعـد أسـتطيع التكلّـم مـع أم فهـد. أتجنّـب الاتصـال بهـا. إنِ اتصلَـتْ بي، فأنـا مضطـرّ إلى الـردّ عليهـا. ولكـن، عندمـا تنتهـي المحادثـة، أرمـي هاتفـي صـوب الحائـط. أكاد أُجـنّ.

أحيانًـا، تذهـب أم فهـد إلى الشرطـة العسـكرية، لتسـأل عـن فهـد وزوجهـا. لكنّهـم لا يعطونهـا أيّـة معلومـة. هـي لا تَعْـرف هـل كانـا عـلى قيـد الحيـاة. لا يقولـون لهـا شـيئًا. وعـلى أيّـة حـال، فإنّهـم لا يـردّون جثـث المـوتى، وأحيانًـا يـردّون بطاقـات هويّاتهـم.

مـات داود ـ ابـن عمـي اللَّـزَم ـ تحـت التعذيـب. هـو ابـن عمّـي أحمـد، ونحـن مِـن نفـس العمـر. اسـتُدعيَت عائلتـه لاسـتلام متعلقاته. فأعـادوا لهـا بطاقـة هويّتـه، ورخصـة القيـادة، والأوراق التـي كانـت في حوزتـه.

ليـس لدينـا أيُّ معلومـة عـن أيٍّ مِـن أبي فهـد، أو فهـد، أو عبـد العزيز، أو محمّـد. أُقسِـم بأنّنـا لا نَمْلـك أي شيء عـلى الإطـلاق. مـا زلـتُ أبحث عـن معلومات.

تَعْـرف أمُّ فهـد أنّنـي مـا زلـتُ أبحـث عـن فهـد، عـن طريـق معـارفي. أُرسِـلُ احيانًـا اسـمه لمعرفـة هـل كان قـد نُقـل إلى سـجنٍ مـدنيٍّ مثـل عـدرا، أم إلى سـجنٍ عسـكري مثـل صيدنايـا. عندمـا وصلْنـا إلى سـجن عـدرا في شـهر حزيـران مـن عـام ٢٠١٣، أخـبَرَني بعـض السـجناء (وهـم مـن مدينـة موحسـن، وكانـوا معنـا في سـجن الجويّـة)، أنّهـم مَثَلـوا مـع فهـد أمـام القـاضي العسـكري. لقـد اقتِيـدوا إلى عـدرا، في حـين

أُرسِلَ فهد إلى صِيدنايا. كانت تلك آخر المعلومات التي حصلتُ عليها. لذلك، ما زلتُ أبحث في السجون، وأنا على اتصال بجميع السجون في السويداء وعدرا وحماة، لكنّ الاستعلام أكثر تعقيدًا في مراكز الاعتقال التابعة لجهاز المخابرات.

لا أخبار عن عبد العزيز وأبو فهد. لا شيء. إنّهما في دمشق، هذا أمر مؤكّد. هما داخل فروع أجهزة المخابرات، محبوسان في مكانٍ سرِّيّ. لقد وضعوهما في مكان سريّ. النظام ليس غبيًّا كي يخسر سجناء مثلهم، وليس غبيًّا كي يقتلهم.

أنا متحقِّق من أن أختي تَشعر بأن فهدًا قد مات، هو حدسها، لكنّني لا أستطيع التحدث إليها في الأمر. تُوفي والدي بعد أيام قليلة من وفاة والدتي. علينا حماية أختي.

لقد مات فهد. ولكن... ربّما.

بفضل الله تعالى أتابع، إن شاء الله، القبضَ على خيط أمل، أملٍ ضئيل. الانتظار صعبٌ جدًّا. حياةٌ من الأمل. عندما سُجن أخي أبو الجود، عاشت أمي على الأمل مدة خمس سنوات. ثمّ خرج.

لم أعُد أريدُ أن أتحدّث عن هذه القضية. لقد انتهى الأمر. دَعُوني أَبْكِ فقط.

❖ بعد هذه الكلمات بفترة وجيزة، في ٩ حزيران ٢٠١٨، نشرْتَ مقطع فيديو على حسابِك في فيسبوك بعنوان «مِن أجل مَن هم في الداخل، مِن أجل العائلة والإخْوة»: «بالنسبة إلى صورة فهد، فالخير ما اختاره الله. هي مشيئة ربّ العالمين، إنْ كان ميتًا فليرحمه الله، وإن كان حيًّا فليرحمه الله. إنْ كان على قيد الحياة

فليُخْلِ اللهُ سبيله. ولكنّني متحقِّق بوضوح عين الشمس أنّه هو.

[...] لـن نتـكاذب. إنّـه هـو، الأدلّـة واضحـة. جميـع أفـراد العائلـة رأوه، ويعرفـون أنّـه هـو. [...] هـذا قـدَرُه ومصـيرُه. والأمـر مـتروكٌ لنـا لإحقـاق الحـقّ. لـن أتركهـم إن شـاء اللـه، سأمسـكُ بهـم واحـدًا تِلـو الآخـر، وسـأذهب وأجِدُهـم حيـث يعيشـون. إنّـه لَوعْـدٌ منّـي.

رَحْمَـةُ اللَّـهِ عَلَيْـهِ، وأَسْـكَنَه اللـهُ فسـيح جنّاتـه. لقـد رحـل مثـل كلّ الشـباب الباقـين. أتحمّـل مسـؤولية موتـه. لقـد كان معـي عندمـا اعتُقلنـا. أنـا مـن يتحمـل مسـؤولية موتـه، وأنـا المسـؤول عـن مقتلـه، والعدالـة مـن أجلـه أمانـةٌ في رقبتـي.

رحِمَ اللهُ الشهداء، وشفى الجرحى، وفكَّ سراح الأسرى».

«لسـتَ مسـؤولًا». كرّرهـا أخـوك أبـو الجـود. «أنـت لسـتَ مسـؤولًا عـن اعتقالـه. الطبيبـة هـي المذنبـة».

بعـد أن تبادلـتُ الرسـائل مـع أبـو الجـود، قرّرنـا أن نتحـادث. قـال إنّـه متحقِّـق بنسـبة ٧٥٪ فقـط مـن أن فهْـدًا هـو في إحـدى صُـوَر ملفّـات قيـصر. أمّـا زوجتـه، فمقتنعـة بأنّـه هـو.

أمضـت ابنتهـما جـود، ابنـة أخيـك، عـشرة أيـام في التنقيـب بـين صـور قيـصر بحثًـا عـن فهـد وعبـد العزيـز ومحمـد. لم تتجـرأ عـلى الاعـتراف لعمّتهـا بأنّهـا كانـت تبحـث عنهـم بـين كلّ تلـك الوجـوه الهزيلـة، التـي بقـي بعضهـا بـلا عيـون، مـع دمـاء جافّـة أو سَـحنات شـاحبة بشـكل غـير طبيعـي. كيـف تُخـبر أمًّـا أنّـك تبحـث عـن ابنهـا في غياهـب المـوت؟ عـشرة أيـام طويلـة كابوسـيّة كـما وصفَتْهـا، ثـمّ حـان بعدهـا وقـت التوقـف عـن ذلـك. لم تتصفّـح جـود مجمـل الـ٦٧٠٠ صـورة المنشـورة عـلى الموقـع الإلكـتروني. رَصَـدَت خـلال بحثهـا عـشر

صور، شكّت في أنّها لعبد العزيز. أنْ تستمرّ في البحث، فهذا فوق طاقتها.

في نهاية شهر نيسان ٢٠٢٢، عشية عيد الفطر، الذي يُحتفل به بعد نهاية شهر رمضان، أعلن النظام عفوًا عامًّا عن السجناء المُدانين بـ«الإرهاب»، شريطة ألا تكُون أيديهم ملطخة بالدماء. وكان من المقرَّر بعد ذلك إخلاء سبيل عشرات الآلاف من السجناء، حيث إنّ هذه التهمة هي التي أُلصقَت لاعتقال المعارضين الحقيقيِّين أو المفترَضين منذ عام ٢٠١١. لكن في الأيام التالية، أُفرج عن أقل من ٥٠٠ معتقل وأُخْلِي سبيلهم دون إبلاغ ذويهم، وأغلبهم لا علاقة لهم بالثورة.

يوم أُعلن إخلاء سبيل المساجين، كانت والدة فهد تقيم مع عائلة أبو الجود. لم يُذْكَر العفو طوال النهار أمامها بتاتًا. أمرٌ مؤلمٌ. ميؤوسٌ منه. اتصل الأصدقاء والأقارب يسألون عن فُرَص فهد ووالده. كانت جود ووالدتها تتهامسان. وفي الغرفة المجاورة، كانت أم فهد قد فهمَتْ، وكانت تَعْرف ما يحدث، لكنّها لم تقل شيئًا، ولا كلمة. حزنٌ، وكرامة.

صمتٌ نبيل، لمخاطبة نظامٍ متوحش، نظامٍ يعذّب الأمل، ويَبترُ الذاكرة.

كتب أبو الجود في رسالته:

«ونحن نشهدُ على الكارثة، نبقى محكومين بالأمل».

نبقى «محكومين بالأمل». لم نفقد الأمل في انتصار الثورة، على الرغم من خسائرنا الفادحة.

أَعْلم أن ما أكتبه قد يورطني أكثر، بصفتي حامل اسمٍ لطالما كان لعنةً على أولادي وعائلتي. لكنَّ وفائي هو لكلّ المعتقلَين، ومنهم: أخي مازن، وأخي الدكتور عبد العزيز، وصهري المهندس صبحي

الجاسم ـ أبو فهد ـ ، ونجله فهد الجاسم طالب الهندسة، ومحمد الدخيل ابن أختي الكبرى. جميع هؤلاء معتقلون منذ عام ٢٠١٣، ولا أخبار عنهم حتى يومنا هذا، ولا نعرف شيئًا عن مصيرهم. أَلَا يزالون على قيد الحياة؟ وهل جرت تصفيتهم في مسالخ الأسد، مثل آلاف المعتقلين الآخرين؟ ⁂

الفصل الخامس والثلاثون

يوم كنتُ في العاشرة، قضيتُ عطلتي الصيفيّة عند إحدى أخواتي في دمشق. كنتُ أسافر وحدي في واحدةٍ من تلك الحافلات القديمة الطراز، التي يتدلى من سقفها جهاز تلفزيون أبيض وأسود، نضع فيه أشرطة فيديو، وننقر على الجهاز حتى يعمل. أحيانًا يشغّل لنا السائق أغانيه المفضّلة. بين المقاعد وسط الحافلة، ثلاجة صغيرة تَحفظ المشروبات باردةً نوعًا ما.

بين الدير ودمشق مسافة تتجاوز الأربع مئة وأربعين كيلومترًا. يَركب الحافلة فلاحون ومُرَبُّو أغنام، وجنود يخلعون أحذيتهم فتفوح منها رائحة أقدام كريهة. روائح بَشَر وأغنام.

ذكرياتي تضحكني اليوم. آهٍ من الذكريات. نعم. أَبتسم، أَبتسم.

في رحلتَي الذهاب والإياب، تتوقّف الحافلة في تَدمُر. ننزل لتناول الشاي، فآكلُ شطيرة الجبن التي أعدَّتْها والدتي في المنزل، وأُراقبُ الكبار وهم يُدخّنون.

في الليل، وعلى الطرقات الخالية، يقود بعض السائقين بسرعة، ويطيرون طيرانًا. يدخّنون سيجارة حشيشٍ كي يحافظوا على هدوئهم. للحشيش رائحة نفّاذة. دخّنتُ سيجارتي الأولى وأنا في

الخامسة عشرة. أغلبُ الركّاب نائمون.

وصلْتُ إلى دمشق، حيث كان ينتظرني أحد أبناء عمومتي، فقادني إلى منزل أختي.

الفصل السادس والثلاثون

هناك حلقةٌ مفقودة.
حتى آذار ٢٠١٢، أي قبل اعتقالي، سارت الأمور على خير ما يرام في دير الزور مع الثوار. عندما أُخلِي سبيلي أصغيتُ إلى كلّ ما يُقال، علّني أفهم ما الذي حدث. حلقةٌ مفقودة تشغلني إلى اليوم، وكأنَّ يدًا خفيَّة تسبّبت بالخلل.

ماذا حدث؟

سمعتُ إخوتي يكرّرون: «إنْ سُجنْتَ، فانْسَ الخارج».

من زمان، قُبض على عبد الرزاق في قصّة تتعلّق بتجارة الأغنام ـ بحسب ما ادّعَوا ـ . قَلِق أبو الجود، فهو يعرف توتّر مزاجه: «عساه لا يغضب، ولا يفكر في العالم الخارجي». ذهَبْنا مع أخي الآخر عبد العزيز لزيارته في الرَّقّة.

نصحه عبد العزيز: «لا تُفكر في الخارج. أطفالك وعائلتك معنا، ونحن نعتني بهم».

في الزنزانة، حاولتُ جهدي أن أنسى العالم الخارجي. بدأتُ أُفكر. كيف لي أن أَحميَ أبناء أخي؟ شعرتُ بالمسؤولية تجاههم، إذ اعتُقلوا معي. كان فهد صغيرًا. كنتُ أفكّر بالفعل. حاولتُ أن

أنسى العالم الخارجي، لكي أشعر بالقوة. فقلتُ لنفسي: «أنت قويٌّ يا أبو الميز. أنتَ قويّ». كنّا نسمع دويّ القصف في بعض الأحيان، وعندما بلَغَني أن الجسرَ المعلّق دُمّر انفطر قلبي. بَيْد أنّني ظللْتُ أُردِّد: «أنت قوي يا أبو الميز، أنت قوي».

لكن، عندما خرَجْت... عندما خرَجْت.

هي أيْدٍ خفيّة دَمّرتِ البلد. أيْدٍ أسديَّة عنصريَّة طائفيَّة متطرفة. لقد دعم السوريون الأسد من أجل امتيازاتٍ على حساب حريتهم. ونحن في منطقتنا، في ريف حلب ودمشق، كنا نتمتَّع بقدرٍ من الحرية في حياتنا اليوميّة، شريطة ألَّا نَمسَّ النظام. اتفق الأكراد من جهة، والمتطرفون الإسلاميون من جهة أخرى، على تدمير منطقة دير الزور؛ أمّا إيران، فقد اجتلبت لنا الفوضى.

أيادٍ خفيَّة ساهمت في القبض على اثنين من أفراد عائلتي: عبد العزيز، وأبو فهد. أودّ أن أعرف لماذا اعتُقِلا. حين أُلقي القبض علينا، كان الأسد يُخرج الجهاديين من الزنازين. أطلقَهم من أَسْرِهم، وسجن الثوار.

لا أعرفُ تفاصيل اعتقال عبد العزيز وأبو فهد، ولكنّني أشكُّ في خيانةٍ ما. لقد ساعدا الجميع، وعارضا العمل المسلّح، ودعَوَا إلى الحوار. أمّا أنا، فوضعي مختلف، مَشْكلجيٌّ، صحيح؛ أمّا هما، فسُجنا بسبب آرائهما. منذ صغري أُعارض، وأبحث عن المشاكل؛ أمّا عبد العزيز وفهد، فمُسالمان، رفَضا سقوط سوريا في الهاوية.

نعم، أنا غاضب، وفي قمّة الحزن. عبد العزيز صديق الجميع، ولا أقول ذلك لأنّه أخي. هو صديق الكبار والصغار، والنساء والرجال. علمتُ أنّه في يوم اعتقاله، دخلَ ملثمون عيادته، وفي ١٢ شباط ٢٠١٣، حاصرَت الحي مجموعةٌ من السيارات. اعتَقلوا

حوالي ٧٠ شخصًا في نفس اليوم، ومن بينهم أبو فهد. نصبوا فخًّا لأطباء ومهندسين ومحامين ومثقفين، حيث وشى بهم شخصٌ من داخل النظام، واشٍ يَعرف تفاصيل المكان. سأحاول أن أعرف. وفي حال توافَرت المعلومات والتفاصيل الخاصة باعتقالهم لن أسكت، وسأُفرغ جَعبتي.

اليوم، لا نرى سوى الظواهر؛ أمّا البواطن، فلم يُكشف عنها. التفجيرات، والمجازر، والكيماوي، والصواريخ، كم من تفاصيل مغيّبة.

حين تتوقّف الحرب، سيأتي الناس لِيَروا ما حدث في سوريا، وسيكتشفون المستور بأمّ أعينهم. السجون مثلًا: سينكشف ما خفي فيها. كم من جرائم طُويتْ عن عمد.

∴ هل تَعْلم أن الباحثة الشابة أنصار شحود كتبت أطروحة حول العنف الطبي، وكشفَت عن واحدة من هذه الجرائم مع البروفيسور أوغور أوميت أنغور، من معهد أبحاث الحرب والمحرقة والإبادة الجماعية في أمستردام؟ لقد حصلا على وثيقة، هي عبارة عن فيلم صَوَّره، في إحدى ضواحي دمشق الخاضعة لسيطرة النظام، مرتكبو جريمة شنيعة، مجزرة، راح ضحيّتها مدنيّون لا ناقة لهم ولا جمل في المعارضة ولا في التمرّد.

في ١٦ نيسان ٢٠١٣، في منطقة التضامن، عند المدخل الجنوبي لدمشق القديمة، أُعدَم رجلان ما لا يقل عن ٤١ شخصًا.

نرى في الفيلم الضحايا، وهم يسيرون طائعين معصوبي الأعين ومقيَّدي الأيدي في شارع ضيق، قبل أن يجري إعدامُهم بالرصاص، وإلقاؤهم في حفرة جُهّزت للمناسبة. وأيضًا نرى آخرين يُطْلب

منهم الركض نحو الحفرة قبل إطلاق النار عليهم. القتلة يبتسمون، ويشعلون النار في الجثث.

أيّامذاك، كنتَ لا تزالُ مسجونًا في فرع المخابرات الجوية، في مطار المزة العسكري، على مقربة من هذه المجزرة.

بعد حصولهما على الفيلم، تمكَّنَت أنصار شحود وأغور أوميت أونغور من كشف قتلة ١٦ نيسان ٢٠١٣: أحدهما رئيس الفرع ٢٢٧ التابع للمخابرات العسكرية ـ وهو الفرع الذي خَطف واعتَقل الآلاف من المدنيين سرًّا ـ ، والآخر عسكريّ في قوات الدفاع الوطنية. وبعد أشهر طويلة من التحقيق المموَّه، الذي أجْرَتْه أنصار شحّود، بعد أن بدّلت هويّتها بأنّها موالية للنظام، حصلَت على اعترافات القاتل الأوّل. أمّا الثاني، فقد قُتل بعد أن نُشرت الفضيحة.

أحال الباحثان هذا الفيلم، الذي تَبلُغ مدته سبع دقائق، وأيضًا عشرات مقاطع الفيديو والوثائق الأخرى عن مذابح راح ضحيتها ما لا يقل عن ٢٨٨ مدنيًّا، إلى المدّعين العامِّين في كلٍّ من هولندا وألمانيا وفرنسا.

في الواقع، مَن يدري كم عددُ الجرائم والمجازر غير المكتشفة؟ في يوم من الأيام، سيجدُ المتخصصون بالعنف الجماعي اسمًا «يليق» بنظام الأسد، توأم الأنظمة الشمولية المجرمة في ممارساتها. فقد ألهمَتْه ممارستُها، وقلّد وحشيّتها واستبدادها.

دُرِّبَت أجهزة المخابرات السوريّة على أيدي ضباطٍ سوفييت؛ وأجهزةُ أمن الدولة تتبع أساليب ألمانيا الشرقية في الستينيات. ألويس برونر نفسه، اليد اليمنى السابق لِأَدولف أيخمان، مهندس ترحيل اليهود وإبادتهم، لجأ إلى سوريا، ومات في دمشق عام

٢٠٠١. حين تَبوّأ حافظ الأسد السلطة، تَواصَل مع برونر، وطلب مشورته في تنظيم جهاز قمعي ذي كفاءة نادرة.

في سوريا ضحايا قُتلوا رميًا بالرصاص، ودُفنوا في حفرة، كما حدث أيّام الهولوكوست. ضحايا مجرّدون من الإنسانية، يموتون ببطءٍ في زنازين مكتظة، شهِدَتْ كما الغولاغ السوفياتي «استقالةَ الإنسانية».

أوغور أوميت أنغور، وجابر بكر ـ الباحث والسجين السياسي السوري السابق ـ ، نشَرَا في أيّار ٢٠١٢ كتابًا باللغة الهولندية عنوانه «الغولاغ السوري»: سجون الأسد «١٩٧٠-٢٠٠٠». الكتاب لم يُترجَم حتى الآن.

أمّا المفكر والكاتب السوري ياسين الحاج صالح، الذي وصف نظام الأسد بالنظام السلالي، فتَحدّث عن الإبادة الجماعية. وقد درَس المُعارض السياسي، الذي اعتُقل مدة ستة عشر عامًا في ظل نظام حافظ الأسد في عدد من المقالات، كيف تمكّنت هذه العائلة باستنادها إلى الطائفيَّة والمناطقيَّة مِن فتح أبواب الإبادة الجماعية على مصراعيها. ❖

الفصل السابع والثلاثون

أنا منشطرٌ: جزء منّي هناك، وجزء منّي هنا. أحاول الربط بين الضِّفّتين، وأن أجمع بين الهُنا والهُناك في رأسي. أحاول. يعترضني خطٌّ فاصل. سوء تفاهم على الأرجح.
قد يَشعرُ اليهود بهذه المعاناة. يقتربون حين أبدأ بالكلام. يعانون

مثـلي. يعرفـون. أجدادهـم عاشـوا مـا نعيشـه. حـين تُثقـلُ الهمـوم رأسي أَعصِبُـه، وأحـاول الجمـع بـين الضِّفتـين.

الفصل الثامن والثلاثون

لم يُلقِ أحدٌ عليَّ التحيّة حين خرَجْت.
أنا كلبٌ في عُرْفهم!

أدليـتُ بشـهادتي الأولى عـن السـجن أمـام مركـز توثيـق الانتهـاكات، وهـو مركـز أسَّسَـته رزان زيتونـة. كـما طلبـتُ مـن بسـام الأحمـد ألّا ينشرهـا حتـى أغـادر دمشـق. في ذلـك الوقـت، لم يجـرُؤ سـوى عـدد قليـل مـن الناجـين عـلى الحديـث عـن الاعتقـال. غـادرتُ إلى تركيـا. أبحـرتُ عـلى مـتن قـارب صغـير. لم يسـلِّم عـليَّ أحـد، لا في تركيـا ولا في أيّ مـكان آخـر. وجـدتُ نفـسي طـوال شـهرين مـشرّدًا في الجبـال والبرِّيـة. ضِعـتُ في مخيَّـمات اللاجئـين، ووصلـت إلى هولنـدا. لم يتَّصـل بي أحـد للسـلام.

لم يرحـب بي أحـد حـين أخـذتُ أشـهد بجدّيـة وإخـلاص. كل هـذه التضحيـات. بعضهـم حـاول إيـذائي لأنّنـي أرفـض الكـذب، وهـم لا يريـدون سـماع الحقيقـة. لِـمَ لا نَجمـعُ صفـوةَ النـاس الذيـن يدافعـون عـن الثـورة، سـواءٌ علمانيـين أو إسـلاميين؟ نعـم، لنجتمـع ونتّفـق، ونُقـدّمُ رؤيـة واضحـة، لـكي نتعـاون. لكنّهم غير مسـتعدّين. انقسـامات السـوريين مَهُولـة، والأوّل يكيـلُ للثـاني. لمـاذا؟ لأنّهـم يفتقـدون النضـج والوعـي السـياسيّ.

الأنقياء هم مَن بدأوا الثورة، وهم يَعْرفون أنّ حياتهم على المِحَكّ. كنّا نتوضأ قبل النزول إلى المظاهرات، متحسّبين لرصاص القنّاص.

ثمّ خاب أملي. خاب أملي. خاب أملي.

العدالة. لم يكن لنا مَطلبٌ آخر إلّاها. لكنّ الآخرين استغلّوا طيبة قلوبنا، وغرّروا بنا.

لا أريد شيئًا، لا أريد شيئًا من الحياة. ودِدْتُ الموتَ في السجن كي لا أكتشف ما حدث في الخارج من فظائع، بعد أن عشتُ ما عشتُه في السجن. ما أقبح دماءنا وأحقرها.

دمَّرونا. نحن فضيحتهم. لا أتاجر بدم عائلتي، ولن أسامح أبدًا أولئك الذين سفكوا دماء أصدقائي.

الوقت معنا، والأيّام بيننا. هي مسألة ضمير وأخلاق.

عارٌ، عارٌ على الحكومات. الناسُ أبرياء؛ أمّا الحكومات، فلا.

عارٌ على حكومات تعمل لمصالحها على حساب أهلنا وشعبنا. الضمير الأوروبي نائم، والضمير الأميركي نائم. الأميركيون لا يتحمَّلون مشكلة اللجوء، مثل الأوروبيين. إنّهم بعيدون، ويلعبون مع تركيا والعرب. فكيف تريدهم أن يتخذوا موقفًا أخلاقيًّا؟ الجميع يلعبون.

تتذرَّع الحكومات بالحرية والديمقراطية، لكنّها تُواصل الحديث إلى القتلة والمجرمين. كم مرّة استعملوا الفيتو في الأمم المتحدة لإنقاذ نظام دمشق.

لقد فقدنا كلّ الأمل. الجميع يَعْرفون هذه القصة. لو أراد القادة أن يفعلوا شيئًا، لكان في إمكانهم التحرّك من أجل تخفيف

العبء عن النساء والأطفال والمُسِنِّين.

تَظاهرْنا من أجل حقوقنا المعنويّة، لا الماديّة. فمن جهتي كانت أموري على ما يرام: عمَلٌ، وسيّارةٌ، ومُرتّب. ترَفٌ، إن شئتِ. نزلتُ إلى الشارع من أجل حقوق السوريين، وفي النهاية جرى التخلي عنّا. فقدتُ كلَّ شيء، عائلتي، وبلدي. شهادتي كرامتي، ولستُ في حاجةٍ إلى أحد.

بِودّي العودة إلى سوريا كي أُبَلسم النفوس الدامية، بِودّي العودة لمساعدة العائلات التي فقدَت أطفالها في الحرب، والباحثة عن أحبابها في السجون. بِودّي بناء مدارس للأجيال الجديدة، كي ننبذ التطرّف. فالتطرف يولد من رحم الظلم.

بعد عام من التظاهر، زُجَّ بي في السجن. لو لم أتحلّ بضمير حيّ ـ لِنَقُل بحدّ أدنى من الضمير ـ لَمَا خرجتُ سالمًا. فقد أرسلوني إلى عالمٍ سفليٍّ من الجرائم والمجرمين. من السهولة أن يُدمَّر مَلاك.أرسَلوني كي أُعاقَب في الوقوف والجلوس والذهاب إلى المرحاض، وكي أرى رجالًا يُهانون ويموتون أمامي. رأيتُ أطفالًا يموتون. نموت، نُقتل. مَن يحتمل هذا التوحّش؟ أغلبُ اللاجئين السوريين مكتئبون. فكم من لاجِئٍ منهم لا يخرج من بيته.

أنا من منطقة قُصفت بالأسلحة الكيميائية. لقد خرجْتُ من السجن مثقوبًا. حالتي يُرثَى لها. ركبتُ البحر. قدمي مثقوبة. لم أقل شيئا. جسدي مدمّر. لم أنظر إلى الخلف. ذكرياتي ابتُلعت.

نظرت إلى الأمام. عائلتي مشتّتة. لم يُسلّم عليّ أحد. لقد كنتُ غائبًا عن نفسي وعن الآخرين. بعد ذلك، جلستُ في مركز

اللاجئين، وفي بيتي.

عندما تصلُ إلى بلدٍ أنتَ غريب فيه، ستُواجه جُملَةً مِنَ المصاعب، وسوف تتغلّب عليها. لحسن الحظ، أنتي ـ وفي سنٍّ مبكرة ـ عمِلتُ وراكمتُ تجاربَ ساعدَتني كي أتأقلم. جلستُ أيامًا طويلة أُفكّر. غُصتُ في ماضِيَّ، وتأمّلتُ ما حدث لي، قيّمتُ وُجودي. أنا اليوم في الثامنة والثلاثين.

إنْ شاهدتُ عبر التلفاز موضوعًا عن المعتقلين، يقْشَعرّ بدني، وترتفع حرارتي. صدمَني أنّنا تُركنا لمصيرنا، وللعذاب، وللهجرة. نحن اليوم في الشتات.

شفرةٌ باردة تُقطِّع معدتي. أرى رجلًا أو حيوانًا يرّش مِلحًا في داخلي.

عذابي يبدأ من الرأس، ثمّ ينحدرُ إلى أسفل الكتف، ومن القلب يسكن في المعدة.

كيف لي أن أصف هذا الألم؟ مَن يستطيع أن يفهم؟ يتحدَّث، لا، لا، لماذا؟ همْم، لا.

أُقسم أنّني سأعود غدًا، إنْ فُتحَت المعابر. لكنّ الحدود مغلقة. أريد لهذا العذاب أن ينتهي. بِودّي لو أضع حدًّا لحياتي، أن أشنق نفسي في غرفة في مكانٍ ما. اللعنة على هذه الحياة.

∴ أدخَلْنا الدجاج في القنّ، ووضعنا حطبًا في المدفأة. أعرف أنّ منظر تَوهُّج النار وصَوت طقطقة الجمر، يُذكّرانك بحفلات الشواء والتخييم في الصحراء القريبة من نهر الفرات. لكن،

لِصَوتـك القـادم الليلـة مـن الضفـة الأخـرى مـن جهـة المـوت، صـدًى شـعرتُ بـه، يناديـك ويـكادُ يبتلعـك. يبـدو أنّـك في بعـض الأحيـان لسـتَ معـي.

قبْـل أسـبوع، اتصلَـت بـك أختُـك الكـبرى، وقالـت لـكَ: إنّ العـودة إلى المنـزل عندمـا يتحسـن الوضـع بعـد ثلاثـة أشـهر، لربّمـا تكُـون ممكنـة. هـل قالـت لـك ذلـك حقًـا؟ هـل حـدّدَتْ ثلاثـة أشـهر؟

وأضافـت: «لا تُفكـر كثـيرًا. اعـتَنِ بنفسـك، وانتبـه لصحتـك». كـم مـن مـرّة قـال لـك أبـو الجـود: «اهـدأ، جِـدْ مجموعـةً مـن الأصدقـاء»؟

إخوتُـك وأخواتـك، أبنـاء إخوتـك وبناتُهـم قَلِقُـون بشـأنك. الـكلّ قَلِـقٌ بشـأنك. خـدَّاك يغُـوران أكـثر وأكـثر. نظراتـك تـزداد قتامـة. اعتَدْنـا أن نـرى نظراتـك تغـور، فجـأة تَغيـب حـين تتوقّـف فجـأة عـن الـكلام، لتبتعـد وتسـير وحـدك في طريـق لا يعرفـه أحـد سـواك، كي تضـمّ مَـن يَعْلـم إلى غيـبٍ مـا. نظراتـك اليـوم نظـرات ضيـاع، لا نظـرات ثاقبـة، وأكاد أقـول عنيفـة، تنـمّ عـلى بُغـضٍ سـينفجر. صِرتُ أخـاف مـن نظراتـك.

أضحت كتاباتك على صفحتك الفيسبوكيّة غاضبة مهينة.

صرتَ مقتنعًـا بـأنّ السـقالات التـي نصبـت عـلى جـدران مسـكنك في هيلغـوم، قـد دُسّـت فيهـا ميكروفونـات لمراقبتـك.

أيـن أنـت أيّهـا الشـاب الآتي مـن ديـر الـزور؟ مـاذا فعلـوا بـك؟ مـاذا فعلنـا بـك؟ أصِرْتَ دميـةً يحرّكها الصحفيون والناشـطون والسياسـيون؟ مـاذا فعلنـا بـكَ؟ مـاذا فعلنـا؟

عـن أربعـة وسـبعين عامًـا، أعمَـى وأصـمَّا ومُعدمًـا، في مصحّـة للأمراض

النفسيّة، تُوفي فارلام شالاموف عام ١٩٨٢. تَذكُر لوبا يورجنسون أن: «الذين التقَوا مصادفةً شالاموف في أحد الشوارع وهو في أواخر حياته، يتذكرون رجلًا نحيلًا يتحرّك بعصبيّة، وكأنّه آلية مؤلّفة من أجزاءٍ موصولة بُذِلَ لربطها جهدٌ خارق».

جسدٌ مفكّك. هذه هي الصورة التي ستبقى لنا عنك يا مازن. رأوك تمشي في شارع برليني، في شباط ٢٠٢٠. عندما خاطبك لاجئٌ سوريٌّ ردَدْتَ عليه بجملٍ مفكّكة مضطربة. قام أحدهم بتصوير المشهد. جسدٌ هزيلٌ منكسر، تقف على الرصيف، ساقاك الطويلتان نحيفتان للغاية، ويداك تتحركان في كل الاتجاهات ـ وهذا ما فعلْتَه أمامنا باستمرار ـ كما لو أنّك تؤدّي رقصة تراجيديّة. أنت اليوم أكثر إثارًا للقلق، من اليوم الذي عدتَ فيه إلى العالم الحر، وأقلُّ نجاةً من اليوم الذي تحرّرتَ فيه.

على هذا الرصيف في برلين، نسمعك تقول، مجدّدًا، ونسمعك تُقسم إنّك عائد إلى سوريا المحرّرة من النظام يا مازن. نعم ستعود: «سنضحّي بالدم من أجل بلدنا. لا بد من العودة [...] فاللاجئون هنا يتاجرون بدماء السوريين».

تَقتربُ من مُحاورك، مُحاولًا إقناعه، ثمّ تتراجع، ثمّ تعود، ثمّ تغادر مرة أخرى. لعلّك تؤجّل هذا الرحيل، وتختفي من الشاشة.

في كتابها «معرفة عديمة الفائدة»، تتلو شارلوت دَلبو هذه «الصلاة» للأحياء، لكي نغفر لهم وُجودهم على قيدها:

«يا أيّها المارُّ
المهندم بكلّ عضلاته
هندامٌ يليق بكَ

لا يليق بكَ
يليق بكَ تقريبًا
[...]
كيف لكَ أن تسامح نفسك لأنّك على قيد الحياة؟
يا أيّها المارُّ
المهندم بكل عضلاته
كيف تسامِحُ نفسَكَ
وقد ماتوا جميعًا؟
تمرّ وتشرب كأسًا على شُرفَةِ المقهى
أنت سعيد لأنّها تحبك
[...]
أرجوك
تَصرَّف
[...]
من الغباء
في النهاية
أن يموت كلّ من مات
وأنت تعيش
حياتك متبطِّلًا
وبعدُ
مِنَ المستَحْسَن ألّا تُصدّق
هذه القصص
قصص الأطياف
المؤرّقة
لو صدّقت
الأطياف
أطياف العائدين
فكيف لكَ أن تشرح كيف حدث ذلك؟». ❖

الفصل التاسع والثلاثون

∴ في شباط ٢٠٢٠، في نهاية اليوم، كنتُ أنتظر طائرتي في مطار برلين. وصلتني رسالةٌ صوتية من تينا فكس (صديقة صحفية ألمانية): «هل وصلكِ الخبر؟ يبدو أن مازنًا قد عاد إلى دمشق». شبكات التواصل تتناقل الخبر بذعرٍ، أو انزعاجٍ، أو غضبٍ، أو شكّ. «مازن الحُمادة في دمشق. مازن في سوريا». عشراتُ الرسائل والعواجلِ تصِلُني منذ أيام عنك، ضدَّكَ في بعض الأحيان.

عُدتَ إذًا إلى هناك؟ سلَّمتَ رأسك إلى الجلّاد؟

لا كلام ممكن. لذتُ بالصمت.
أنت مفقودٌ، مغيّبٌ. هذا واقع الأمر. أشعرُ بالدُّوار، وبالفراغ، وبشللٍ لم أعرفه من قبل. هذا الشعور الرهيب بأنّ الأمر... لم يفاجئني. سارة أفشار، التي شاركتَ في فيلمها الوثائقي «قضيّةُ مغيَّبِي سوريا: الأسدُ متّهمًا»، مُحَطَّمةٌ أيضًا. أجرَتْ كلَّ الاتّصالات الممكنة لمعرفة ما حدث، ولمحاولة العثور عليك ومساعدتك. عبثًا.

بعد أيّامٍ، تَشاركَ أفرادُ عائلتك وأصدقاؤك والصحفيون السوريون والأجانب ما جمعوه من معلومات. في شباط ٢٠٢١، بعد عام من اختفائك، حاولتُ ـ استنادًا إلى ما سمعتُ ـ سرْدَ تسلسُلِ أيّامك وساعاتك الأخيرة في «عالمنا». هذا ما توصّلتُ إليه: في منتصف شباط ٢٠٢٠، غادرتَ منزلَ شقيقتك التي تعيش في نفس القرية الهولندية دون أن تذكر وجهتك. سكنْتَ معها بعد أن طُردتَ من شقتك، لأنك قصّرتَ في دفع الإيجار عدة أشهر متتالية. ثمّ قصدتَ أحد أبناء أخيك اللاجئ في ألمانيا، وأقمتَ عنده. مِن المحتمَل

أنّ جماعة النظام تَواصَلَتْ معك هناك، أو أنّك سعيتَ للتواصل معهم. بماذا وعدوك؟ وماذا سوّلَت لكَ نفسك؟

في كلّ الأحوال، صباح ٢٢ شباط، رآكَ لاجئٌ سوري في مطار شونيفيلد في برلين، وأنتَ تستعدّ لركوب طائرة متّجهة إلى بيروت، ثمّ أخرى إلى دمشق. وجهك الهزيل يعرفه الجميع، إذ أضحيتَ الصوت الصارخ في البراري، والصوت المثير للإعجاب.

دنا منك الرجل، وحاول أن يسألك عن سبب رحلتك العجيبة، بَيْد أنّك تهرّبتَ، ولم تُجِب. هل رافقَتْكَ ـ كما شاع ـ سيّدةٌ سورية موالية للنظام، تعمل في السفارة السورية في ألمانيا؟

الرجلُ الذي دنا منكَ أبلغ الناشطة السوريّة ميسون بيرقدار بسفرك، فتمكَّنَتْ عبْر شبكة علاقاتها من أن تتواصل معك عندما وصلْتَ إلى مطار بيروت. وقد قامت بتسجيل ما دار بينكما من حوار، نشرتْ صحيفة الواشنطن بوست جزءًا منه على موقعها. قلتَ لها إنك ذهبتَ إلى أميركا وحكيتَ لهم القصة كاملة، وإنك ذهبتَ إلى ألمانيا وأخبرتَهم القصة كاملة، وإنك ذهبتَ إلى هولندا وفرنسا حتى إيطاليا، وإن الناس لم يصغوا. العالم كله لم يسمع. وقلتَ: «سأعود علّني أجدُ حلًّا للمعتقلين [...] أعْرِفُ ماذا سأفعل، لا تخافي [...] النظام، النظام. النظام لا يختصره بشار الأسد [...] بإذن الله سأصِلُ إلى دمشق [...] سأضحّي بنفسي لوضع حدٍّ لحمّام الدم. هذا كلّ ما في الأمر».

حين وصلتَ إلى مطار دمشق، تواصلتَ مع نتالي لاريسون، مديرة البرنامج الإنساني في جمعيّة «سيريان إمارجنسي تاسك فورس»، التي يديرها معزّ مصطفى، الصديق الذي نظّم لكَ رحلتك إلى الولايات المتّحدة.

قبل منتصف الليل بقليل، اتّصل بك ابن أخيك من ألمانيا. محادثتكما قصيرة، شعر بأنّ صوتك يرتجف، وكأنّ هناك مَنْ يقف خلفك ويلقّنك الإجابات همسًا. هل أدرَك في تلك اللحظة أنك سِرتَ برجليك ورميتَ نفسك كي تلتهمك الذئاب، وأنّك ستُعتقل من جديد فَوْر مُرورك على أمن الجوازات؟ نصحك ابن أخيك بعدم مغادرة المطار، ونصحك بحجز تذكرة لرحلة إلى السودان ليلًا. «صَلُّوا من أجلي» هي كلماتك الأخيرة.

في ٢٢ شباط، بعد منتصف الليل، تَوقّف رقمك الواتساب الهولندي عن العمل، ولم يشتغل بعد ذلك.

من جهته، فكّر الفنان والأستاذ مارك نيلسون، المقيم في إلينوي، والذي التقيتَه خلال إحدى زياراتك للولايات المتحدة، في أن يوثّق ويحتفظ بكلّ ما نشرْتَه عبر حساباتك على إنستغرام وتويتر وفيسبوك، وذلك قبل أن يغلقها النظام في لفتةٍ هي الشهادة بعينها. ومنذ ذلك الحين، وهو يعيدُ رسم صورك بالفحم أو الألوان المائية. يَرسم ويَعُدُّ أيّام اختفائك، في عمَلٍ يقاوم به النسيان.

بعد أشهر، تناهَى إليّ أن معتقلًا في فرع المخابرات الجويّة قد أُفرِج عنه، وأنّه شاهدك في إحدى زنازينهم، في شباط٢٠٢٠. عدتَ إلى الفرع حيث احتُجزتَ بين آذار ٢٠١٢ وحزيران ٢٠١٣، قبل نقلِك إلى سجن عدرا. أخبَرَني أنّك تعرضْتَ للتعذيب مرة أخرى. هذه المرة، حاولوا إرغامك على الإدلاء بشهادة تلفزيونيّة تَزعم فيها أن شهاداتك عن التعذيب في كلّ العواصم الغربية، كانت كذبًا محضًا.

هذا آخر ما نُمي إليّ. وبعد ذلك لا أخبار بتاتًا. عائلتك فقدَتِ الاتّصال بكَ.

أنتَ مختفٍ. مفقود.

لماذا عدتَ إلى هناك مرة أخرى؟ لا أحد يعرف. ولنفترض أنّنا عرفنا. ماذا سيتغيّر؟ لقد «استردّك» النظام، وهو قادرٌ كما بِتنا نعرف. لقد نبّهْتَنا.

هذه العودة عودتك. أفلم نُجرّدك بما فيه الكفاية؟ ألم؟

يوم ١١ نيسان ١٩٨٧، انتحر بريمو ليفي، مؤلّف كتبٍ أساسيّة عن المحرقة، أشهرُها «أهذا هو الإنسان»، عن تجربته في معتقل أوشفيتز، و«المنبوذون»، و«الناجون». هُوَ، وجان أميري، وبول تسيلان ، بعد أن شاهدوا فظاعة «الحلّ النهائي»، اختاروا موتهم.
في ختام مؤلَّفِه «الهدنة»، الصادر عام ١٩٦٢، كتَبَ ليفي:
«[...] بين الحين والحين، بوتيرة متقاربة، يزورني حُلمٌ مرعب.
هو حُلمٌ داخلَ حُلمٍ، تختلفُ تفاصيله في كلّ مرّة. أمّا جوهره، فواحدٌ. أراني جالسًا حول مائدةٍ مع عائلتي أو أصدقائي، في العمل أو في منطقة ريفيّة. الجوّ هادئٌ ومريح، لا تَوتُّر ولا ألم. لكنّني أشعر بقلقٍ خفيفٍ وعميقٍ، وكأنّني مُهدَّد. ثمّ ينهارُ كلّ شيء: المكان، والناس. ويستحيل قلقي قويًّا وواضحًا، ثمّ يعمّ الخراب. أجِدُني وسط عدمٍ رماديٍّ غامض. وفجأة أُدرك المعنى، المعنى الذي لم يغب عنّي مرّة: لقد عدتُ إلى المعتقل. عدتُ إلى الحقيقة الوحيدة. أمّا العائلة، والطبيعة الربيعيّة والمنزل، فإجازاتٌ قصيرة، وهْمٌ من نسج الحواس أو لرُبَّما حُلْمٌ». ❖

الفصل الأربعون

العودة إلى مرابعي، هذا مطلبي.
لقد اكتشفتُ العالم. اكتشفتُ العالم وأكاذيبه. رأيت...

حين أكون وحدي، أُفكّر في كلّ ما حدث من مصائب ومآسٍ. ألجأ إلى ذاكرتي، فأرتاح إلى اختلائي بها. أريد أن أعود إلى سوريا، إلى عائلتي، كي أعيش.
وحيدًا، أعود إليها بالفكر. أعودُ إلى طبيعتها، وإلى نهر الفرات، وإلى الصحراء. إلى الفرن على سطح دارنا، وإلى رائحة الخبز والشواء.
أتخيّلُني متنزِّهًا قرب النهر، وساهرًا على ضفافه مع إخوتي، وجالسًا في الصحراء. نعم، أريد أن أعود إلى مرابعي. أن أعود، وأمشي في أحضان الطبيعة الغنّاء.

الهـوامـــش

ص ٩: غارانـس لـوكان، «وثائـق قيـصر» ـ صـور مـن قلـب آلـة المـوت السـوريّة، دار سـتوك، باريـس، ٢٠١٥. صـدر الكتـاب بالعربيّـة عـن دار ميسـلون للثقافـة والترجمـة والنـشر، إسـطنبول، ٢٠١٨.

ص ٢٨: ذاكـرة الثـورة السـوريّة ـ مـن يوميّـات الثـورة السـوريّة ـ بـشرٌ وحجـر ٢٠١١ – ٢٠١٥، النـصّ الفرنـسي: ناتـالي بونتـان، منشـورات الإفبـو، بـيروت، ٢٠١٨.

ص ٧٤: جـان أمـيري، «مـا وراء الجريمـة والعقـاب» ـ بحـثٌ في تخطّـي مـا يسـتحيل تخطّيـه، ترجمـة فرانسـواز ويلـمارت، دار آكـت سـود، أرل، ١٩٩٥.

ص ٨٣ و٨٤: شـارلوت دَلبـو، «لـن يعـود أحـد ـ مـا بعد أوشـفيتز»، الجـزء الأوّل، دار مينـوي، باريـس، ١٩٧٠ | الذاكـرة والأيّـام»، دار بـارغ الدوليّة، ١٩٨٥.

ص ١٠١: يـورغ سـامبران، «الكتابـة أو الحيـاة»، دار غاليـمار، باريـس، ١٩٩٤.

ص ١٤٤: يارا صبري، ممثّلة سوريّة شاركت في الثورة.

ص ١٥١ و١٥٢: فـارلام شـالاموف، «دروب»، قصيـدة «ذرّ العيون»، ترجمـة لوبـا جورغنسـون، دار فرديه، باريـس، ٢٠٢٢.

Et avec horreur | J'ai compris que j'étais invisible a quiconque | Qu'il fallait semer des yeux | Que le semeur d'yeux devait venir

«دفاتـر كوليـما وقصائـد أخـرى»، ترجمـة كريسـتيان مـوز، دار موريس نادو، باريـس ٢٠١٦.

Je n'obtiendrai pas la paix | Ni dans le rêve ni dans la réalité | Parce que c'est ce hurlement | Ce hurlement de loup qui m'aide a tenir.

«ذكريـات كوليـما»، ترجمـة آن ـ مـاري تاتسـيس ـ بوتـون، دار فرديـه، باريـس ٢٠٢٢.

ص ١٦٠: جوليـوس مارغـولان، «رحلـة إلى بـلاد زو ـ كا»، ترجمـة نينـا بربروفـا ومينـا جورنـو، دار لـو بـروي دو تـان، باريـس، ٢٠١٠.

ص ١٧٢: موقع ياسين الحاج صالح .www.yassinhs.com

ص ١٧٣: رزان زيتونـة. محاميـة سـوريّة أسّسـت قاعـدة بيانـات تسـجّل انتهـاكات النظـام لحقـوق الإنسـان. اختطفـت يـوم التاسـع مـن كانـون الأوّل عـام ٢٠١٣ هـي وسـميرة الخليـل ووائـل حـمادة ولم يعـودوا.

بسّـام الأحمـد هـو المديـر التنفيـذي لمنظّمـة سـوريّون مـن أجـل الحقيقـة والعدالـة لتوثيـق انتهـاكات حقـوق الإنسـان ومـن أجـل العدالـة والتغيـير.

ص ١٧٨: شـارلوت دَلبـو. «مـا الجـدوى؟ أوشـفيتز وبعـد»، الجـزء الثـاني، قصيـدة: صـلاة غفـران لأحيـاء مـا زالـوا عـلى قيدهـا، دار مينـوي، باريـس، ١٩٧٠.

ص ١٨٣: بريمو ليفي، «الهدنة»، كتاب الجيب، ٢٠٠٣.

جزيل الشكر

لفوزي الحمادة أبو الجود شقيق مازن الأكبر، الذي أذن لي ـ في غياب مازن ـ نشرَ هذا الكتاب، الذي سَمح لي بأن أفهمك بشكل أفضل. أُقدّم احترامي وامتناني لكلّ أفراد عائلة بسيس الحمادة، ولمن هو صلة الوصل بيني وبينهم، والراغب في البقاء في الظلّ.

امرأتان أَدِين لهما بحمل الكتاب معي: عائشة أرناؤوط، الصديقة المخلصة الكارهة للظهور، والمترجمة الصبورة التي لا استغناء عنها من بداية المشروع إلى ختامه؛ وميلي تشين، محرّرتي، التي دعمت هذا العمل بلا تردّد. فنظْرَتُها ودِقّتُها وثقتها عواملُ بدّدَت وطأة قلقي .

بِودّي شكر هيلينا ديليا، التي ما كفّت منذ سنوات تستمع إلى شكوكي، وترشدني وتسدّد خطاي، وأنا أُحدّثها عن العنف السوري.

محظوظة أنا بإمانويل كاركاسون. صبَرَ عليّ، ثمّ وافق على أن ننطلق بعد انتظار، كي نُنجز الكتاب بسرعة. فشكرًا له.

أحطْتُ نفسي دومًا بلوحات نجاح البقاعي، خلال أحاديثي إليه وإلى مَن أعرِفُ مِن سوريِّين. إحدى لوحاته زَيَّنتْ غلاف الكتاب الفرنسي.

أخيرًا، أَودُّ أن أُجدّد شكري الموصول لباتريك أنجفين: حضورك بلا ريب أساسيّ. وشكرًا للون أنجفين، وليلي أنجفين. معكما أُبحرُ إلى عالم آخر تُشْرِعان لي أبوابه.

لم يَعُد معنا

حينَ تيقّنتْ غارانس لوكان أنّ مازن الحُمادة، الذي أمضتْ معه ساعاتٍ طويلةً تصغي فيها إلى قصّة سجنه وتعذيبه ولجوئهِ لن يعود، قرّرتْ إنشاء كلامه كتابًا.

خانته عدالة الغرب، ففضَّل العودة إلى سوريا بلدِ المطامير والإهانةِ وهو يحلُمُ بدير الزور والفرات وبدولةٍ عادلةٍ لا تفترسُ أبناءَها. وصلَ إلى مطار دمشق واختفى. صحيحٌ أنّ التِّنِّينَ لا يرتوي من دماء أبنائهِ، بيدَ أنَّ شقائقَ النُّعمانِ عنيدةٌ كالرَّبيع.

غارانس لوكان

صحافيةٌ استقصائيَّةٌ فَرَنسيَّةٌ، كاتبةٌ ومخرجة. عاشتْ في العالم العربي وكتبتْ عن مآسيه.

لها:

ـ وثائق قيصر ـ صورٌ من قلب آلةِ الموت السوريّة، دار ستوك، ٢٠١٥.
مترجم إلى الإنكليزيّة والألمانيّة والعربيّة والنروجيّة.
ـ أرواح سوريا المفقودة مع ستيفان مالتير، فيلم وثائقي، ٢٠٢٢.

978-9953-11-258-9